وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الحرفة الشامية والتراث الشعبي الشفاهي

محمد خالد رمضان

الحرفة الشامية

والتراث الشعبي الشفاهي

الإشراف الفني والطباعي
أحمد عكيدي

وزارة الثقافة
مديرية التراث الشعبي
مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي
(٢٠)

الحرفة الشامية والتراث الشعبي الشفاهي

محمد خالد رمضان

منشورات وزارة الثقافة - مديرية التراث الشعبي
دمشق - ٢٠٠٩

الحرفة الشامية والتراث الشعبي الشفاهي / محمد خالد رمضان .-
دمشق : مديرية التراث الشعبي ، ٢٠٠٩ . - ٢١٦ ص ؛ ٢٤ سم.
(مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي؛ ٢٠)

١- ٣٩٠,٠٠٥٦١١١ ر م ض ح ٢- العنوان
٣- رمضان ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

الباب الأول

المقدمة:

الحرفة إبداع من نوع خاص، وكما جاء في المعجم الوسيط ص (١٦٧) مادة حرف :

(١- احترف اتخذ حرفة فهو محترف

٢- الحرفة وسيلة الكسب من زراعة وصناعة

٣- الحريف العامل في الحرفة وجمعها حرفاء).

انتهى الاقتباس

أما ما جاء عن الصنعة في المعجم الوسيط، فقد جاء فيه في ص(٥٢٥) مادة صنع:

(١- صَنَعَ الشيء صُنعاً- عمله ٢- صَنِعَ صَنَعاً مهر في الصُنع ٣- الصانِع من يصنع بيديه وإمرأة صانعة اليدين ماهرة حاذقة مجيدة في عمل اليدين ٤- الصُنُعُ- العمل ٥- المَصْنَعْ: الموضع تمارس فيه صناعة.) انتهى الاقتباس.

أما ما جاء عن المهنة في المعجم الوسيط، فقد جاء في ص (٨٩٠) مادة مهن:

١- مهن الرجل - مهناً، ومهنة، ومهنة: عمل في صنعته

٢- المهنة: العمل انتهى الاقتباس

نستنتج من هذا العرض أن الحرفة هي مادة العمل وإبداعه، وتنتج أثراً بيناً معروفاً. أما المهنة فهي العمل بذاته في الحرفة، والصنعة، والمعنى القاموسي

يختلف قليلاً عن معاني المواد المذكورة في الحياة. إذ أخذت أبعاداً أخرى حياتية بعد التجارب، والخبرات، والعمل.

وفي هذا المجال درس الباحث الدكتور بدر الدين السباعي في كتابه الهام (أضواء على قاموس الصناعات الشامية) والذي هو من تأليف محمد سعيد القاسمي وجمال الدين القاسمي وخليل العظم. درس مسألة الحرفة، والصنعة، والمهنة دراسة علمية وافية، بين فيها الفروق بين هذه المواضيع بشكل واضح، ودقيق وذلك في صفحات ٣٧- ٣٨- ٣٩- ٤٠- ٤١- ٤٢- ٤٣- ٤٤- في كتابه المذكور.

نقتبس منها ما يفيد دراستنا. فعن الحرفة قال ص (٢٧): (مع تطور الزراعة وتربية الماشية كصنع الفخار، والنسيج، وصناعة أدوات العمل... ومع تطور هذا الإنتاج وتعمق التبادل حدث ثاني تقسيم كبير للعمل...) وقال في الصفحة ذاتها:

(وإذا أردنا بحث الحرفة كنشاط مستقل عن الزراعة وتربية الماشية، والتجارة، وتطرقنا إلى التعريف المحدد لها، نجد أن المنتجات من المواد الأولية، يجري بكميات صغيرة، وبطريقة يدوية..) انتهى الاقتباس

ملاحظات:

١- أضواء على قاموس الصناعات الشامية- د. بدر الدين السباعي دار الجماهير الشعبية- مطبعة العلم.

أما عن الصناعة ومفهومها فقد كتب في الكتاب المواما إليه (أضواء على قاموس الصناعات الدمشقية) ص (٤١):

(بقي أن نبحث في مفهوم الصناعة الحديث الذي ليس هو مفهوم الحرفة، ولا مفهوم الزراعة ولا مفهوم التجارة، ولا مفهوم الخدمات... وإنما هو مفهوم مستقل له معانيه المحددة وله نشوؤه وتطوره التاريخيان...) انتهى الاقتباس

ويتابع القول في الكتاب ذاته ص (٤٣):

(من كل ما تقدم نستطيع إذن القول بأن الحرفة، والصناعة مفهومان متمايزان، وإن كل خلط بينهما، أو التعريف على أساس أن العمل اليدوي هو الصناعة، وغير اليدوي هو الحرفة، هو خطأ كبير.

فالحرفة هي العمل الصناعي السابق تاريخياً لنشوء الصناعة الرأسمالية وهي النشاط الاقتصادي الذي ولد تاريخياً، ممتزجاً بالعمل الزراعي وعمل الماشية ثم استقل عنهما ليحدث ثاني تقسيم اجتماعي للعمل، هو العمل الحرفي.) انتهى الاقتباس.

ومن وجهة نظري فإنني أؤيد ما ذهب إليه الباحث في قضيتي الحرفة، والصنعة.

فهو مبدع في العمل، والمبدع فيه أثر عيني بين ملموس. نستطيع لمسه من أطرافه كلها، حيث يعطينا إحساساً معيناً يفرحنا ويغني وجداناتنا، نتعرف من خلاله قضايا، وعوالم كانت مجهولة لدينا قبل تعرفه، ونرى مرئيات مجسمة بأجسام متباينة يرتسم في أعماقه زمان، ومكان، وأناس. إبداع يمكن أن يعلق على الحائط أو يمد على الأرض، وأن نستعمله في شرابنا، ومأكلنا، وفي ملابسنا ويمكن أن نضعه في زاوية البيت، وصدره، وفي منتصف الغرف. يدخل أعماقنا، ويحرك مكنونات روحنا فهو فينا، ونحن فيه. عالم غني بكل الجمالات المطلوبة، وروعة لها نكهة الوجود. هذا العالم المملوء بالأشياء التي تأخذنا في رحلة الحياة. له مناخ الإنسان فيما يرى، ويمسك، فالحرفة عمل يدوي. نتاج لحركة الأصابع، والأقدام، والعيون، والزنود. لغته العمل، وحرفه الشكل.

خلق في عالم يملأ وجودنا، وحياتنا، ويلونهما. فأينما يقع نظرنا لابد أن يقع على بعضه. ثراء يمتد في جذور أرضنا، وتاريخنا. يخترق الأبعاد في مسلسل زمني لم ينته إلى الآن. فمنذ فجر التاريخ عرفت بلادنا بنتاجاتها الإبداعية

اليدوية التي أدهشت بروعتها العقول، ولا تزال. إبداع في تراث شعبي مادي حمل في طياته علاقات المجتمعات التي عاش فيها، وجسدها مزركشة، ومرسومة، ومطروحة، ومحفورة في نمنمات ملأى بالروعة الخالدة.

هذا التراث الضخم هو أحد مصادر تأريخ حياتنا، ودراستها. لهذا نستطيع القول إن الحرفة أحد الحوامل الاجتماعية التي يمكننا أن نستنتج منها بعض ما خفي عنا، وعن معطيات تاريخنا التي قدمها لنا. فمن خلال دراستنا للحرفة، وعلاقتها بالمجتمع، وحياته نتعرف أشياء هامة مفيدة لنا، ولعملنا.

هذا الكتاب المعنون بـ (الحرفة والتراث الشفاهي) هو ليس توثيق للحرفة. وتوصيف لها من حيث كيفية العمل، وأدواته وإنتاجيتها فقط بل هو دراسة، وتحليل وتعمق في علاقة الحرفة بالناس والمجتمع، وثم تفريق الخدمة عن الحرفة، وبيان ماهية كل منهما.

ومن هذا المنطلق تقصيت التراث الشعبي الشفاهي الذي رافق كل من الحرف المدروسة على حدة من مثل، ومصطلح، وأغنية.

فالحرفة ليست جامدة ساكنة، والحرفيون بشر مبدعون يتحدثون، ويقولون، ويغنون، ويفرحون، ويحزنون لذلك رافق التراث الشفاهي الحرفة، ودخل أعماقها، وعاش معها: فقد كان المسلي للحرفي فهو بمثابة الرائي والحاكي له. إضافة إلى حمله روح الدفع، والتشجيع لاستمرار العمل بهمة، ونشاط. فالتراث الشعبي الشفاهي كان الحافظ الأهم في العمل الإبداعي الحرفي لتمثيله للروح الجماعي، والوجدان الجمعي الذي يوفر الانفعال اللازم، والحركة، والدأب في يوم الحرفي الطويل.

الحرفة لغة من الخلق المبدع الذي لا يبلى على مرور التاريخ لغة تظهر قدرة الإنسان الفائقة على الخلق، والإبداع للعمل، واستمرار الحياة، واثبات الذات والوجود.

الباب الثاني

الحرفة وماهيتها- العلم والتاريخ:

الحرفة عمل إنتاجي محدد من خلال جنس معين، منتج جديد كلياً لم يكن معروفاً قبل إنتاجه يخلقه ويكونه الحرفي بواسطة عمله اليدوي وبأدوات يدوية محضة.

أما المواد الأولية التي يتشكل منها هذا الخلق الجديد فهي:

١- القماش

٢- القطن.

٣- الخشب

٤- الجلد

٥- التراب

٦- الرمل

٧- الأعشاب

٨- الفواكة والثمار

٩- بعض أنواع الأشجار

ويصبح هذا المبدع سلعة يتداولها الناس شراءً، وبيعاً، وتسويقاً.

فالحرفة إذن تكوين مادي محسوس له وجوده الزماني، والمكاني، وله كتلته، وملمسه.

والحرفة علم، وتعلم، وخبرة، وتجربة. ولها تاريخ معين وبدايات بدأت منها.

ويتطلب العمل في الحرفة حرفيين، وأمكنة. وهذا بدوره يلزمه الاستقرار في المكان، وتأمين مواد الحرفة الأولية من مكان قريب. أما المعلم الحرفي فقد يحتاج إلى عمال آخرين أو لا يحتاج، وهو يبدأ عمله بتصور الكتلة المطلوبة في عقله أولاً، والتخطيط لها، وإبداعها في رأسه ثم تنفيذها على أرض الواقع ثانياً.

١- الفصل الأول: نشوء الحرفة:

الحرفة نتاج لوضع اجتماعي، واقتصادي محدد. أتاح لها الظهور. حيث بدأ نشوؤها ببطء شديد، وبأعمال بدائية جداً تتناسب مع تلك العهود، واعتبر اكتشافها شيئاً عظيماً، وتطوراً هاماً لمسيرة الإنسان فقد كان تطوراً للعمل، وإضافة قيمة جديدة له. فقد فتحت له عالماً مبهراً، وأبواباً مغلقة أطل منها على مساحات واسعة ساهمت في عملية التقدم.

لقد كشفت لنا العلوم المادية التاريخية كيفية النشوء المنوه عنه، وحقيقته العلمية ولماذا نشأت الحرفة ومعنى نشوئها وحركية هذا العالم الحرفي، وبينت بشكل ما زمنه، وتاريخه، والأمكنة التي ابتدأ منها.

كذلك خلال تقصينا في أعماق حرفنا الشعبية استطعنا معرفة بعض القضايا حول نشوء الحرفة، وتكوينها خاصة الحرف الدمشقية القديمة.

وبالعودة إلى علوم المادية التاريخية[1]. ومن خلال كتاب المادية التاريخية تأليف: ف- كيللي وم- كوفالزون[2] ترجمة أحمد داود ومراجعة الدكتور بدر

---

(١) أسس الاشتراكية العالمية: المادية التاريخية تأليف ف- كيللي.

(٢) كوفالزون- تعريب أحمد داود- تدقيق بدر الدين السباعي- إصدار دار الجماهير ص٥٧٤- عام١٩٧٨- ص١٦٣ من الكتاب.

الدين السباعي، نقرأ في ص(١٦٣) من الكتاب المنوه عنه (فقد وجدت في مجتمع الرق ملكية الفلاحين والحرفيين. وبالرغم من أن عمل الرق كان ذا مردود قليل ويعطي قليلاً من المنتوج الفائض فإن استثمار جماهير العبيد الواسعة كان يجلب للمالكين ثروات هائلة ويخلق الشروط من أجل تطور تقسيم العمل فيما بعد، وفي الدرجة الأولى فصل العمل الفكري عن العمل الجسماني والمدينة عن القرية والحرفة عن زراعة الأرض. إن نظام الرق إذا كان الأساس لتقسيم العمل الضروري من الوجهة التاريخية، فإنه بهذا خلق الشروط لازدهار ثقافة العالم القديم، ولتقدم قوى الإنتاج ولزيادة وتيرات التطور التاريخي. إن تطوير تقسيم العمل الاجتماعي كان أحد الجوانب التقدمية لأسلوب إنتاج عهد الرق بالمقارنة مع نظام المجتمع البدائي)

ومن الكتاب المنوه عنه أعلاه نقتبس ما يلي:

(في ظروف مجتمع الرق حدث تطور تالٍ للقوى المنتجة رفعها إلى مرحلة جديدة، ففيه حدث تحسين في عملية صهر المعادن، وصناعة الحديد، وانتشار المحراث الحديدي، ونول النسيج وتطور زراعة الأرض وانتشار البساتين وصناعة الخمور والزيوت).

وفي المصدر ذاته (ص١٧٠) نقرأ:

(لقد انطلقت الإقطاعية من القرية التي كانت تسيطر على المدينة، وكان الإنتاج الحرفي في المدينة، وخاصة في مراحل الإقطاعية الأولى، أقل شأناً بالمقارنة مع الزراعة)

وفي المصدر ذاته (ص١٧٠) نقرأ أيضاً:

(لقد حققت قوى الإنتاج خطوة تقدمية جديدة في عهد الإقطاعية، فتطورت الحرفة وتحسن تكنيك الزراعة، وفي حدود النظام الإقطاعي تهيأت الشروط لقفزة هائلة في تطور قوى الإنتاج من أجل ظهور الإنتاج الآلي).

وفي المصدر ذاته (ص١٧١) نقرأ:

(لقد أدى تطور العلاقات السلعية- النقدية، وتطور التجارة، وتفسخ الاقتصاد الطبيعي المربوط بنمو الأهداف والاكتشافات الجغرافية الجديدة وغيرها، أدى إلى رفع التطور العام إلى الأمام . إن الإنتاج الحرفي الذي يبلغ درجة عالية من التطور في فترة ازدهار النظام الإقطاعي لا يقدر على سد الحاجيات المتزايدة، كما أن إمكانيات توسعه جد محدودة. إن تقسيم العمل في الإنتاج الحرفي يكون في الحرف المختلفة، لكنه لا يتجاوز الحد إلى داخل الحرفة الواحدة بالذات، إن مصادر المواد الأولية وأسواقها جد معينة ومحدودة، وأن قيود الإنتاج ككل كانت تعرقل تطور الحرفة، وكانت متطلبات السوق تستدعي إلى الحياة قوى إنتاجية جديدة- التعاونيات والمانيفاكتورة).

من خلال الاقتباسات المتعددة التي أوردناها من كتاب المادية التاريخية تعرفنا قضيتين هامتين جداً أولاهما: هي قضية زمن نشوء الحرفة، وعرفنا أنها نشأت في عهد الرق عندما انقسمت عن الزراعة، وثانيهما تطور الحرفة منذ عهد الرق حتى عهد الإقطاعية، وكيف مرت وظروف مرورها في تلك الأزمنة المختلفة، وكيفية هذا التطور، وإلى أين وصل. وكيف أن عدم تمكنها من سد حاجيات السوق أخر تطورها.

وبالمناسبة يمكن القول أن كتاب المادية التاريخية من أهم الكتب التي بحثت في الحرفة ونشوئها، وتطورها بشكل علمي.

٢- الفصل الثاني: تطور الحرفة وانتعاشها وتوسعها:

أما في بلادنا وحسب معطيات الحرف، وما ذكر عنها في مراجع، ومصادر عديدة، يتبين لنا أن تطورها كان متقدماً جداً في تشكيلة عهد الرق. يشهد على ذلك الأسواق الحرفية الباقية إلى الآن في بلادنا ومدننا، ولكن لماذا لم يتطور

إنتاج الحرفة إلى إنتاج تعاوني وثم آلي؟ إن هذا له أسبابه الخاصة ولا مجال لبحثها هنا.

لقد نشأت الحرفة في بلادنا منذ أزمان بعيدة جداً تعود إلى آلاف السنوات حسبما أعطتنا آثار المدن القديمة مثل دمشق، وتدمر وأوغاريت، وسرجيلا وأفس، وكل المدن الميتة، وكذلك كتب التاريخ إجمالاً التي تحدثت عن حرف دمشق.

فقد جاء في كتاب الروضة الغناء[1] في دمشق الفيحاء (ص١٣١):

(وجدت الصنائع في دمشق منذ زمان طويل واعتنى بها الدماشقة وأفلحوا وحسبت مدينتهم من الطراز الأول بين مدن الصنائع الشرقية حتى صار اسمها علماً لبعض المصنوعات المتقنة.. إلخ).

يدل هذا الكلام أعلاه على قدم الحرف في بلادنا، وعلى أهميتها الكبيرة. ومما يدل على قدمها أيضاً في سورية تلك المعاصر في المناطق الزراعية، القديمة قدم الزراعة وهي معاصر لصناعة الدبس، والخمر وتنتشر في رقعة كبيرة حيث آثارها في جبل العرب، والزيداني، والقلمون، وغيرها.

مدينة أوغاريت[2].

فقد تطورت الحرف، والصناعات في هذه المدينة والتي هي عاصمة الحضارة الأوغاريتية تطوراً هاماً خاصة في حرف تطعيم الذهب، والفضة، والبرونز حيث صدرت، نتاجات هذه الحرف إلى شتى المناطق المتعاملة تجارياً معهما.

---

(١) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء تأليف نعمان قساطلي- الطبعة الثانية ١٩٨٤- دار الرائد العربي.

(٢) مجلة الحياة التشكيلية عدد/٧٤/ ٢٠٠٥ من مقال عن أوغاريت وفنون التعدين للدكتور عبد الله السيد.

وقد جاء عن صناعات دمشق في كتاب نزهة الأنام في محاسن الشام (ص٢١٤):

إذ ينوه بصناعاتها (من القماش والنسيج على أنواعه ومنه الأطلس والقماش الأبيض والهرمزي والسابوري المصوّر والملون وصناعة الذهب بكل أنواعه المسبوك والمجرور والمضروب والمرفوع والممدود وصناعة الدباغة بكل أنواعها وصناعة الحرير بكل أنواعه وصناعة السلاح بكل أنواعه، وصناعة القماش والصناعات الخشبية المزخرفة وصناعة القباقيب. وقال ابن هانئ الأندلسي على لسان القبقاب:

كنت غضاً بين الأنام وطيباً　　مائس العطف من غناء الحمام

صرت أحكي رؤوس أعداك في الذل　　برغم أداس بالأقدام

ومن الكتاب ذاته نقتبس (ص٢١٥):

قافات دمشق:

(ومن أهم صناعات دمشق قافاتها العشر وهي:

١- قصب ذهب ٢- قبع ٣- قرضية ٤- قرطاس ٥- قوس ٦- قبقاب ٧- قراصيا ٨- قمر الدين ٩- قريشة ١٠- قنب).

وكانت هذه الصناعات تصدر إلى كل مكان خاصة مصر:

وهي مشهورة بهذه القافات كثيراً أي الحرف التي تبدأ بحرف القاف.

وحول الحرف الدمشقية لا بأس أن نقتبس من كتاب الروضة الغناء[1] في دمشق بعض الاقتباسات من (ص١٢١) حتى (ص١٢٥) حيث تطرق الكاتب في كتابه إلى هذه الحرف في ست صفحات. حيث جاء:

---

(١) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء- نعمان القساطلي - ص١٢١- ١٢٥ مصدر سابق.

(أن صناعات دمشق قديمة جداً قبل الفتح الإسلامي واعتبرت صناعاتها من الطراز الأول، وهي مشهورة جداً بصناعات لا توجد في غيرها عندها من المدن كالدامسكو- القماش الموشى، وبعضها فقد منها كصناعة السيوف الدمشقية منذ دخول تيمور إليها).

وصنعة القيشاني التي انتهت في القرن الثامن عشر- لموت حرفييها وموتها معهم. وفقدت صناعة الدهان الدمشقي أيضاً أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر- لم يذكر الكتاب سبب فقدها ويقول الكتاب بقيت /٥/ صنائع هامة: هي

١- النسج ومشتقاته ٢- الدباغة ٣- الصياغة والحدادة ٤- البناء ومتفرقاته ٥- الخياطة.

يشير الكتاب أن الحرف في دمشق كانت قديمة قبل الإسلام، ويشير أيضاً كدليل على ذلك أن بعض الحرف محصور في الطائفة المسيحية خاصة النسيج وذلك في أواخر القرن التاسع عشر.

ومن (ص١٢٢) من الكتاب ذاته:

إذ قال إن تيمورلنك بعد أن استباح دمشق ركز على الحرفيين الكبار وأخذهم معه وذكر ذلك في كتاب عجائب المقدور.

وأخذ معه الكثير من الحرفيين خاصة النساجون وصناع السيوف الدمشقية وكان ذلك عام ٨٠٣ هـ وفي ص١٢٣ الكتاب يقول الكاتب:

(أن الحرير أصبح غالياً، ودخل النسيج الأجنبي ولو أنه غير متين لهذا بادر الحرفي عبد المجيد الأصفر إلى تقليد الألاجة وشارك حسن الخانجي الذي أمده بالمال وعملاً وقدماً نسيجاً جميلاً جيداً.

(وكانت أنوال دمشق تقل عاماً عن عام وكانت في زمن المؤلف: ١٦٠٠ نول ألاجة و٦٥٠ قطني و٣٣٠ ديما و٤٥٠ شالات و٣٥٠ كفيات حرير و٥٠ زنار

طرابلسي حرير و٥٠ نول فوط وملاية حرير وبوشية و٣٠٠ كريشة وهرمزي وسلطانية. وبلغ عدد الأنوال ٥٣٥٠ نولاً. وهذه تشغل ١٦ ألف نسمة وأما عدد العاملين في الدباغة فقد بلغ ٥٠٠ نسمة اقتباس بتصرف من الكتاب ذاته[1].

وتبين لنا هذه المقبوسات كم هي هامة تلك الحرف، والصناعات الدمشقية حتى أن المؤلف أبقى للحديث عنها هذه الصفحات الطويلة، وقد أشار إلى قضايا هامة جداً فيها مثل عدد الأنوال في زمنه. ونشير هنا إلى أن مؤلف الكتاب نعمان قساطلي لم يبين لنا الفرق بين الحرفة والصنعة، وأنه أشار إلى أن كل الحرف هي صناعات.

أما الأستاذ الأديب الباحث محمد كرد علي فقد خص صناعة دمشق بـ /١٥/ صفحة من كتابه الهام[2] (دمشق مدينة السحر والشعر) وذلك من ص/١١٧/ حتى ص/١٣٢/. ومن أهم ما أشار إليه أن دمشق، اشتهرت بصناعة الزجاج العالي الجودة، والذي يضرب المثل بصفاته حتى أنها سميت (بالزجاجة).

وكذلك فعل الأستاذ الباحث منير كيال إذ خص الصناعات الدمشقية بكتابين هما:

١- فنون وصناعات دمشقية- وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٢- الصناعات السورية التقليدية- المديرية العامة لمعرض دمشق الدولي.

ولأهمية الحرفة والصنعة فقد تحدث عنها القرآن الكريم حيث جاء فيه:

﴿(٧٧) وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين. (٧٨) ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع

---

(1) الروضة الغناء- المصدر السابق.

(2) دمشق مدينة السحر والشعر- دار المعارف- مصر- محمد كرد علي.

داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين. (٧٩) وعلمناه صنعة لبوسٍ لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة رقم (٧٩) أن الله علم الإنسان حرفة وصنعة لتقيه أيام الشدة والقوة. وهذا يعني أن الحرفة قديمة جداً إذ جاء ذكرها في القرآن الكريم كما أسلفنا.

٣- الفصل الثالث: الأسواق الدمشقية:

ولا نعني بالأسواق هنا الأسواق العامة بل نعني بها الأسواق الخاصة بالحرفة، وبكل حرفة على حدة. حيث أن دمشق ملأى بأسواق حرفية قل نظيرها في كل مدن العالم. فلا شبيه لترتيبها، وكثرتها، وتنوعها، واختلافها، ولصناعاتها، وتسويق هذه المنتجات.

أسواق دمشق الحرفية زركشة حياتية جمالية هامة. هي زركشة الأيدي، ونمنمة العمل، وخلق لوحات رائعة تتسم بالعجيب، والمدهش من الأشياء. لوحات إنسانية عميقة المعاني، تبحث عن أبعاد زمانية لا نهاية لها. في هذه الأسواق نزهات وفرج يقصدها الإنسان للتمتع.

ومن معالم دمشق الحضارية والتاريخية أسواقها الحرفية التي تظهر غنى الإنسان الدمشقي، ومدى إمكانياته، وتأثيراته. فهي مقصد السياح، ومحجهم حيث يقضون الساعات، والأيام الطويلة، وهم يتفرجون عليها وعلى كيفية عمل الحرفيين، وآلية هذا العمل.

هي زينة لها، طوق من الياسمين البلدي يطوق عنقها، جوهرة من جواهر الكون تحلي صدرها، وهي بحر من الألوان الزاهية التي تلونها، أسواق دمشق لؤلؤة إلهية دائمة التكون.

---

(1) القرآن الكريم سورة الأنبياء آيات ٧٧- ٧٨- ٧٩.

تنتشر أسواق دمشق داخل أسوارها السبعة، وتعانقها ليل نهار، تأخذ هذه الأسواق أشكالاً متباينة في هندستها، واتساعها، وفي أمكنتها. كل هذا ليناسب الحرفة التي يحويها كل سوق بمفرده. وليتناسب مع الأسواق الأخرى، والأزقة التي تجاورها. ولتتناسب أيضاً مع أعداد القاصدين للشراء منها إما للتجارة أو للاستعمال الشخصي.

هي عالم خاص، عالم فيه الدهشة، والغرابة، والفرح، والبديع في الجمال.

ولقد أتى ذكرها في أكثر الكتب التي تحدثت عنها وبحثت في تاريخها، ومعالمها أو في تقاليدها، وعاداتها الاجتماعية، في أزمنتها، وأهلها وعلاقاتهم إلى آخر ما هنالك عن دمشق. ولن نذكر كل الكتب التي تناولت أسواق دمشق وسنكتفي بذكر اثنتين منها. أولهما وهو مصدر هام حول (الرحلة الشامية)[1] لمحمد علي باشا. ولقد أتى على ذكر أسواق مدينة دمشق في الصفحة الثانية والثمانين من كتابه. حيث وصفها وبيّن مواقعها، وجمالياتها، وفعالياتها، ونقتطف من الكتاب المذكور ما يلي:

(في هذه المدينة أسواق كثيرة تسمى بأسماء مختلفة، وفي الغالب يسمى كل سوق منها باسم ما يصنع أو يباع فيه على نحو ما يعرف في المدن الكبيرة وهذه الأسواق على نوعين مجموعة ومتفرقة والمجموعة منها يطلق عليها اسم المدينة وهي شرقية الشكل أكثرها ضيق مسقوف...).

أما الكتاب الثاني فهو مرجع من تأليف الدكتور يوسف جميل نعيسة وهو مجتمع مدينة دمشق بين عامي ١٧٧٢- ١٨٤٠ وهو كتاب هام في مجلدين[2]. وقد

---

(١) الرحلة الشامية لمحمد علي باشا- دار الرائد العربي- ١٩٨١.

(٢) مجتمع مدينة دمشق بين عامي ١٧٧٢- ١٨٤٠- في مجلدين طبعة دار طلاس ١٩٨٦- المجلد الثاني.

جاءت في المجلد الأول كتابة عن أسواق دمشق حيث أفرد لها الكاتب ثلاثة عشر صفحة من ص/١٠٣/ حتى (ص١١٦).

إذ وصف تلك الأسواق، وعدد بعضها، وكتب عن جمالياتها، وعلاقاتها، وعن حرفييها، وعن التسوق فيها. إلى آخر ما هنالك عنها.

وكان في دمشق مئات الأسواق قديماً وكل سوق لحرفة معينة وبقي هذا حتى أواخر القرن التاسع عشر كما ورد في كتاب (قاموس الصناعات الشامية[1]) لمحمد سعيد القاسمي وخليل العظم، وبدأت هذه الأسواق بالاختفاء بالتدريج. إذ كلما تقدمت الصناعة الحديثة تختفي أسواق معينة حتى بقي منها العشرات فقط في أيامنا ومنها:

١- السروجية ٢- سوق العطارين ٣- سوق القصارين٤- سوق القباقبية ٥- سوق الصاغة ٦- سوق القتية ٧- سوق النحاسين ٨- سوق الحدادين ٩- سوق الحرير ١٠- سوق العبي ١١- سوق الفرواتية ١٢- سوق الغزل ١٣- سوق الصوف.

وقد زرت هذه الأسواق التي ذكرتها كلها خلال عملي في كتابي هذا. وهيَ موجودة في أكثر من مكان في دمشق والبعض منها يجاور غيره. مثل سوق العطارين والقباقبية ومثل سوق العبي، وسوق الفرواتية.

هذه الأسواق لازالت مفخرة حضارية كبيرة لدمشق، ولعمل الحرفي الدمشقي ذلك العمل اليدوي المبدع، ولازالت مصدر إشعاع وتنوير.

٤- الفصل الرابع: أرباب الحرف:

تجمع حرفيو كل حرفة في سوق واحد، وتقارب هؤلاء إن كان في العمل أو التسويق أو السهرات، والاجتماعات، وصار همهم هم واحد خاصة في قضية

(١) مصدر سابق.

تسويق البضاعة المصنعة، والمنتجة، وصار ضروري أن يجتمع هؤلاء ضمن جامعة واحدة تجمعهم، وهكذا تجمعوا، وارتبطوا في شبه نقابات معينة، وسُموا بطائفة، وأصبح لكل طائفة شيخها أو رئيسها المشرف عليها، والمتكلم باسمها، والمدافع عن قضاياها.

وقد جاء في كتاب (حوادث دمشق اليومية)[١] للشيخ أحمد البديري الحلاق حول الحرف، وأربابها، وطوائفها ص/٨٣/ في الحاشية ما يلي:

(الأصناف جمع صنف بمعنى طائفة من طوائف الحرف وتنتظم المشتغلين بالحرفة والقلفوات والإشراقات (أي الصبيان) تحت زعامة شيخ الطائفة، وتنظم الطائفة الشئون المتصلة وتحديد الأسعار ومستوى العمل، والعلاقة بين الطائفة والحكومة. وكانت كل طائفة تربط نفسها بولي معين أو طريقة صوفية خاصة وتساهم في إحياء حفلاتها الدينية. وقد عظم نفوذ الأصناف عندما اندمجت في الانكشارية حتى أصبح هذا الأوجاق لا يكاد ينتظم- في القرن الثامن عشر- إلا أهل الحرف وقد وصف الغزي (ج٣ ص٣٥٠) تسلط الشركات الاحتكارية على الحرف والصنائع، ومنها الجزارة، حتى "كان الرجل لا يقدر أن يطبخ في بيته إلا نوع الطعام الذي يأمره به لحامه" انتهى الاقتباس.

وقد بحث كتاب (مجتمع مدينة دمشق بين عامي ١٧٧٢- ١٨٤٠)[٢] قضايا أرباب الحرف، ومقدم الحرفة، وكيف ينتخب، وكيف كان يحافظ على الحرفي الفقير، وكيف يؤدي دخول البضائع الأجنبية إلى تأخير عمل الحرفي، وإيقافه أحياناً عن العمل، ويبحث صلة معلم الحرفة، وشيخ الكار بالطرق الصوفية، ثم

---

(١) حوادث دمشق اليومية للشيخ أحمد البديري الحلاق تحقيق د.أحمد عزت عبد الكريم- مطبعة لجنة البيان العربي- القاهرة ١٩٥٩.

(٢) (مجتمع مدينة دمشق بين عامي ١٧٧٢- ١٨٤٠) مصدر سابق.

يتحدث عن صلات شيخ الحرفة، ومقدمها ومعاونه بالإنكشارية، وتأثير الحرفيين على الناس. مثلما رأينا في حديث كتاب (حوادث دمشق اليومية).

ضعف هذه الأيام دور الحرفيين في التأثير على المجتمع تبعاً لضعف دور الحرفة رغم أن هناك نقابات تجمع الحرفيين، ولهم تجمعاتهم المهنية، ولكن إمكانياتهم ضعفت بتأثير البضاعة الأجنبية، حيث صار بالإمكان الاستغناء عن منتجات الحرفة. إذ يمكن للإنسان شراء حذاء مستورد مثلاً، وكذلك أصبح سعر الناتج الحرفي غالياً، ولا يستطيع أي كان شراءه. وهكذا كان تأثير استيراد البضاعة الأجنبية على إنتاج حرفيينا، وبضاعتنا المحلية. أما تأثير العمل الحرفي على الإنسان فهو تأثير كبير، إذ أثرت الحرفة لكونها نشاط اقتصادي متطور، وفاعل على مجمل حياته في كل مراحل هذه الحياة، وأثرت على طبيعته، وعلاقاته، وعلى أيامه، وأزمانه، وعلى مكانه من حيث البقاء، والرحيل أو التنقل، والرجوع. كذلك أثرت الحرفة على كنية الإنسان، ولقبه، وعلى أسئلته وتساؤلاته. فمثلاً اكتسب خاصة في المدن الكبرى كنيته من عمله وحرفته. إذ أكثر الكنى تدل على حرفة معينة أو عمل معين أو مهنة معينة فهناك أمثلة عديدة منها:

١- الصبان: وهو من يعمل في صناعة الصابون.

٢- الصاغاتي: وهو من يعمل في صناعة الذهب وغيره.

٣- الفحام: وهو من يعمل في صناعة الفحم.

٤- الفواخيري: وهو من يعمل في صناعة الفخار.

٥- العواد: وهو من يعمل في صناعة الأعواد.

٦- الدقاق: وهو من يعمل في صناعة جمع البزر المتفحم وغيره.

٧- المواس: وهو من يعمل في صناعة الأمواس.

٨- الطحان: وهو من يعمل في صناعة الطحين.

٩- الغزّال: وهو من يعمل في صناعة الغزل.

وهناك مئات من الكنى التي تدل على الحرفة، والعمل لا نستطيع ذكرها كلها.

حتى الألقاب وكما أشرنا تأخذ معنى العمل، والحرفة، والصنعة، والمهنة فمثلاً يمكن أن نطلق لقب (القميمي) على إنسان يشبه القميمي من حيث ما يناله من شحار، وسواد جراء عمله كواقد النار في القميم. و(القميم) هو المكان الذي توقد منه النار في الحمامات العامة، ومن يعمل في هذه الصنعة يدعى القميمي.

٥- الفصل الخامس: قيمة الحرفة ومكانتها في المجتمع:

(الصنعة أمان من الفقر) هذا المثل تعلمناه من أهلنا، وحفظناه، ونقوله دائماً في مجالات الحديث عن العمل، والبطالة، وعن استمرار الصنعة، والحرفة، وأن صاحبها لا يمكن أن يجوع أو يجلس عاطلاً عن العمل، ويقال أيضاً في صياغة أخرى قريبة من الأولى هي (صنعة في اليد أمان من الفقر) وهناك مثل آخر في مثِل هذا المعنى وهو:

(الصنعة ما بتغني بس بتستر صاحبها)، ومعناه قريباً جداً من المثل الأول. وهكذا يحث الحس الشعبي على تعلم صنعة، أو حرفة ما كي تستر الإنسان وتطعمه.

وإلى الآن نسمع الناس، والأصدقاء يحثون على إتقان حرفة ما. معنى كل هذا أن للحرفة قيمة كبرى عند الناس، وصاحب الحرفة له مكانة اجتماعية بارزة. فمكانه الحرفي مميزة عن غيره.

أما في وقتنا الحاضر في العقد الأول من القرن الواحد والعشرين فقيمة الحرفي مثل قيمة غيره كالمتعلم تعليماً عالياً أو المثقف. فالإنسان الآن يقاس

بوعيه، وسلوكه، وعمله. إذ اختلّت القياسات، والتقييمات، واختلفت العلاقات بين الناس على ضوء التقدم العلمي، والتقني.

فاليوم هناك جوالات، وانترنيت. وجوال مرئي، وتلفزيونات ولكنه يبقى للحرفة قيمة بذاتها خاصة الحرف النادرة كالنقش، والتلبيس، والتصديف، والأغباني، وغير ذلك.

٦- الفصل السادس: تميز الحرفة عن العمل الخدمي والمهنة:

أشرنا إلى بعض التميز بين الحرفة، والعمل الخدمي، والمهنة، ولكن بشكل مكثف جداً. والآن نتحدث عن ذلك بشكل موسع، ومفصل كي يأخذ حقه في البحث والدراسة. العمل الخدمي هو العمل اليومي في الصناعة، والزراعة، والتجارة كالبلّاط، والعامل العادي، والطيّان، والمعماري، والمليس، والقميمي، والمكيس، والعتّال، وغير ذلك من الأعمال الخدمية العادية، وهذه الأعمال أعمال غير إنتاجية، وهي ليست أعمالاً حرفية تلزمها الخبرة، والإتقان، والتدبر، ولا تنتج إنتاجاً جديداً لعمل يدوي مميز، وجديد مبدع عن طريق الحرفة. فالعمل الخدمي عمل عادي يقوم به أي إنسان.

وكذلك المهنة مثل مهنة البلاط، ومهنة البناء، ومهنة الدهان، والسواقة، ومهنة تمديد الكهرباء- الكهربائي- أو الميكانيكي. والعمل المهني عمل- متوفر يومياً لا توجد صعوبة في الحصول على العاملين فيه بينما هناك صعوبة في الحصول فوراً على نجار حرفي أو صائغ حرفي أو سباك حرفي. أو ملبس حرفي. فالحرفيون قليلون بينما العمال كثيرون.

ونعرج على مردود العمل وإنتاجيته في التمييز بين الحرفة والعمل الخدمي. فإنتاج الحرفي يقاس بما ينتجه من أشياء ذات قيمة بذاتها حيث إنتاجه هو سلع معينة تباع بأسعار عالية قياساً إلى إنتاجية العمل الخدمي. فالعامل

الخدمي إنتاجه هو قوة عمله، وهو يقدم زمناً ووقتاً معيناً، ولا يقدم إنتاجاً فالفرق كبير بين الإنتاجين. فالعامل يتقاضى راتباً معيناً على أساس عمل يومي، أما الحرفي فيطلب ثمناً معيناً لقاء قيمة إبداعه إذ يبيع بساطاً، وسجادة، وحصيرة، وطبق قش. ورقعة من القماش الملون، أو جرن كبة وغير ذلك.

وهناك اختلاف آخر بين الحرفة والمهنة والعمل الخدمي ألا وهو الاستمرار. فالحرفة غير مستقرة متطورة، وأحياناً مقطوعة أو منتهية. فالكثير من الحرف انتهى، وذهب إلى غير رجعة بينما العمل المهني، والخدمي مستمر، دائماً لا ينتهي لأنه غير مرتبط بالتطور التقني، والصناعي، أو العلمي بصورة عامة.

الحرفة عالم خلق، وإبداع، وإنتاج جديد نادر، والمهنة عالم عمل يومي يقدم خدمات عادية للحياة.

الباب الثالث

الحرف المدروسة:

قدمت بين يدي البحث دراسات حول ثلاثين حرفة، وهي حرف دمشقية في أكثريتها. وقد قسمتها في التقديم حسب النوع تقريباً. ولقد تم انتقاؤها حسب قيمتها، وتماسها مع الناس، وتواجدها إضافة إلى أسباب أخرى.

درست هذه الحرف حسب عدة نواح لصيقة بها إذ درستها من كل ما يمت إليها بصلة من حيث الأصل، والنوع، والتاريخ، والمكان،والزمان، والبقاء، والكم، والكيف، إلى آخر ما هنالك.

أما في التفاصيل فقد قدمت هذه الحرف حسب ما يلي:

١- مدخل قصير قدمت فيه الحرفة والحياة.

٢- مواد هذه الحرفة، ومن أين، وكيف تحضر، ومن أين يؤتى بها.

٣- الأدوات المستعملة في صناعة كل حرفة.

٤- آلية العمل في الحرفة.

٥- الأشكال، والأشياء المنتجة من كل حرفة

٦- الدلالات الأسطورية، والتراث الشفاهي الأدبي الذي يرافق مجريات العمل فيها من أمثال وأغان، وتشبيهات وكنى، واصطلاحات، وهو مدار بحثنا في الكتاب.

٧- هذه الحرف اليوم. إلى أين تسير؟ كيف العمل لوقف تدهور العمل فيها. إلى آخر ما هنالك من قضايا حول وضعها.

وأعتقد أنني قدمت أكثر ما يمكن أن يقال حول تلك الحرف. خاصة حول ما رافقها من مأثورات شعبية شفاهية.

الحرف المدروسة:

١-حرفة البروكار ٢-حرفة غزل الصوف ٣-حرفة البلاسات ٤-حرفة العقل ٥-حرفة السروال ٦-حرفة الشنابر ٧-حرفة خرج العروس ٨-حرفة الفرو ٩-حرفة الأغباني ١٠-حرفة طبع الأغباني ١١-حرفة الأنوال الخشبية ١٢-حرفة أدوات الأفران الخشبية ١٣-حرفة أدوات الطعام الخشبية ١٤-حرفة الهوادج ١٥-حرفة الكشك ١٦-حرفة الدبس ١٧-حرفة دبس التمر ١٨-حرفة قمر الدين ١٩-حرفة الشرشف ٢٠-حرفة الأطباق ٢١-حرفة السلال ٢٢-حرفة السروج ٢٣-حرفة المركوب الأحمر ٢٤-حرفة الشعر ٢٥-حرفة الحصر ٢٦-حرفة الشمع ٢٧-حرفة الموزاييك ٢٨-حرفة شواهد القبور ٢٩-حرفة أدوات الكيل ٣٠-حرفة الفخار.

البروكار والنول اليدوي

البروكار ودمشق اسمان متلازمان لا ينفصمان. البروكار ملتحم بدمشق، بتاريخها وأعماقها. فهو جوهرة زمنها ودرة أزهارها. فملمسه ملمس دمشق، ومرتسمه مرتسمها. وهو حي بحياتها فإذا ذكرت دمشق ذكر. وإذا غني باسمها اقترن معها. إشارة ودليل لدمشق التاريخ والعراقة. ورمز للأيادي المعطاءة النيرة التي نسجته على الثوب الدمشقي الأصيل.

البروكار نسيج دمشقي خالص حمل دمشق في كل نقطة فيه فنحن نشمها فيه، ونحسها، ونشعر بوجودها. نخترق حاراتها، وأزقتها، وحجارتها، وتخترقنا ياسميناتها وزنبقاتها فتوشوش سداه ولحمته. وتغني في أعماقه.وترقص رقصة الألوان الربيعية. فتنقل بردى، والغوطة، والسواقي، والحور إلينا عبر البروكار

المغني أغنية الزمان. وترسم الأصوات الإنسانية الأليفة، والأيادي الخالقة على مدار الأيام.

وهو سحر الماضي وعبقه وأحد عناوينه البينة. يدخل القلب والفكر من باب الروح. ويشدو مع الصباح والمساء دون كلل. فهو لغة الجسم متكونة من الغْزَل والغَزَل، وسر عبقري صعب على من لا يعرفه. لغة خاصة بدمشق. تنثرها على الدنيا في أغنية نسيجية خلاقة وحية بذكريات الأرض، والإنسان والحضارة. هو لوحة الماضي في مرآة الحاضر حناناً وحباً ورؤيةً وامتداداً نحو المستقبل. وهو صورة الإنسان الفاعل المبدع في أجمل إبداعاته على القماش. وحواره مع نفسه ومع غيره ضمن أحلام ملونة لا تنتهي. هو اللغة النسيجية الأولى والرفيعة، والحديث الدمشقي المسجل على القماش في أغنية اللون المتنوع. واسم البروكار- مشتق حسب آراء أهل الحرفة[1] من كلمة إبراهيم وكار، وهي كلمة كردية تعني صنعة إبراهيم.

تعريف البروكار:

هو قماش مصنوع من الخيوط الحريرية غالباً. تعود صناعته إلى ٣٠٠- ٤٠٠ سنة. وهو من الحرير الطبيعي أو الصناعي. والمصنوع من الصناعي يدعى: بتة وبندار وهو من الخيوط نفسها. ويضاف إلى الصناعي- الساتين- في هذا الحال.

أما في حالة الحرير البلدي أو الطبيعي فيدخل في صناعته الخيط الذهبي ويدعى حينها بروكار حرير بلدي مذهب. ويدخل الخيط الذهبي ليزيد من بهائه، وجماله. والبروكار قماش يصنع في دمشق. حيث كانت صناعته رائجة جداً قبل خمسين سنة وكان هناك كثير من الورشات والأنوال حيث قدرت

(١) الراوي حرفي البروكار- حسن الداري- متوفي.

بحوالي /١٢٠٠/ نولاً في دمشق. أما الآن فعدد الأنوال لا يزيد عن /سبعة/ أنوال فقط. ومن المقارنة بين الرقمين تتبين لنا المفارقة الكبيرة. عدا هذه الأنوال هناك مراكز للتدريب على العمل ومن هذه المراكز:

١- مركز التأهيل المهني في مساكن برزة.

٢- وزارة السياحة في مركز سوق المهن اليدوية وهو للعرض والعمل.

ونذكر فيما يلي أسماء الورشات لتي لا تزال تعمل بشكل يومي

- وكانت الورشات تسمى عبارات سابقاً-:

١- ورشة شكاكي.

٢- ورشة سكيف.

٣- ورشة مدرسة العضم.

٤- ورشة النعسان.

٥- ورشة ميقري.

وفي كل من هذه الورشات الكبيرة نول أو نولان.

ومن المعلومات الهامة عند ذكر البروكار أن نذكر أن ملكة بريطانيا إليزابيث الأولى قد أخاطت ثوب زفافها من البروكار الدمشقي لشهرة هذا القماش.

أجزاء نول البروكار:

يتألف نول البروكار من أجزاء عديدة منها رئيسية، ومنها ثانوية. وإذا فقد أي جزء من الأجزاء الرئيسية أو توقف فإن النول لا يعمل مطلقاً. وفيما يلي الأجزاء الرئيسية:

١- ماكينة الجاكار.

٢- خيوط الشبكة.

٣- دفة المشط وطولها متران.

٤- مطواية لف السدى وطولها ١,٥ متراً.

٥- مطواية لف القماش وطولها ١,٥ متراً.

أما الأجزاء الثانوية فهي:

١- مسنن للف القماش.

٢- خشبة الدوسة وطولها متران ونصف.

٣- أمكاك أو مكوكات وهي جمع مكّوك.

والمكوك هو للون واحد أو لونان من القماش. أما إذا زاد عدد الألوان عن اثنين فيلزم مكوكان.

ويحتاج النول الواحد إلى خمسة عمال حرفيين مع المعلم. ويقسم هؤلاء العمال إلى:

١- عامل إنتاج أو عاملان في حالة إنتاج أكثر من لونين.

٢- عامل للف المواسير.

٣- عامل ميكانيكي.

٤- عامل رسم ودق الكرتون.

ويحتاج الإنسان الراغب بتعلم هذه الحرفة إلى عشرين سنة أو يزيد لإتقانها.

وعمال هذه الحرفة يتقاضون أجرة جيدة تكفيهم لشهر واحد.

٤- رسمة أو لوحة البروكار وكيفية تنفيذها:

لوحة البروكار أو الرسم هو أهم مادة في عملية تنفيذ أو إنتاج هذا القماش. أو هو ما يسمى بسر الصنعة. فمن يتقن هذا العمل قلة قليلة من المعلمين. ومن يتقنه كأنما أتقن حرفة البروكار كاملة.

أما عملية رسم اللوحة، فتبدأ بأن يرسم الشكل المطلوب تنفيذه، والمرسوم من قبل الفنان أو من قبل معلم الحرفة على ورق أبيض مقوى وضمن مواصفات معينة من حيث الطول، والعرض، والألوان. تنقل اللوحة بعد رسمها من الورق الأبيض إلى ورق أسمك قليلاً وسمكه ١مم ويسمى ورق الميليمتر ويتم النقل بواسطة الورق الشفاف أو ما يدعى بالكلك. وتسنن وتحدد الصورة ثم تلون. بعد ذلك يأتي دور دق الكرتون حسب التالي:

١- كل مربع بمساحة مم طولي في الشكل يمثل خيط سدى واحد.

٢- كل مربع مم عرضي في الشكل يمثل ثقب (كرتونة) أو ثقباً على ورقة الكرتون بلون معين ومرقم.

٣- عدد الألوان الموجود في المربعات الميلمترية في المربع المم العرضي يساوي عدد الألوان مضروب بعدد الميلمترات العرضية في الكرتونات.

مثلاً: الشكل المؤلف من ٢٠٠مم عرضي يساوي عدد الألوان مضروباً بعدد الميلمترات العرضية في الكرتونات.

بعد انتهاء عملية الرسم على ورق الكرتون، يحبك الكرتون ببعضه بشكل نظامي دقيق حسب الأرقام والألوان بخيط عريض، ومتين. ثم يوضع الكرتون على الغبة أو السلندر الموجود على آلة (الجاكار). ويبدأ المعلم بتشغيل النول بعد أن يكون القماش ممدداً على الآلة. فيدور الكرتون راسماً اللوحة ذاتها على القماش من الأسفل.

ينتج المعلم الماهر من خمسة إلى ستة أمتار يومياً خلال /١٠/ ساعات عمل، وذلك للون واحد أو لونين فما فوق.

وفي اللوحة المذكورة يبلغ عدد خيوط السدى /٧٢٠٠/ خيطاً، وعرض القماش المنفذ /تسعون/ سم. أما اللحمة أو خيط المكوك فيتبع

المواصفات المطلوبة. وتسمى عملية اللوحة بعد إتمامها بالجوهرة، وتدعى أيضاً البناء أو القصر.

آلية عمل النول:

يلزم لتشغيل النول اليدوي عامل يعمل على الحرفة وهو عامل عادي، وعامل يدير الدوسة وهو معلم النول عادةً.

وتبدأ العملية بدوس المعلم بقدمه على خشبة الدوسة. فتحرك بدورها الغبّة أو السلندر ومن ثم الآلة. فترتفع خيوط الشبكة للسماح بمرور المكوك. وفي الحدفة الأولى تتحرك السدى مع الخيوط حيث يسلم المعلم العمل للحدّيف. ثم يرفع معلم النول قدمه فتنطبق خيوط السدى على بعضها ويضم خيط المكوك بواسطة دفة المشط لاصقاً بالقماش. وتتكرر هذه العملية فينتج القماش البروكاري الرائع.

آلة الجاكار:

وهي آلة رئيسية في عمل البروكار وفي النول اليدوي. ولها موقع متميز في هذه الحرفة الدمشقية. وتتألف هذه الآلة من:

١- الهيكل الرئيسي أو الجسم.

٢- مصفاة عدد ٢ وهما سنارة سحاب وسنارة رفاس

٣- الغبّة وهي من الأجزاء الهامة في الآلة.

٤- المروحة.

٥- لسان الغبة.

٦- أيدي آلة عدد٢.

٧- كف عدد٢ .

٨- سيخ آلة.

٩- طارة دوسة.

١٠- بكرات عدد٢ وتسمى أيضاً بالحياصات.

١١- غطاء الآلة وهو في الوقت ذاته مسؤول عن رفع السنانير.

النقشات المعروفة في قماش البروكار:

تتنوع النقشات في لوحة قماش البروكار. وهناك عدة نقوش، وصور توارثتها الحرفة من قرن إلى قرن. وتوارثتها الأيدي الخالقة والصانعة جيلاً بعد جيل. وكانت تضيف إليها ما تبتكره في كل مرة على مرور الأيام والسنين مع المحافظة على النقوش القديمة. فكان لنا من كل ذلك إبداعات خالدة.

ويمكننا أن نعدد النقوش التي عرفناها ولاحظناها منذ القديم وحتى الآن:

١- دق الليرة. وهي نقش ساحر وكان ذات يوم من أجمل النقوش.

٢- الشال الطويل.

٣- الكشمير.

٤- البتة.

٥- البندار.

٦- دعسة القطة.

٧- نجمة وقمر.

٨- زهرة وزهرة.

أما نقوش اليوم والرسوم الحديثة فهي متنوعة جداً. وهي صور متباينة من زهور وكواكب، وجبال وبحار وغير ذلك.

الدلالات الأسطورية والفولكورية في البروكار:

حملت لنا نقوش البروكار مدى العلاقة بينها وبين الإنسان، والزمان، والحلم ومعاناة الصراعات. عدا العمق الأسطوري فيها. وبيان فاعلية الرؤية الإنسانية.

فنقش النجمة والقمر لتأكيد وجود القمر في ذاكرتنا ووجداننا حيث كان من ضمن معبودات الإنسان. وكذلك النجمة لها هذا البعد الأسطوري والمدلول الرامز.

وكذلك رسم الزهرة والزهرة. فالزهرة هي الخصب وهي إشارة إلى البداية والنشوء، وإلى الاستمرار في الحياة. فتشابك الزهرة بالزهرة بمرتسم منسجم يشكل علاقة موحية زاخرة. وكذلك عناق القمر والنجمة فهو نماء وعطاء وتجديد. وقد تمثلت صناعة البروكار في أدبنا الشعبي فأغنته وأغناها وأكدت استمراريتها فيه. فظهرت ملامحها في الأمثال والتشابيه والمصطلحات والأغنيات الشعبية.

فطرزت هذا الأدب ونقشته وعمقت رؤيته الإنسانية. وحلت تعابيره فزادتها نضارة وسحراً.

فقد جاء في الأمثال الشعبية عدة أمثال خاصة بهذه الحرفة منها:

١- كار الطاق ما بينطاق:

وهذا المثل يبين قساوة هذه المهمة وصعوبتها حتى يحصل المعلم على قطعة جميلة، فالطاق هو الخيط. فلف الخيط وشده وضمه أعمال فيها صعوبة وتعب شديدان.

٢- سدى بلحمة:

وهو مثل يدل على قوة وصلابة العلاقة بين صديق وصديق. وأخ وأخ فهما مثل السدى واللحمة. وأبعاد المثل أن العلاقات الإنسانية يجب أن تكون كذلك.

٣- الشقة من الخرقة والكل حاكهن الحايك:

وهو مثل معبر عن دلالة الأشياء وأصلها. فالقماش يدل على أن هناك حائكاً حاكه.

وجاء في المصطلحات الشعبية حول المهنة:

١- ياباني حيط من خيط:

أي كم هو صعب بناء الجدار من الخيوط، بل هو مستحيل. ويقال المثل في حالة تهكم من قضية يصعب حلها.

أما في التشابيه الشعبية المتداولة يومياً بين الناس فقد جاء:

١- مثل مكوك الحايك:

ويضرب هذا التشبيه في الإنسان المتحرك دائماً والذي لا يهدأ. فمن مكان إلى مكان. فهو يشبه مكوك الحائك الذي لايقف إذ يمر من مكان إلى مكان وبسرعة.

ويدل هذا التشبيه على نشاط هذا الإنسان وقوته.

وجاء في الأغنية الشعبية عن هذه الحرفة:

١- يا محيّك حيّكْ يامحيّك حيّكْ	بروكـارْ مـدهبٌ وخيطـانو حبّـكْ
يـا معلـمْ غنـي يـا معلـمْ دبّـكْ	وصـنعتنا أحلـى صـنعة بالكونـا

وهي وصلة من دلعونا تؤكد على أهمية هذه الحرفة وأهمية هذا القماش المنتج وقيمته وندرته وسحره. فبرأي الأغنية أن هذه الحرفة أسمى حرفة في الكون.

٢- حبيبـي جبلـي	جبلـي بروكـار
حبيبـي كـارو	أحلـى كـار
جبلـي المـدهب	جبلـي المخبحـب
بروكـار مركـب	وقلـي سـهار
حبيبـي كـارو	أحلـى كـار
قلـي يـا حلـوة	بروكـار للحلـوة
مـا أحلـى الـسهوة	والقمـر دار

أغنية من عيون الأغاني الشعبية الخاصة بالحرفة تبين لنا سحر البروكار وأعماقه ومد لولاته.

صناعة البروكار اليوم:

لقد خفت هذه الصناعة اليوم وقل عدد الذين يعملون فيها إلى حد ضئيل مثلما نوهنا آنفاً. وهذا مؤسف ومخيف وذلك لأهميتها وندرتها. فهي في دمشق فقط. وهي رغم دعم الدولة وبعض المؤسسات لها لإيقافها على قدميها، فلا نزال نشعر أنها في طريقها إلى الانقراض إلا إذا تداركتها العين الساهرة والعقول الواعية والدعم الأكثر. حيث تلزمها عناية خاصة جداً لعدة أسباب ومن أهمها: طول المدة التي يقضيها الإنسان ليتعلمها. وغلاء أسعارها. ويمكن أن نقترح بعض المقترحات للحفاظ عليها وتدارك تدهورها، والحد من ترك أصحابها لها لعلها تكون نافعة وهي:

١- تأسيس معهد خاص لهذه الصناعة لا يهتم إلا بها وتأمين أساتذة له من أصحاب هذه المهمة وتأمين إغراءات جيدة لهم.

٢- دراستها في المعهد المهني.

٣- الإكثار من صناعة الأنوال اليدوية وتوفيرها حتى لا تبقى أثراً.

٤- شراء إنتاج أصحاب هذه المهنة من قبل المؤسسات الحكومية.

٥- دراسة تاريخها وبعض أقسام صناعتها في المعهد السياحي.

٦- إقامة المعارض الدورية والدائمة لبيعها والتعريف بها.

٧- إصدار مجلة متخصصة بالفنون التقليدية من قبل وزارة الثقافة أو السياحة للكتابة عنها وعن غيرها من الحرف.

٨- إقامة ندوات ثقافية في المراكز الثقافية وإلقاء محاضرات عن هذه الحرفة.

٩- التعريف بها إعلامياً عن طريق الرائي والإذاعة.

صناعة غزل الصوف

١- في الشتاءات الباردة المثلجة وأثناء رقص كرات الثلج في السماء في محاور وهندسات جمالية رائعة. وأثناء انسكاب أنابيب الجليد من السقوف القرميدية كأنها لوالب فضية في مخروطات بهية. وفي النهارات الباردة وخاصة في القرى الجبلية العالية تنهض المرأة الريفية بعد انتهاء عملها البيتي، وتأخذ كتل الصوف المهيأة للغزل، وتتناول مغزلها، وتبدأ في حوار مغزلي منسجم، وفي موسيقا متسقة، وينتشر اللحن المغزلي في هذه الأجواء الشتائية الرحبة بنقل أغنية لا أحلى ولا أجمل إنها أغنية المغزل أغنية الغازلة، والأصابع الفاتلة فيغني الكون سمفونية تكوينية جديدة. تعلو مع الجهات، تنتقل في القطرات المطرية، وتغزلها الكرات الثلجية كلمات وأناشيد تهمس في أذن عصفورة السياج تحدثها عن خيوط الماضي ناقلة عزف المغازل القديمة فتلامس خيوط الماضي خيوط الحاضر، وتنتقل مع هذا الماضي أغانيه، ورقصاته، وأمثاله وحكاياته، ويستمر المغزال أو المغزل في دورانه وتستمر الخيوط في التعقد، والتلولب، والشد، والحزم، وتتكوم الكباكيب فوق بعضها مشكلة مثلثات أو مستطيلات مكعبة على الأرض. وتحمل الخيوط في أعماقها أنين الأرض وحنينها وألم الإنسان وفرحته ومسراته تحمل الأصوات المكتومة لنساء معذبات في الأغنية، والزغرودة، وفي أجواء البيوت تتراءى عدة مغازل تتناجى، وتتراقص في ليونة، ورقة ويمر الزمن الشتوي بطيئاً. ويبقى اللحن متناثراً في بيوت القرى كلها لحن المغزال مسهماً في إحياء ونشر قيم الحياة وحب الإنسان والأرض وحب العمل.

٢- المواد التي يصنع منها الغزل:

يصنع الغزل من مادة رئيسية هي الصوف، ويأخذ الصوف من الغنم بشكل عام حيث يقص في فصل الربيع، وعند بدء الفصل الحار أو حين انتهاء الأمطار

والشتاء ومن الأكباش التي تربى لهذه الغاية أي لصوفها حيث يعتني بها أكثر، وتغسل يومياً حتى ينمو صوفها، ويتكاثر، ويربو.

وبعد قص الصوف ينشر في الشمس مدة لا تقل عن عشرة أيام ثم يجمع ويغسل ويبقى في غرفة خاصة حتى أوائل فصل الخريف.

٣- كيفية تصنيع الغزل:

تبدأ المرأة الريفية في أوائل فصل الخريف أي في شهر تشرين الأول بنشر كتل الصوف الكبيرة لفترة أسبوع أو يزيد ثم تأخذ بتنفيش الصوف، ونثره بواسطة العصي المصنوعة من الخشب أو الحديد ثم تكبكب كباكيب بأحجام مختلفة. وتفتلها وأخيراً تبدأ عمليات الغزل. حيث تحضر المغازل اليدوية لهذه الغاية، ويكون الشتاء قد اقترب.

واقتربت الغيوم، وفصل الأمطار. والمغزل آلة مخروطية من الخشب وفي رأسها سنارة أو مسمار فولاذي بطول ٦ حتى ٨ سم أما كل المغزل فيقدر طوله بـ عشرين سم. وتكون في المنزل عادة عدة مغازل.

أما العمل فيكون بشكل جماعي إذ تجتمع عدة نساء من الحي في منزل واحد، وكل منهن تأتي بصوفها ومغزلها معها. والمغزل اسم آلة من الثلاثي غزل. وتكون غرفة العمل عادةً كبيرةً وواسعة. والغزل أو تهيئة الصوف بواسطة المغزل صناعة قديمة جداً تعود إلى آلاف السنين إذ أنها الطريقة الأولى لهذه الصناعة. وكانت تنتشر في كل الأرجاء السورية.

٤- المصنوعات الصوفية:

بعد تحضير الخيوط الصوفية بواسطة المغزل تأخذ النسوة بحياكة الصوف ونقله لأشكال وأحجام عدة تفيد الإنسان في ملبسه واستعمالاته الأخرى. ومن أهم الأنواع التي صنعها من الصوف خلال زمنه الذي مر فيه وتاريخه:

١- الشالات وهي جمع شال. والشال هو الغطاء الصوفي الخارجي وتلبسه المرأة فوق ثيابها الخارجية وخاصة حينما تخرج لزيارة أو لنزهة.

٢- الحرامات وهي جمع حرام. وهو غطاء صوفي كبير يتغطى به الإنسان عند النوم.

٣- اللحشات وهي جمع لحشة. وهو غطاء للرأس والعنق يتستر به الإنسان شتاءً.

٤- الكنزات وهو جمع لكلمة كنزة. يرتديها الإنسان شتاءً وهي على أشكال وأحجام مختلفة.

٥- الجواكيت أو الجاكيتات. وهي جمع لكلمة جاكيت يرتدى فوق الكنزة شتاءً.

٦- الألاشين وهو جمع لكلمة ألشين وهو لباس للأقدام، ويلبس شتاءً من قبل النساء خاصة ويرتدى فقط في المنازل.

٧- الكفوف وهي جمع لكلمة كف وتسمى أيضاً قفازات جمع قفاز وهو لباس لليدين ويرتدى من قبل النساء، والرجال شتاءً.

وكل هذه الصناعات الصوفية تلون بألوان شتى مختلفة. ولا تزال هذه الصناعة من الألبسة الصوفية ناشطة إن كان في المدينة أو القرى، والريف لدى الكثير من النساء يتناقلنها جيلاً عن جيل.

٥- الأغاني والأمثال، وغير ذلك مما يرافق صناعة الصوف من القضايا الفلوكلورية:

أثناء العمل في صناعة غزل الصوف، وخلال الأيام والليالي الشتائية التي تدعو الإنسان إلى الجلوس أمام المدافئ والمواقد والكوانين. والمغازل اليدوية تدور في الأيدي. وصوت المطر والريح يئز في الطرقات كل هذا يستدعي المرأة الغازلة

إلى الغناء الذي يساعد أيضاً في الاستمرار بالعمل بل إسراعه، وزيادة الإنتاج. فالكثير من الأغنيات رافقت هذه الصناعة، وحركت الأيدي الماهرة. وكان للوضع الطبقي والاجتماعي للنساء الغازلات أيضاً صلة كبيرة بالعمل والغناء. حيث الحزن، والأماني، والعواطف المتباينة لدى المستغلات، والمضطهدات، والمحرومات حيث الخوف من أشياء كثيرة. وفي هذه الأثناء تضرب الأمثال المختلفة إن كان عن الصوف أو عن الوضع الاجتماعي أو غير ذلك من القضايا المطروحة ثم تحكى الحكايات الكثيرة والطويلة من إمرأة طاعنة في السن. ومن الأمثلة على الأغاني المرافقة لصناعة الغزل هذه الأغنية:

تغزل بمغزلها تغزل بمغزلها[1]   يا خدود لون الورد تغزل بمغزلها

وعيون عيون المها يا الله ما أغزلها   يا قامة للسحر يا الله ما أجملها

وهي من الموليا الموحية الرقيقة. ومن أهم الحكايات التي تحكى في الليالي الشتائية الطويلة حكاية (ثلاث بنات بيغزلو وبياكلو) من كتاب (حكايات شعبية من الزيداني) تأليف "محمد خالد رمضان" وحكاية (ابن الملك والجنية) من الكتاب المذكور. وحكاية (البنات التلاتة) من كتاب (حكايات شعبية من اللاذقية) تأليف بسام ساعي. وحكاية (أنا الطبيب المداوي) من كتاب الخراريف تأليف تودد عبد الهادي. وغيرها من الحكايات.

٦- صناعة الغزل في أيامنا:

منذ عدة عقود بدأت تتراجع صناعة الغزل القديمة لتحل محلها وبسرعة فائقة الصناعة الآلية وتصنيع الصوف عن طريق المعامل، والمصانع وذلك نتيجة الاتصالات السريعة، ودخول الآلة إلى بلادنا والتطور العصري، والمتطلبات الحديثة، وتغير علاقات الإنتاج في الريف، والمدينة ولتطور العلم، والمعرفة. حيث

---

(١) الراوية- فاطمة محمد رمضان- متوفاة.

أدت هذه الأشياء جميعها إلى الإقلال من الزمن الذي كانت تجده المرأة والذي كان يساعدها ويقدم لها ساعات الفراغ. فالفراغ الزائد يتناقص الآن بسرعة، هذا الفراغ المفتقد الذي لن يعود بشكله القديم أبداً والآن قد نجد بقايا لهذا النوع من الصناعات في القرى الريفية البعيدة، وبعض المزارع والضيع الجبلية العالية. إذ لا زال لصوت المغزل القديم رنينه وسحره ونكهته الخاصة. ولا زال لصوت الأغنية المترافقة مع المغزل إبداعها وجمالها. تلك الأغنية التي حملت آلام الإنسان وعذاباته وأفراحه وكل ظروف حياته التي عاناها وعاشها.

صناعة البلاسات(١)

١- **في الريف وفي أعماقه البعيدة وخاصة في القرى الجبلية العالية المتعمشقة بالأعالي تنتشر البيوت الجبلية،** وتتناثر مشكلة رؤيا جمالية حلوة تتعاطف مع البهاء، والحياة. وداخل هذه البيوت وحتى الآن لا تزال تبهرنا (البلاسات) أو بسط الشعر. تبهرنا بصنعتها ودقتها، وكيفية ترتيبها، وتعطينا الشعور بالأمن. وتحتوينا فرحاً وحباً. هذه البسط الشعرية تعيد ذاكرتنا إلى الأيام الخوالي، والسنين الغابرات حيث تنسجم مع هذا الماضي، ونتوحد معه ونخترق الحجب لنتبصر، ونستعيد هذه الصور المدهشة. وهذا الاتصال سمة الإنسان الذي لا ينقطع عن جذوره وعن تاريخه، وحضارته. ويؤدي هذا الاتصال بدوره إلى استمراريته والحياة في منظور إنساني بناء حيث نلتقط من خلال هذا التواصل والأحاسيس سير الناس ونعرف حياتهم، ونترنم بأغانيهم وزغاريدهم، وموسيقاهم الجميلة. وتبقى أغاريد الحياة وحكايات الناس وصراعاتهم مخلدة ضمن نقش ملون وأسطورة محلقة ومثل متوازن وكل هذا يساعد في استمرارية

---

(١) الراوي- صالح الدوماني- متوفي.

الحياة والعمل ضمن فعل وإنتاج إنساني يمتد في امتداد الزمان والمكان في تناغم متكامل في فكر الإنسان وعمله.

٢- أنواع البلاسات:

البلاسات أو البسط الشعرية على أنواع وأحجام مختلفة تتباين بتباين البيئة وفن العمارة القائمة وتفكير الناس وإمكانيتهم، وحسب استعمال وفائدة هذه البلاسات. ومن أهم هذه الأنواع:

١- **(بلاس الليوان)**: وهذا النوع من أهمها وأكبرها إذ أنه يفرش غرفة كبيرة مساحتها ثلاثون متراً مربعاً. ويفرش في المضافات الريفية والمدنية والبيوت الكبيرة وهو متين، ومصنوع من عدة طبقات وسميك.

٢- **البلاسات المتوسطة الحجم**: وتستعمل في الغرف المتوسطة وفي المضافات الصغيرة وأحياناً في غرف النوم لعائلة ميسورة الحال.

٣- **البلاسات الصغيرة**: يستعمل هذا النوع لجلوس الخبّازة في التنور أو لتحلق الأهل حول المدفأة حيث يشبه جلد الغنم أو الماعز في هذا الاستعمال. أو يستفاد منه لغرفة صغيرة لها استعمالات خاصة.

٤- **بلاسات المؤونة**: تستعمل هذه (البلاسات) في أيام المؤونة فقط وتكون رقيقة الحجم. إذ تمد على أسطح المنازل ليفرد عليها البرغل والكشك أياماً معدودة ثم يفرش عليها أيضاً يبيس الخضار مثل الكوسا، والباذنجان، والفاصولياء، واللوبياء وغيرها. فعملها موسمي في الخريف وعند الانتهاء من استعمالها تخبأ لحين الحاجة.

٣- كيف تصنع البلاسات والآلات المستعملة في صناعتها:

هناك قرى اشتهرت بهذه الصناعة مثل يبرود ومعضمية القلمون وزاكية. ولهذه البسط أسماء مختلفة حسب البيئة التي تصنع فيها. ففي القلمون إجمالاً

تدعى (فريسة) وفي الزبداني (بلاساً) وفي الجولان (مدة شعر). وفي دمشق بلاساً أيضاً.

أما الأدوات المستعملة في صناعة هذه البسط فهي:

١- الدولاب وهو أهم آلة في هذه الصناعة وعليه ترتكز ومن أهم أقسامه:

آ- المنيانة

ب- المتخالفات

ج- الكوشات تكون من الخشب والدولاب إما من الخشب أو من الحديد

٢- المرس وهو من الحبال المتينة أو من الحديد.

٣- المشط وهو من الحديد يزن حوالي ستة كيلو غرامات.

٤- السيف وهو آلة من الحديد لفرز الخيطان عن بعضها.

٥- الكابس وهو آلة من الحديد لكبس الخيطان على بعضها.

٦- الجراب وهو وعاء من قماش يملأ بالشعر بعد ندفه.

٧- المجذب وهو زنار صوفي أو قطني لجذب الخيطان وتدويرها ويشد بحبل قصير إلى الدولاب.

٨- الخلال وهو عود خشبي طوله عشرون سم يستعمل لفرز الخيوط الشعرية أثناء الحياكة.

وعلى المبدأ ذاته تصنع المخالي (جمع مخلاية) والأخراج التي توضع فوق ظهور الخيل أو الحمير.

والمادة الوحيدة التي تصنع منها البسط والمخلايات والأخراج هي الشعر. تحضر هذه المادة في الربيع حيث تقص المعزى وينشر هذا الشعر قليلاً في الهواء الطلق ثم يضم إلى بعضه البعض حتى موسم العمل وعادة ما يكون هذا الموسم في أواخر الخريف وفي الشتاء ويشترك في هذه الصناعة الرجل والمرأة على

السواء أما كيفية التصنيع المطلوبة بواسطة الآلات التي ذكرت آنفاً. ولتصنيع البلاس الكبير يلزم مثلاً ثلاثة أيام عمل متواصلة.

٤- التزيينات والأشكال الهندسية التي تطعم البسط ومد لولاتها الأسطورية والفولكلورية وما يرافق هذه الصناعة من الأغاني والأمثال:

تحلى البسط الشعرية بأشكال وألوان عديدة ورسوم حيوانات أو ورود تمثل البيئة ومن النقشات الشهيرة في هذه البسط نقش عيون الدوري وهو مستعمل في بيئة زاكية وغيرها ومن هذه النقشات أيضاً البط والأوز ومنها الجمل أو الماعز ذاته وهذه الرسوم تنقش من تلوين خيوط الشعر وإضافة القطن إليها وكل ذلك في ألوان عدة، ولكن اللون الأبيض هو الغالب عموماً وذلك لتناقض الأسود مع الأبيض وتمثل هذه الرسوم البيئة عموماً بما تضمه من ورود وحيوانات تمثل علاقة الإنسان بهذه البيئة ثم تمثله في صراعاته مع البيئة ومع غيره وتمثل تخيلاته الأسطورية ورؤاه البعيدة وأحلامه وتمثل خوفه القديم من القوة الخارجية الخارقة.

تمثل صراعه للبقاء ضمن علاقات الإنسانية وضمن استمرارية الحياة.

أما أهم الأمثال التي ركزتها وحملتها ذاكرة الجميع فإنها تشير إلى أهمية هذه الصناعة وعلاقة الإنسان. ومنها:

بساط شعر بيلقى الدهر.

يشير هذا المثل إلى متانة بساط الشعر، واستمراريته حتى أنه يعيش الدهر كله، هذا المعنى النصي للمثل أما رموزه فهي أغنى وأعمق حيث يشير إلى أن الشيء الجميل، والرائع، والكلمة اللطيفة، والعمل الإنساني يعيش أبد الدهر ويظل يذكر دائماً.

أما عن الأغاني التي تشارك هذه الصناعة وتغنى أثناءها فتغنى للاستمرار في العمل أو لوصف حالات معينة ومنها:

يـا ظريـف الطـول مـدلي الـسماط   علـى مـن تـدوس عاهـاك البـساط
يـا حبيـب الـروح لا تكـون خطـاط   واعطينـــي حبـــة لالحـــق ضـــعننا

وهذه الأغنية مقطع من أغنية (ظريف الطول) المشهورة. وهناك الكثير منها، وكلها ترافق الإنسان وتحمل همومه وتطلعاته.

٥- صناعة بسط الشعر اليوم:

أخذت صناعة بسط الشعر (البلاسات) بالتراجع منذ مطالع الخمسينات حيث انتشرت الصناعات الحديثة وبسرعة فائقة وخاصة في مجالات السجاد، والبسط، والكراسي وتغيرت العلاقات الإنتاجية وتغيرت العلاقات الاجتماعية، ونشأت ظروف جديدة استدعت ظروفاً وأحوالاً أخرى في العمل وقلت المعزى وهي المورد الوحيد للشعر، أيضاً حصل تغير في العادات والتقاليد لدى الإنسان وتطورت نظرته للحياة وأسلوب المعيشة ونمط العمارة. كل ذلك أثر على هذه الصناعة وجعلها تتراجع. والآن لا يزال هناك بعض العاملين في تلك الحرفة لتلبية بعض الطلبات والحاجات وخاصة في مدينة يبرود التي اشتهرت منذ القديم بأنها مركز هام لتلك الحرفة أما في بعض الأماكن التي اشتهرت قديماً كمعضمية القلمون فقد توفي آخر العاملين فيها منذ سنوات قريبة وهو المرحوم صالح الدوماني أما في قرية زاكية فلا يزال هناك أحد الصناع المهرة ولكنه لا يعمل إلا حسب الطلب.

وفي المستقبل المنظور نستشرف بأن هذه الحرفة ستنتهي إن لم تتداركها العناية ولو على سبيل الحفاظ على روح هذه الحرفة قبل أن يؤول أمرها إلى النهاية الفاجعة إذ أنها حفظت تاريخ إنساننا وبيئته ضمن طياتها خلال قرون عدة.

صناعة العقالات

١- منذ القديم والعقال سمة لغطاء الرأس عند الرجل في منطقتنا العربية إجمالاً، وفي البلاد الشامية ولدى الآراميين سكان سورية القدماء. وإلى ما قبل خمسين إلى ستين سنة كان العقال هو ما يميز لباس الرأس فوق الحطة أو الكفية.

وكان من النادر أن يشاهد إنسان في الريف أو في المدينة بلا غطاء رأس يزينه العقال.

ومن اللافت للنظر في ارتداء العقال كيفية وضعه على الرأس. إذ أن طريقة لبسه كانت تحدد بالمكان الجغرافي وبالسن وبالمنزلة الاجتماعية. ففي البادية يكون مائلاً إلى الإمام يغطي مع الكفية جزءاً من الجبين. وفي الريف يرفع أو "يعنقز" بشكل عنجهي يدل على القوة وخاصة لدى الشباب وفي المدينة يكون مستديراً وأفقياً دون إمالة أو إطالة لدى الأجيال جميعها. أما الأجيال المسنة في الريف أو في البادية أيضاً فتضعه بشكل مستدير أو أفقي ليدل ذلك على الرزانة، والهيبة. ولحالات الناس أثرها في وضع العقال على الرأس فحالات الفرح، والحزن، واليأس والحرب كل منها تحدد وضعية معينة له.

ففي حالات الفرح كما في الأعراس والطهور والمواسم تكون العقالات دائماً في حالة الإمالة (والعنقزة) وفي حالات اليأس والهم تكون مهدلة نحو الإمام. وفي حالات الثأر يرفع العقال عن الرأس كلياً، وتبقى الكفية دون عقال حتى يأخذ بثأر المقتول حيث يعتبرون العقال للزينة والفخار.

وفي حالات القتال، والحرب يشد العقال جيداً على الرأس وبشكل أفقي.

وللعقال وظائف عدة تحدد وجوده، وضرورته فوق الكفية أو الحطة. فهو أولاً لتثبيت الكفية على الرأس حتى لا تتحرك عند إمالة الرأس أو تسقط وثانياً

للزينة، إذ يعطي الرجل كمالاً وهيبة واتساماً. وتأتي الضرورة الاجتماعية والعادة سبباً ثالثاً لضرورته ووجوده.

وتلحق بالعقال أقسام أخرى هي:

١- الطرر وهي تفاتيل من لون العقال تفتل لتكون في أسفل الكفية وتربط مع الشراشيب.

٢- الشراشيب وتكون من لون العقال وهي مربوطات طويلة عبارة عن شرشوبين أو ثلاثة تصل حتى أسفل الكفية تزين بها الطرر.

٢- كيف يصنع العقال:

صناعة العقال صناعة سورية قديمة وهي حرفة شعبية حضرية وريفية. كان العقال يصنع في المدن السورية الكبرى دمشق- حلب- حمص وكذلك في إدلب ودير الزور.

وكان يصنع قديماً من الصوف البلدي الأصيل حيث يغزل الصوف على المغزل ويشرى من الغزالات في البيوت. ثم يؤتى به إلى محل العقّال حيث يصنع. أما الأدوات اليدوية التي يعتمد عليها العقّال لهذه الصناعة فهي:

١- القالب وهو من خشب على شكل كتلة هرمية تسوى في أعلاها على مقدار العقال المطلوب.

٢- المدقة.

٣- المقص.

٤- المسلة.

وطريقة التصنيع تكون بربط غزل الصوف على القالب وبرمه ثم تسويته بالمدقة قليلاً قليلاً. وكان العقال ينتج خلال ثمان ساعات عمل من /١٥/ إلى

/٢٠/ عقالاً تبين لنا ذلك من سؤال السيد أحمد الإدلبي أحد الحرفيين وصناع العقال في سوق الدراع - دمشق.

وقد كان سعر العقال الواحد الممتاز قبل ٥٠- ٦٠ سنة ليرة سورية وهو العقال الموصى به أما العادي فكان سعره عشرين قرشاً. ولقد كانت صناعة العقال قديماً صناعة رائجة لكثرة من يرتديه.

ومن أهم أصحاب الحرفة في عشرينات القرن العشرين في دمشق السيد عبده محلاية- رسمي قشلان- غالب قشلان.

٣- أنواع العقال:

للعقال عدة أنواع وأقسام تبعاً لقيمته ومكان استعماله ومتانته وهذه الأنواع هي ذاتها في كل بلادنا العربية التي يستعمل أهلها العقال في لباسهم وطراز أزيائهم وهي تتميز عن بعضها بعدة تمايزات وسمات. ونقدم فيما يلي هذه الأنواع:

١- **العقال العادي:** وهذا العقال يستعمل في الريف والمدينة على حد سواء ويكون وسط الحجم بلونيه الأسود والأبيض ويستخدم لدى العامة من الناس والفقراء، ومتوسطي الحال، وينتشر استخدامه بكثرة.

٢- **العقال الثخين أو السميك:** يستخدم هذا العقال في الريف والمدينة وحجمه كبير وشراشيبه طويلة، ويرتدى من قبل الأغنياء، والوجهاء، وعلية القوم ويدل استعماله على الثراء إذ أن حجمه لا يساعد على العمل أثناء ارتدائه. وله طرر كبيرة.

٣- **العقال الرفيع:** لقد انتشر استعمال هذا النوع من العقالات في البادية فقط وبعض أطراف القرى القريبة منها. ويساعد هذا النوع البدوي في عمله وفي المسير، والرعي والغزو فهو ابن بيئته. وهنا نؤكد دور البيئة وتأثيراتها على الزي حيث قضية التجانس بينها وبينه.

٤- العقال المقصب: وينتشر استعمال هذا النوع من العقالات لدى أغنياء البدو والأثرياء التقليديين وفي دول الخليج ولونه أبيض وهو ثخين اللفة له شراشيب مختلفة منها القصير ومنها الطويل. ويتميز العقال المقصب بالطرة الكبيرة مثلما العقال الأسود الثخين وهو غالي الثمن لتقصيباته والنمنمات، والزركشات على شراشيبه، وطرره. ويستخدم العقال المقصب بشكله الصغير للطفل حين طهوره.

٤- التزينات والأشكال الهندسية والدلالات الأسطورية والفولوكلورية في العقال:

تلعب التزيينات والزركشات في الحرف الشعبية اليدوية دوراً هاماً، وفريداً إن كان من الناحية الجمالية أو الاجتماعيةوالثقافية إذ تكشف لنا رؤية هذا الشعب، وأحلامه، وصراعاته، وتبرز طريقة معيشته ومدى تمكنه من تقديم رؤياه لنا وللأجيال القادمة. وتبيّن هذه التزيينات نتفاً من عقائد هذا الشعب وأساطيره.

وفي حالة العقال فإن التزيينات والزركشات تقع في الطرر وفي مقدمة العقال المقصب. ففي أسفل الطرر نرى الأشكال الهندسية من مثلثات، ومعينات، ومربعات ترتسم أنواعاً متباينة منها الأفقي والعمودي. وتعطي الأشكال الهندسية بعداً أسطورياً غائراً في الزمن. فكل شكل له معانيه ورموزه فالمثلث يرمز إلى الإله، والمعين يرمز إلى المرأة الأم وإلى الأرض والخصب بشكل عام إلخ..

أما مقدمات العقال المقصب وخاصة عقال مناسبات الطهور فتزينها الأزهار القماشية من فل وقرنفل وغيرها وترمز تلك الأزهار إلى الفرح والحب، والديمومة، وعلاقات الإنسان الاجتماعية.

وبالنسبة للدلالات الفولوكلورية والتراثية الشعبية التي قيلت في العقال فهي كثيره إذ تمثلت في أكثر من باب وجهة من جهات التراث الشعبي، حيث

جاءت في الأغنية الشعبية، والمثل الشعبي، والتويحة الشعبية وفي تقاليد الشعب حسب مناسباته. فأغانينا الشعبية ملأى بذكر العقال واعتباره مجال فخر، وعز للرجل وبه يكتمل الرجل الشجاع وفي زغاريدنا الشعبية أكثر من مثل على ذكر العقال: منها هذه الزغرودة:

يـا بـو عقـال طـول شراشـيبو   يا بـو عقـال القـصب نيّـال حبيبـو

أبو العريس الندى والكل محسوبو   يـا نـاس دوبـو بحبـو كلكـن دويـو

أما في المثل الشعبي فقد جاء ذكر العقال في أكثر من مثل شعبي إذ تضمنته تلك الأمثال لأكثر من معنى، ورمز في الحياة. وحملته ليكون أملاً أو زمناً، أو مستقبلاً، وبناءً فمثلاً نقرأ هذا المثل: **عقال فوق عقال بصيرو عقالين**

وحين نحلل دلالته الاجتماعية، والاقتصادية، والبيئية تتكشف أمامنا مراميه البعيدة، والقريبة وغنى وتنوع، وأهمية أفكاره.

رجّال بس مالو عقال.

وهذا مثل آخر يبين لنا أهمية العقال في المجتمع فهو شرف الإنسان وعنوانه، ومدى فخره.

أما في التويحة الشعبية فقد ظهر العقال وظهرت فيه قيمته تراثياً وشعبياً، واجتماعياً. من تلك التناويح نلحظ هذه التويحة وهي عن أحد الرجال الذين ماتوا وتركوا أثراً في الحياة.

يـا بـا طـل ويـا منـصب   ويـا بـو العقـال القـصب

راح الخبـر لمرتـك   تحـل الـشعر وتتعـصب

يـا بطـل ويـا منـصب   ويـا بـو العقـال القـصب

راح الخبـر لبنتـك   تحـل الـشعر وتتعـصب

فهذا الرجل المتوفي صاحب فخر وعزة ويلبس العقال المقصب فهو إذن صاحب حظوة في قومه. لذا وجب على زوجته أن تحل شعرها ولا تمشطه، وتتعصب بالعصابة السوداء.

٥- صناعة العقال اليوم:

لا ريب أن صناعة العقال قد تأثرت اليوم بالتغيرات الاقتصادية ثم الاجتماعية، والثقافية التي حصلت في المجتمع. وأن بعض هذه التغيرات قد أثر على زي الإنسان في الريف، والمدينة. لهذا فقد خف ارتداء العقال بنسبة كبيرة. فعند سكان المدن مثلاً قد خف ارتداء العقال وأصبحنا من النادر أن نرى من يرتديه إلا في الحارات الشعبية أيام المناسبات العامة والخاصة أما في الريف فمازال استعماله قائماً، ولكن بنسبة ضئيلة وعند كبار السن، ومتوسطيه فقط. أما الأجيال الشابة فلم تعد ترتديه إلا في المناسبات. وأثرت الآلة في تصنيع العقال حالياً وخاصة تصنيع الخيط حيث لم يعد يصنعه المغزل بل المعمل أما العقال فما زال يصنع تقليدياً وعلى الشكل القديم تماماً. وبقي صناع العقال على حالهم أي لم ينقص عددهم فهم حوالي /١٥/ حرفياً في سوق الدراع بدمشق ومازالت حرفتهم رائجة رغم قلة من بقي يرتدي العقال. لأن الإنتاج يصدر إلى بقية الدول العربية. أما سعر العقال الآن فهو /٣٠/ ليرة سورية إلى /٤٠/ للعقال الممتاز ومن ٥- ١٠ ليرات للعقال الأرخص. وعلى رأس هؤلاء الحرفيين الآن السيد محمد أديب عثمان وعمره /٦٣/ عاماً وهو يعمل في الحرفة منذ /٥٠/ سنة والسيد أحمد الإدلبي وعمره حوالي /٧٥/ عاماً وهو يعمل في الحرفة منذ /٦٠/ عاماً[١].

---

(١) الراوي أحمد الإدلبي من دمشق عمره (٧٥) عاماً هذه المعلومات أخذت في تسعينات القرن العشرين.

إن صناعة العقال في سورية صناعة أصيلة. صناعة شرقية هامة من مصنوعاتها الشعبية. هذه الصناعة يجب الحفاظ عليها، وتطويرها فهي رمز لأحد رموز أزيائنا الشعبية التي نفتخر بها.

صناعة الشروال

١- منذ مئات السنين كان الشروال ملبوس أهالي المدن والريف في بلاد الشام. واستمر هذا الزي في المدينة إلى ما قبل /٤٠/ إلى /٥٠/ سنة. أما في الريف وخاصةً البعيد فمازالَ هو اللباس الغالب. إذ يكيف لابسه نفسه في الجلسة بالطريقة التي يريدها، فَيَطْويْ ساقَيْه أو يرسلهما أو يضعها جانباً. ويفيد ارتداء الشروال أثناء الأعراس، والأفراح الأخرى وخاصةً عند الدبكات. إذ أنه ضيق عند القدمين فلا يعيق حركتهما، بل ويساعد عند التحرك والقفز السريع. وهو زي شعبي عام أكد وجوده خلال الزمان. وتناسب ارتداؤه مع البيئة والحياة، والصلة الاجتماعية، وهو رداء الرجل فقط، وكان يرتدى طيلة أوقات النهار والليل دون استثناء، وفي المناسبات العامة والخاصة كالأفراح والطهور، ومناسبات الأفراح كالجنازة، ويوم الثالث ويوم الأربعين. ويلزم للرجل أربعة شراويل في المتوسط خلال السنة إذ كانت هذه القضية تعود للمقدرة المادية عنده، فالغني يقتني مثلاً عشرات الشراويل، فلكل مناسبة شروالها بلونه الخاص ونوعه الخاص. وهو عريض من الأعلى وضيق من الأسفل وخاصة من القدمين حتى الركبة فهو ضيق جداً. أو عريض من الأعلى والساقين، والقدمين. وبعض الشراويل ترتفع حتى الخصر ومنها يأتي تحت الخصر. وبعضها يغطي القدمين والأكثر يأتي إلى ما فوق الكعب. والشروال ليس من أصل عربي وليس زياً سورياً، وإنما يوجد زي يشبهه في البلاد الشامية. وجد منقوشاً على بعض الفنون الحرفية اليدوية. فالشروايل من أصول تركية.

٢- كيف يصنع الشروال:

الشروال من أقمشة مختلفة، فهو من الجوخ أو القطن أو الكتان ويسمى كتان (الكلمنضو) أو من الحرير. فالمصنوع من الجوخ يستخدم في الشتاء، وكذلك القطني أما المصنوع من الكتان فيستخدم في الصيف فقط. والمصنوع من الحرير يستخدم في كل الفصول. وتخيطه الخياطة في الريف، وبعض الأحياء الشعبية في المدن، والخياط في بقية الأحياء من المدينة.

وأدوات الصناعة هي آلة الخياطة مع مستلزماتها، أما قديماً فكان يخاط باليد بواسطة الإبرة، والخيطان القوية. ويقص قماشه خمس قطع. وشروال الحرير هو أغلى أنواع الشراويل، وأجودها وأثمنها، وكان ملبوس الأغنياء وميسوري الحال. يتلوه الجوخ في القيمة، وشروال الجوخ هو شروال عرس الرجل. وتلزم أربعة أمتار لصنع الشروال الواحد.

وكانت الخياطة الماهرة تخيط ثلاثة منها في النهار وكان لكل حي من الأحياء خياطته. والخياطة الماهرة جداً تصنع الشروال خلال ساعتين تقريباً. والكثير من الخياطات كن محترفات المهنة ولا يعملن بغيرها. وللشراويل درزة (معروجة[١]) على الساق وللشامية منها (طُويّلات[٢]) داخلية، أما البيروتية فلها (عروضات[٣]) ولكل منها جيبان وفي بعض الأحيان جيبٌ واحد. والجيب الكبير يمتد حتى الركبة أحياناً ويتسع لعدة أشياء. تلزم الرجل في يومه. من هذه الأشياء:

١- مفاتيح البيوت.

---

(١) معروجة: منحنية.

(٢) طويلات: قطع صغيرة من القماش.

(٣) عروضات: قطع مخاطة بالعرض.

٢- المحارم القماشية.

٣- المسبحة وأشياء أخرى.

وكان يباع الشروال ضمن طقم يدعى طقم الجوخ العربي أو الطقم العربي في بعض المدن السورية. عدا التوصيات لدى الخياطين والخياطات. وتلحق بالشروال: الدكة وهي الحزام الذي يربط به وتكون داخل كمره، وتشد وتعقد عند لباسه.

٣- أنواع الشراويل:

تقسم الشراويل إلى أنواع عدة نظراً لقيمتها ومكان استعمالها ومتانتها ولزمن استعمالها. وتتميز هذه الأنواع بصفات خاصة. ويمكن أن نجمل هذه الأنواع فيما يلي:

١- الشروال الجبلي:

وهو طراز خاص من الشراويل الضيقة المتناسبة مع البيئة الجبلية لتسهيل الحركة عند المسير والعمل. وهي قصيرة السرج، جيوبها ليست طويلة، مرتفعة أكثر من جيوب بقية الأنواع وتستخدم عادة بين كل الأوساط لبساطتها، وتلاؤمها مع البيئة. وهو زي أهالي منطقة الزيداني، والقلمون، وجبل الشيخ، وجبل عفرين وجبال لبنان. وتتبدى في هذا النوع سمة الشراويل بشكل واضح وخاصة ضيق القسم الأسفل منه.

٢- الشروال الشامي:

وهو شروال كان يرتديه الدمشقيون وبعض سكان الغوطة. وهو فضفاض يتناسب مع البيئة، طويل السرج قليلاً جيوبه واسعة، تتجه نحو الأسفل. وهو عريض من الأعلى أما من الأسفل فعريض نسبياً.

٣- الشروال البيروتي:

وهو شروال مميز عن بقية الأنواع، كبير بشكل لافت للنظر وفضفاض إلى الحد الأقصى، وعريض من الأعلى والأسفل وسرجه يتدلى معه حتى يصل الأرض أحياناً وهو للحركة البطيئة، ويتناسب مع طبيعة المدينة، وارتداه التجار والطبقات الغنية.

٤- الشروال العادي:

وهو شروال قريب من الشروال الجبلي استعمل في البيئات الريفية غير الجبلية، ولا يميزه عن الجبلي إلا أنه أعرض قليلاً في الجزء السفلي

أما ألوان القماش فهي عديدة يمكن أن نذكر منها:

١- البني ٢- النيلي ٣- الرصاصي ٤- التبني ٥- الأسود ٦- الأبيض

واللون الأسود هو الغالب في ألوان الشراويل يتلوه البني ثم الرصاصي.

٤- التزيينات والأشكال الهندسية والدلالات الأسطورية والفولكلورية في الشروال:

للتزيينات والزركشات والنمنمات في الحرف اليدوية دور هام، ألا وهو الكشف عن نظرة هذا الشاب وأماله، وصراعاته، وطرق انتاجه، وإمكانياته. كما أنها تبين بعض معتقداته وأساطيره ولها دورها الفريد من النواحي الجمالية، والاجتماعية، والثقافية، وتعكس سلوك الناس في بيئة وزمن ما.

والتزيينات والزركشات في الشروال تقع في مكانين منه الأول فوق وتحت الجيوب وعليه زركشات ملونة ونمنمات وتطريزات متقاربة والزركشة بإطارها الخارجي تأخذ شكل المعين أما داخل هذا المعين فالأشكال المرسومة هي:

الأشكال الهندسية من المثلثات، والمربعات والخطوط إضافة إلى أشكال الشمس والقمر. ولكل شكل من هذه الأشكال الهندسية، أو البيئوية خلفياته

الأسطورية والاجتماعية ولها أبعاد عميقة من الزمن. فالمثلث يرمز إلى التوحيد، والمعين إلى المرأة الأم. وإلى الخصب، والتجديد، والشمس إلى الحلم الإنساني الجميل، والخير والديمومة، والقمر إلى التأمل والفرح. والثاني على حافتي القدمين وفي الموضعين تطريزات ملونة بشتى الألوان، منها الأحمر والأصفر والبرتقالي، والأزرق، والنيلي، وهي نمنمات منوعة ومتباينة تؤخذ في الموضع الثاني شكل الدوائر المتصلة فيما بينها بمثلثات، أو دوائر صغيرة أو خطوط مكسرة، ومنحنية أو متوازيات أضلاع صغيرة وضمن هذه الدوائر رسوم لأشكال بيئوية مختلفة وخاصة منها الشمس والقمر، ونجوم عدة متقاربة ومتباعدة.

أما ما جاء عن الشروال في فولكلورنا وتراثنا الشعبي وما حمل هذا التراث من دلالات وإشارات فهي كثيرة وتمثلت في أكثر من جهة من الجهات التي دلت على غناه وحمله لروح هذا الشعب. فقد جاء ذكره في المثل الشعبي والأغنية وفي الزغرودة وفي التشابيه الشعبية. ففي المثل الشعبي وجود لمادة الشروال لمسناها في أكثر من مثل منها:

أ - **شروال مالو دكتو بأربعين:** يضرب في الإنسان الذي يلبس لباس غيره ويتباهى وهو لا يملك الشيء الضروري في الحياة.

ب- **بيعمل نحّال ومالو شروال:** وهذا المثل يأخذ معنى المثل الأول سوى أنه أقسى في التعرية الاجتماعية، أما في التشابيه الشعبية فقد جاء في أحدها:

- **متل شروال المعتر:**

المعتر وهو الفقير المدقع فشرواله يكون مرقعاً بشكل لافت للنظر فتشبه به أي قضية تعبة وهالكة.

وجاء ذكر الشروال في الأغنية الشعبية المعروفة (عالقالو) إذ جاء في الأغنية:

عالقـــــــالو عالقـــــالو تمـــــان أدرع شـــــروالو
هيقـــــالو حمامـــــة ومنّلـــــك هالـــــشامة
ومأكولـــــك قـــــضامة مـــن جيبـــة شـــروالو إلـــخ

هذه الأغنية تتغزل فيها المغنية بالشاب ذي الشروال العريض الذي يدل على الجاه، والحظوة، والقوة، والذي تجد في جيب شرواله كل شيء.

وعند تحليل مرامي وأهداف ودلالات تواجد الشروال في الفولكلور تتبين لنا العلاقات الاجتماعية والاقتصادية من هذا التواجد فمن الأمثلة التي سقناها نعرف أن الشروال يدل على الصراع بين المالك وغير المالك وعلى العادات الاجتماعية وعلى المعاني الجمالية.

حرفة خياطة الشراويل اليوم(1):

لقد أثرت التغيرات الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي الثقافية على الحياة والسلوك، والأزياء في الريف والمدينة والبادية، وطالت هذه التغيرات زي ارتداء الشروال فهذه الأيام نلاحظ ندرة ارتدائه في المدينة إلا في الحارات الشعبية، وفي المناسبات وعند الرجال المسنين. وهذا يدل على أن الحاجة الاجتماعية ضمن البيئة والزمان تغيرت، ولم يبق هناك داع لارتداء الشروال أما في الريف البعيد، فمازال كبار السن يرتدونه بشكل دائم ويومي. أما الشباب فيرتدونه في المناسبات العامة وبالنسبة للريف القريب من المدن، فقد اقتصر ارتداؤه على كبار السن فقط، أما الشباب فقد تركوه نهائياً. لهذا فقد قل عدد خياطي الشراويل في المدن إلى حد ضئيل جداً. وفي الريف قل عدد الخياطات اللواتي يمتهن الخياطة إلى حوالي ٢٥%.

(١) سارة عواد – العمر /٧٥/ عاماً حية – من الزبداني- خياطة شراويل.

ويوماً بعد يوم تتقلص الحاجة إلى ارتداء الشروال، وعما قريب سيصبح زياً فولكلورياً يدرس ضمن الأزياء المندثرة. رغم أنه يجب تشجيع ارتدائه في المناسبات للحفاظ على الروح الاجتماعية لدى شعبنا وذلك من قبل المؤسسات الثقافية المعينة[1].

الصناعات النسيجية

صناعة الشنبر على النول اليدوي - العربي

١- الشنبر بعد من الماضي إلى الحاضر. وصلة بين القديم والجديد. هو زي شعبي تقليدي ارتدته المرأة قديماً منذ زمن مديد. وهو اختراق عمودي للفراغ، وسؤال للأبد عن أشياء وأشياء. ومحاولة للخروج من المكان إلى الزمان. يمد الشنبر لتحولات النهر يده. فمن الشروق حتى الليل يتمايل على العنق والرأس زهرة نسائية حلوة تزين الحياة والكيان النسائي. يفرش أسئلة التليد والعميق على الشفاه فتبل الوجوه والعروق والشرايين. وتتصل الكلمات والأحرف بالأحرف. علاقات قائمة تعانق الروح ضمن تاريخ مستمر. هذا القديم الذي مازال يجاورنا ويمشي معنا. نمسك فرعه فكأننا نلمس زمناً لا بداية له، ونتذكر أنه يعايشنا ونفرح لذكره، ونسر لمشاهدته. نحاول لمسه والنظر إليه والتعرف عن كثب على أعماقه، وألوانه واستكناه تاريخه.

له سحره ووقعه، واستمراره في أناشيد الحقول والأشجار. وفي تواقيع الينابيع، والأنهار. في صدى موسيقى صوت نول خشبي قديم تحدفه الأيدي الخالقة جيلاً بعد جيل وتتناوله قبرة الصباح مخترقة الزمن في جولة يومية. الشنبر أحد نداءات الماضي على مدار القامات الجميلة. نداء مشبع بأغنيات سهولنا وجبالنا وأنهارنا وأزقتنا.

---

(١) فلك ديوانة العمر (٧٥) عاماً حية – من دمشق – خياطة شراويل.

١- ما هو الشنبر:

الشنبر لباس للرأس وهو زي سوري قديم. ارتدي في المدينة وفي الريف السوري والبادية، فهو لباس فلاحي وبدوي ومدني ولباس يمتد من العنق حتى الرأس إذ يلف على شكل لفة على مدار الرأس تغطي القسم الأكبر منه. وتلف عليه في أعلاه لفة أخرى تدعى (العصبة) او (الفوطة) وفي بعض المناطق تدعى (العصابة) أو (العصباية). وفي بعضها الآخر مثل ريف حمص تلف (حطة). ويبلغ طول الشنبر ثلاثة إلى أربعة أمتار، وعرضه من ٣٠ إلى ٤٠ سم. شكله مكرنش وله لونان لا غيرهما الأسود والأحمر. وهما إما بطول بعضهما أو أحدهما أطول من الآخر. ويكون ذلك حسب عمر التي ترتديه فعند الصبية يغلب اللون الأحمر إذ أن شنبرها أحمر بالكامل أو مع قليل من الأسود. أما العجوز فشنبرها أسود.

وقد يحصل أن تتغاوى الصبية بشنبرها وذلك حسب طريقة لفه على الرأس وربطه على العنق، أو رشاقته أثناء اللف وطريقة تمييله أو تقصيره أو إطالته وإزاحته قليلاً عن العنق.

وفي العهود القديمة حينما كان يرتدى دائماً، كان يبقى على الرأس طوال النهار وبالأحرى طوال فترة يقظة المرأة.

٣- أجزاء النول اليدوي العربي الذي ينسج الشنبر:

يدعى النول الذي ينتج الشنبر: النول العربي ويسمى أيضاً الشقشاقة وهو نول يدوي يوضع في غرفة واسعة. وله أقسام متعددة نبينها فيما يلي:

١- **الدواسات:** وهي من خشب وتكون في أسفل النول وعددها اثنتان وكل دواسة فيها قطعتان. وتتصل تلك الدواسات بالنير. وطول كل منها ذراع.

٢- **النير:** وله أهمية وقيمة كبرى. وهو مؤلف من أربع قطع اثنتان صاعدتان واثنتان هابطتان هذا أثناء عمل النول. وهو يمد على العرض. وتدخل

فيه السدى وهي الخيطان- وكانت قديماً من حرير طبيعي أو حرير (بلدي) وهو من جميع الألوان- وأخيراً صار الشنبر يصنع من قماش حرير صناعي يدعى كريب. وهذه الخيطان تتصل بطابات معلقة بخشبة ملساء وعدد الطابات أربع أو يزيد. وهي مثقلة بحجر بوزن ٣ إلى ٤ كغ والخشبة الملساء معلقة بخشب السقف مباشرة. ويبلغ عرضه متراً أو متراً وربع المتر. والنير معلق بخشبة من فوق بواسطة قطعة حبل رفيع (مرسة). وهي مصالبة طولها متران بارتفاع السقف ومثبتة به.

٣- **المكوك**: وتلف عليه اللحمة وهي خيطان من الحرير أو القطن وأحياناً من الصوف وهو بطول ٣٠- ٤٠ سم. وتعلق به ماسورة بطول ١٠سم تدخل في النير من الطرف إلى الطرف الآخر مع كل ضربة أو حدفة.

٤- **الجرار**: وهو من خشب بطول ١,٥ متر. وعمله ضم اللحمة بالسدى وضمها إلى القماش المتشكل.

٥- **الغرغارة**: وهي بكرة يتصل بها الحبل المتصل مع المكوك. وخشبة مدورة يربط بها الحبل وتكون دائرية.

٦- **قرميتان كبيرتان من الخشب** مرتكزتان على الأرض أو داخلها بعمق متر. وسطحهما مرتب وناعم.

٧- **المطواية** وهي مرتكزة على القرميتين ووظيفتها حمل السدى.

٤- آلية العمل:

يعمل على النول العربي اليدوي شخص واحد أو اثنان. ويبدأ العمل بأن يمسك النساج الحبل بطرف وبيد واحدة ويمسك الجرار باليد الأخرى. فيتحرك العمل ويبدأ النير بالعمل مع قطع الخشب. حيث تبدأ كل اثنتين لوحدهما هابطتين وصاعدتين. وبعد أن يتم ضم نسيج الشنبر يسحب ويرمى في الماء فور

صناعته. ويبقى فترة كافية في الماء حتى يكرنش أي يصبح أقصر وهذه الفترة تمتد من يوم إلى ثلاثة أيام ثم يرفع. ويصبح عرضه حوالي نصف ذراع أو أقل. وكان يدق بعد أن يخرج من الماء. ينتج معلم النول الماهر من ٥-٦ شنابر يومياً وهو المعلم الأصلي. وعمله يستمر في كل الفصول ولكن يهتم به في الشتاء أكثر. ويشتغل المعلم من ١٠- ١٢ ساعة يومياً. وهذه الحرفة حرفة دمشقية خالصة.

٥- رسمة الشنبر ونقشاته:

تقتصر لوحة الشنبر من حيث اللون على لونين هما الأحمر والأسود كما ألمحنا آنفاً. وهو من القماش الحريري البلدي ويدعى المعرق. وأحياناً يلون بألوان أخرى مطرطشة، وخاصة على جانبيه وأطرافه وهذه الألوان بيضاء وزرقاء ورمادية تتشكل أشكالاً متباينة إذ تأخذ شكل النقطة أو الدائرة أو المسدس والمثلث والمعين. ونرجح عدم تلوين الشنبر أو الإكثار من النقوش عليه لأنه لباس الرأس ومغطى بالحطة والعصبة.

٦- الدلالات الأسطورية والشعبية في الشنبر:

في الشنبر مدٌّ لونيٌّ جميل إذ فيه لونان رئيسيان في الغالب هما الأسود والأحمر للونين امتدادات عميقة في التاريخ والأسطورة. فرأس الإنسان أعلى الأعضاء فيه والمرتسمات التي تقع عليه من الأعلى عمودية، ورأسية وليس فيها تبعثر. وهكذا يجب أن تكون الأشياء التي تلِف عليه غير مبعثرة، ومتجهة إلى الأعلى ليتم التواصل، والتجاذب. ومن هنا اختصر الإنسان ألوانه إلى لونين فقط، هذا من حيث العدد، أما من حيث دلالة اللون الأسطورية فتلعب دورها هنا الألوان. فالأحمر لون الخصب والخلق ولون الضياء فهو نيروز ونيسان. وبداية الاحتراق وهو تموز وأدونيس عدا الإشارة إلى الولادة ضمن المفهوم الأسطوري. فالشنبر الاتصال مع الحلم المتجه إلى الأعلى والمتلقي للآتي. أما الأسود فهو

دلالة الكمون التي تسبق الانبثاق. ولون الحلم الجازع، والترقب وهو استعارة من الليل. والصلة وثيقة بينه وبين الأحمر. فهما منسجمان تماماً بتداخلهما الجمالي. وإذا حللنا أشكال بعض النمنمات النادرة على بعض الشنابر مثل المعين، والمثلث، والنقطة، والهلال تتبين لنا اتصالاتها الدلالية العميقة.

فالمعين هو الحلم الإنساني التواق المنطلق إلى الأعلى لتتم عملية الالتحام والاتصال، وهو حركة رشيقة ملأى بالرغبات إذ يرمز إلى آلية النشوة والارتواء.

والمثلث رمز لرغبة عنيفة، ولأسطورة الخلق ولمحاولة الاتحاد بين طرفي الحياة ليخلق الربيع، ويستمر العطاء في جدل الاستمرار.

والهلال هو القمر والحبيب المنتظر الآتي، وهو الشاب الذي يزور ليلاً. هو الحلم الإنساني الطفولي الذي تترقبه الفتاة. وحلم الإنسان إلى السعادة المطلقة. وقد حمل الموروث الشعبي، وخاصة الأدب الشعبي الكثير عن الشنبر. إذ جاء ذكره في الأغنية والمثل الشعبي. وبالأخص في الأغنية الشعبية فقد تواتر في ثناياها فحلاها وتخلل في أعماقها فأعطاها أمداء قيمة.

وفي المثل الشعبي رصدنا عدة أمثال فيها الشنبر منها:

١- لفة وشنبر ولبيس يا أسمر:

وهو مثل ذو دلالات مختلفة. فشكله يعني أن ارتداء اللفة والشنبر هو من مكملات لباس الرأس وخاصة الجميل منه كما يرمي المثل. واللفة والشنبر رائعان على رأس الفتاة السمراء فهما يزينانها، ويحليانها. أما معناه العميق فيشير إلى ما فيه من علاقات لونية متميزة، ورغبة في الإنطلاق والاتصال.

٢- شنبر من حرير ووجه خبز فطير:

الشنبر الحريري البلدي جميل وأنيق وساحر لهذا يجب على من ترتديه أن تكون حلوة وجذابة، ولطيفة. ولكن إذا ارتدته البشعة فستقل من روائه وهيبته.

وخاصة إذا كان وجهها مكرنشاً باهتاً كوجه رغيف الخبز غير الناضج أي الفطير. فالمثل هنا للاستهزاء بكل الأشياء التي يرتديها الإنسان غير اللائق بها.

وفي الأغنية الشعبية جمعنا عدة أغان كان فيها الشنبر. فمن ردة دلعونا ورد:

يا أم الشنبر يا أم الشنبر   شنبرك سكن بقليبي وعمر
ما أحلى هالوجه يا لون السكر   بسمة من تمك تفرفح الكونا

تقول الأغنية: أيتها الفتاة التي ترتدي الشنبر. شنبرك دائم الحضور في قلبي. وأنت التي تشغلين قلبي دائماً. فأنت وشنبرك متلازمان. أما بسمتك فهي فرح الكون وغناه.

ومن أغنية أخرى تغنى في درعا والسويداء والجزيرة والقنيطرة:

قلتلها اعطيني بوسة   قالتلي والله ما أقدر
كرمال عينك يا السمرة   يللي تلفين الشنبر

يا فتاتي السمراء التي تلف الشنبر على رأسها، والذي يجملها. فكرمى لعينك يهون كل شيء. وليتني أطمع بقبلة منك فهذا حلمي. وأطمح أن لا يكون هذا مستحيلاً.

وفي أغنية أخرى تغنى في المحافظات الشمالية:

روحي ملي يابنية   عالعين غربي الرقة
ايد إلي لفت الشنبر   السمرا أم الدقة

فتاة وعين ماء وشنبر فوق وجه أسمر مع نقش، ونمنمة على الشفة، والجبين. ومحب عاشق. وعلاقات فيها انسجام ومرتسم فيه جمال.

وفي أغنية رابعة تغنى في الجزيرة وحنوب سورية نسمع:

أنا بحبك يالأسمر   وأنت علينا تآمر
كرمال عين هالبنية   هلبست الشنابر

في الأغنية علاقات منسجمة كانسجام خيطان الشنبر. إن كان في الشكل أو النسيج العميق، والدلالات البعيدة. فنحن نلاحظ في مجمل الأغنيات التي أشرنا إليها. لون الفتاة، وهو الأسمر. ونلاحظ علاقة اللون بالشنبر وبلغة العشق. كما نلاحظ الوجد، والتوق إلى اللقاء. وأنه لباس جميل للفتاة التي ترتديه.

٧- صناعة الشنبر اليوم:

لقد نوهنا آنفاً ان الشنبر لا زال يرتدى من قبل أكثرية النساء في الريف السوري، وحتى في بعض المدن ومراكزها كالسويداء ودرعاً ودير الزور والحسكة.

ولا زال من الألبسة الهامة للمرأة الريفية. ولكن لم يعد كما كان سابقاً فهو الآن من صنع الآلة في المصنع وذهبت نكهته التي نعرفها ورونقه الذي لمسناه. فالنول اليدوي والإنسان المبدع الخالق الذي يعمل عليه لينتج لنا شنبراً رائعاً قد توقف أو كاد كلياً. فأين الشنبر البلدي من شنبر هذه الأيام؟ وأين ميزاته ومواصفاته القديمة؟. فهو الآن باهت جامد جمود الآلة التي تنتجه. إذ اختفت اليد واللمسة الإنسانية، واختفت العين الساهرة. والثواني المحترقة أثناء انتاجه.

وإذا أخذنا دمشق التي كان فيها مئات أنوال الشنابر العربية اليدوية كمثال لما وجدنا فيها غير نول يدوي واحد فقط لانتاج الشنبر هو نول السيد (أبو محجوب[1]) في محلة القيمرية. علماً أنه ينتج صاية أيضاً. ونحن نعزو ذلك لا لقلة الأنوال، ولا لقلة اليد الماهرة. ولكن لقضية المردود المادي فقط. إذ أن معلم الشنبر لا يلقى مقابلاً لعمله وجهده، فهو المبدع الخالق. والمردود لا يسد حاجته. لهذا توقف عن عمله، وأوقف نوله، وركنه إلى جدار مهمل أو باعه.

هذه الحرفة الرائعة قد يأتي يوم وتضيع إذا بقيت على حالها ولم تتداركها الأعين الساهرة على موروثنا الشعبي، وتقاليدنا الحرفية التي يجب أن نحرص عليها حرصنا على حياتنا. فهي أصالتنا، وعراقتنا، وتاريخنا.

---

(١) الراوي السيد (أبو محجوب) من القيمرية- العمر سبعون عاماً.

صناعة خرج العروس

١- تطريز للصباح والمساء، ولتموجات الزمن الإنساني هو الخرج:

نقش الفصول على بوابات الحياة والخصب، والدخول إلى عالم الخلق المستمر والمتطور هو الخرج. زينة العروس وجنة أحلامها وصلتها بالأيدي المبدعة، ورسم التاريخ والبيئة هو الخرج. فمع كل تثن للعروس يتثنى. ومع كل زغرودة يهتز ويميل. ومع كل لحن يغني. إذ يغرد للأنهار والربى والصبايا الرائحات والغاديات. ويغزل للشروق ضوءه فيرقص في ساحة العرس معانقاً العروسين حتى النشوة الأخيرة. وتتداخل أغنيته مع أغاني الحصاد، والقطاف، والرجاد في انسجام كلي. وتتوافق خيوطه مع دروب الغيم والكروم. الخرج نقش الأحلى والأجمل على تخوم المشاوير. وتشكيل المنمنمات والتعرجات على خطوط الحب والألوان، وهو خروج بارز وعلامة بينة تجتاز الفصول وسياج الزمان لتطل على المكان بأغنيات إنسانية مرقشة ترسم الجمال والبوح في استمرارية راقصة، فتتشكل خطوط الدروب وتزهو. تطريز على الأكتاف والرؤوس والأيدي، وعلى الجدران. سكون وفرح وطمأنينة. وامتداد لانبثاق زهرة شقائق النعمان، وصلاة آدون. وتواصل مع الزيتون، والسرو، والأنهار. حكاية الينابيع مرشوشة على الحرير ومنقوشة في أسدافه. لغة حية من حروف راقصة.

هو الخرج رحلة الماضي في الحاضر إلى المستقبل مرسومة في زمن إنساني لا ينقطع.

٢- ما هو الخرج:

خرج العروس إحدى الصناعات النسيجية اليدوية التي لعبت دوراً هاماً في حياتنا الاجتماعية خاصة في الريف. إذ اعتبر قطعة فنية متكاملة ونادرة من التطريز الرفيع الذي هو نتاج اليد الماهرة والخالقة.

ينقسم الخرج إلى خمسة أقسام منها: أربع قطع صغيرة وقطعة كبيرة واحدة. وكان لكل عروس خرجها. إذ يوصى عليه قبل العرس بثلاثة أشهر. فالاهتمام به يفوق أي اهتمام آخر.

ويتكون الخرج من عدة أنواع هي:

١- خرج الشباك.

٢- خرج الطاولة.

٣- خرج الخزانة.

٤- خرج (الليوك) أي خرج مخبأ الفراش. وهو بديل عن الستائر في أيامنا.

٥- خرج المَشْكَلة.

٦- خرج غطاء رأس العروس، وثوبها، وشالها، وثيابها الداخلية.

وكانت تختلف صناعة كل من هذه الخروج بعضها عن بعض بالشكل فقط.

أما معنى كلمة الخرج فيمكننا أن نقدر أنها: من جملة ما يخرج مع العروس من بيت أهلها من أشياء وأغراض للاستعمال في بيت الزوجية. أو هو الشيء البارز من هذه الأشياء.

٣- المواد الأولية في الخرج:

القطن هو المادة الأولية الأساسية في تكوين الخرج إذ يؤتى به كخيطان مشغولة بالغزل اليدوي. وتكون الخيطان مبرومة ومفتولة بشكل جيد ومتين وجاهز للعمل، تضاف إلى خيطان القطن العادية من أجل خياطة الأجزاء ولحمها مع بعضها. ثم بعض التزيينات القماشية الصغيرة المنمنمة وهي قطع على عدة أحجام وأشكال توضع بشكل هندسي متناسق بين أجزاء الخرج.

ويجب أن يكون الخرج من خيطان القطن الخالص. وذلك لنعومة القطن وإمكانياته وطبيعة تكونه وقربه من هذه الصناعة. أما الصوف أو الحرير فلا يمكن أن يصنع منهما خرجاً لصعوبة العمل بخيوطهما ولمرونة خيوط القطن.

٤- أدوات العمل في الخرج:

يحتاج العمل في الخرج إلى عدة أدوات نذكرها فيما يلي:

١- **السنانير:** وهي متنوعة الأحجام والأشكال. ولكن أكثر المستعمل منها لهذه الحرفة هي السنانير الصغيرة الحجم والحادة الرأس والمدببة.

٢- **الطارات:** وهي إطارات خشبية على شكل دائرة. مختلفة الأحجام والأنواع فمنها الصغير والكبير والمتوسط. تستعمل كلها حسب الطلب ونوع الخرج المراد صنعه.

٣- **الإبر:** وتستعمل لضم الأجزاء لبعضها. وهي كبيرة وصغيرة.

٤- **الخيطان:** وهي من الخيطان المتينة القوية ذات اللون الأبيض فقط.

٥- **المقص:** وهو من الحجم الوسط. يستعمل لقص الخيط الزائد.

٦- آلية العمل:

يؤتى بخيطان القطن. وتجتمع عدة نساجات. ثم يعلق الخيط بالسنارة. ويكون الشكل مرسوماً على الورق كمخطط وبعدها يبدأ العمل. ومن السنارة إلى الطارة المدورة. ويستمر العمل في الخرج شهرين كاملين، بمعدل (١٠) ساعات يومياً.

وهذه الحرفة حرفة نسائية. ومن النادر أن يعمل فيها الرجال إلا من قبيل الهواية. وتسمى صانعة الخرج (الطرازة) وبعض الأحيان (النساجة). وتحمس الطرازات بعضهن بعضاً إذا كان الخرج مستعجلاً حتى تتم صناعته بسرعة.

وكلما انتهت طارة تربط بغيرها وتخاط بالإبرة العادية حتى يكتمل الشكل المناسب والمرسوم.

٦- الدلالات الأسطورية والشعبية:

للخرج صلة عميقة بالأسطورة والإنسان. فهو للعروس فقط. أي للخصب والتجدد والامتداد. هو ما يخرج معها من بيت أهلها. كأنما يشير إلى الأعماق والبدايات. ويؤكد هذا ما يرتسم عليه وينقش. إذ ينقش الطاووس والببغاء والنسر والدوري من الطيور، وعدة أنواع من الأشجار كالتفاح والخوخ. ومن الأزهار هناك القرنفل والفل والبنفسج. وكل هذا يدل على الحياة واستمراريتها. ويرسم على الخرج شكل جميل يدعى (العرق المحير) وهو امتدادات هندسية من الخطوط والأشكال المتداخلة بانسجام. ويترك هذا الشكل للصانعات الماهرات. وقد ورد اسم الخرج في الموروث الشعبي الأدبي. خاصة في المثل إذ ان هناك عدة أمثال نذكر منها:

١- يا خرج منيحٌ يا كُبٌ واستريحٌ:

أي إما أن يخرج مع العروس خرج جيد لائق أو بدون هذا الخرج كلياً. هذا المعنى الظاهري للمثل، أما المعنى العميق فإنه يخص كل الأشياء المطلوبة أو المتعامل بها لدى الناس.

٢- خرج ومرج:

وهو مثل يعبر عن أيام العرس وعن قيمة خرج العروس. وعن التداخل والازدحام في تلك الأيام.

٣- شو هالخرجٌ اللي متل التَلج:

ويعبر عن الدهشة لجمال الخرج وبهائه وبياضه إذ أنه يشبه بالثلج. وهذا هو المعنى الظاهري، أما المعاني العميقة فتنطبق على جمال الأشياء والأفعال التي يتعامل معها الإنسان أو يمارسها.

٧- هذه الصناعة اليوم:

من النادر أن يخرج خرج مع عروس هذه الأيام إذ يلزم لهذه الصناعة الوقت والتفرغ والزمن الكافي. فقد أخذت الطرازات بالتناقص. ودخلت الصناعة الحديثة بتسارع يومي وإنتاجها من الملابس يغطي السوق. عدا ذلك فخرج العروس هذه الأيام يكلف غالياً بل غالياً جداً. لا يستطيع تقديمه إلا الثري. أما قبل ٦٠ إلى ٧٠ عاماً فقلما نجد عروساً دون خرج معها وخاصة في الريف. ونذكر هنا أن شرط العريس قديماً أن تكون عروسه طرازة ونساجة ومتقنة لصناعة الخرج. هذا الخرج الذي يختفي رويداً رويداً. وهذه الحرفة الطرفة والجوهرة تختفي أمام ناظرينا ونحن نتطلع. والخوف أن تنتهي دون أن ننتبه أو ندري بانتهاء من تتقنها من النساء. وحتى لا نكون في موقع النادمين والمتحسرين. فلندخل هذه الصناعة ضمن برامج التعليم في المدارس الفنية الرسمية. ونشجع الحديث عنها في وسائل الإعلام. ونعمل على افتتاح فروع لصناعتها في مراكز صناعة السجاد في الريف. لعلنا نحافظ عليها من الضياع. فالخرج حرفة جميلة رائعة من روائع فنوننا اليدوية الشعبية وصناعاتنا التي نفتخر بها أمام العالم أجمع.

المصادر - الراويات:

١- السيدة جميلة الطباع من الزبداني- العمر ستون سنة.

٢- منيرة رمضان من الزبداني- متوفاة- عاشت ثمانين عاماً.

صناعة الفرو

١- الفروة تواصل لدفء الصيف في وحوحات البرد في الشتاء، واتصال لهذه الروح المنتقلة عبر الزمن لتحمي جسد الإنسان من صقيع شتائي صحراوي، وهي موئل لراع يسوق قطيعه في أيام كانون الأصم الباردة وينشد على نايه أجمل

الألحان بعد شعوره بالدفء جراء ارتدائه الفروة، ومنجاة لراع جبلي يقود قطيع ماعزه فوق الصخور في يوم شباطي شديد العصف والبرد.

والفروة استمرار في الزمان والمكان منذ مئات السنين حتى الآن، فرؤيتها تذكر بحضور الماضي وجماليته، وعلاقته مع الإنسان. تاريخ من الشد والجذب والتطور على هذه الفروة حتى رأيناها على شكلها الحالي الذي وصل إلينا عبر الزمان، ومن خلال الأيادي، والأصابع والعقل. فالفروة لغة الشتاءات القاسية وزمهرير كوانين والمربعانية، لغة دفء هذه الأيام وكسائها الواقي.

٢- المواد الداخلة في صناعة الفروة:

المواد الأولية الداخلة في صناعة الفراء عديدة ومن مصادر عدة منها مصادر حيوانية وطبيعية وغيرها. يمكن حصر هذه المواد فيما يلي:

١- جلد الخروف.

٢- جلد النعجة.

٣- قطعة كبيرة من القماش تدعى القبة، يستحسن أن تكون من النوع السميك المتماسك، والناعم، ويتوفر هذا في قماش الكلمنضو.

٤- ملح.

٥- الشبة وهي تستعمل لزيادة تماسك الجلد بعد مزجها بالملح.

٣- أدوات العمل المستعملة في صناعة الفرو:

لكل حرفة أدواتها التي تستعمل في صناعتها، وهي تختلف من حرفة إلى أخرى رغم اشتراك بعضها في حرف معينة. تتوافق هذه الأدوات مع ظروف الحرفة وموادها، والمدة الزمنية التي تتطلبها صناعتها، وبيئة هذه المواد.

وهذه الأدوات هي:

١- إبرة فرواتية تتميز عن الإبرة العادية بطولها وسماكتها.

٢- كشتبان فرواتي. ويختلف عن (الكشتبان) أو القمع العادي بحجمه، وقياساته، وهو أكبر حجماً من العادي.

٣- مقص. وهو من النوع الكبير يدعى المقص الفرواتي، ويجب أن يكون من النوع الجيد المتين وهذا النوع لا يصنع إلا في حماة.

٤- سكة تشد إلى الحائط.

٥- حبل قصير.

٦- قطعة من الحديد معقوفة على شكل عصا تدعى (الدنق)، يضرب بها الجلد حتى يصبح طرياً.

٧- الأزق أو (الأزء) لنحت الجلد وهو شفرة حديدية عريضة مع يد خشبية تصنع في حماة ومعرة النعمان.

٨- التزكاية: وهي لشد الجلد وتتألف من ثلاث خشبات، عودان طويلان بطول مترين، وعود قصير بطول متر وربع أو متر ونصف.

٩- ثقالة حديدية لتثبيت التزكاية.

١٠- خيطان خاصة بصنع الفروات.

٤- آلية العمل أو آلية صناعة الفروة:

يؤتى بجلود الخراف أو النعاج بعد ذبحها، ويملح الجلد بواسطة ملح الطعام، ثم ينشف على الهواء بنشره في مكان مشمس، ولكن ليس طوال النهار، ويستمر هذا من يومين إلى ثلاثة أيام، وترفع الجلود، وتطبق فوق بعضها لمدة شهر بعد ذلك توضع في الماء، وتنقع يوماً أو يومين، ويبدأ بتنظيف الصوف بالسكين، ويضاف إليها الملح حيث تملح بمثلين من الملح ومثل من مادة الشبة، وتطوى الجلود يومين ثم يعاد نشرها على شمس خفيفة حتى لا تلدع حوالي خمسة عشر يوماً، وتبخ بالماء بواسطة الفم حتى ترتخي وتلف على التزكاية، بعد

ذلك تعالج (بالقزق) وهو حديدة حادة شاطرة لها مسكة خشبية لفترة ساعتين، وبعدها تربط بواسطة سكة مشدودة إلى الحائط، وتربط السكة بحبل تشد الجلود به، وتعامل بحديدة معقوفة على شكل عصا، وتسمى (الدنق) كي تصبح طرية. وتحتاج الفروة الواحدة من ثمانية إلى تسعة جلود، وتجمع إلى بعضها ثم تخاط بالإبرة الفرواتية، وتعامل بالمقص الفرواتي.

ويقيس الفرواتي الجلود بالشبر حسب الطلب، فالفروة الواحدة تتطلب تسعة عشر شبراً. ويعمل في هذه الحرفة عادة معلم وصانعان، ويظل الفرواتي يعمل حوالي ثلاثة أيام لإنتاج فروة واحدة، والفرواتي النشيط يصنع الفروة في يومين. تصنع الفراء في عدة محافظات ومناطق سورية هي:

١- دمشق.

٢- حمص.

٣- حماة.

٤- حلب.

٥- الرقة.

٦- دير الزور وفي منطقتي معرة النعمان والقامشلي.

والطريف في هذه الصنعة أنها يمكن أن تنتقل صناعتها إلى أماكن تواجد أداتها الرئيسية وهي الجلود أي إلى الصحراء، حيث ينتقل الفرواتي إلى مضارب البدو ويظل حوالي ثلاثة أشهر لتصنيع الفراء ومبادلتها مقايضة بالسمن العربي، والخراف، والصوف.

يحتاج إتقان حرفة صناعة الفروة إلى أربعة أشهر، أما العامل النشيط فيتقنها خلال شهرين. وفي دمشق كان سوق الفرائين عند سوق الجوخ كما جاء في كتاب مجتمع مدينة دمشق(١) وجاء فيه.

---

(١) المرجع: مجتمع مدينة دمشق- د. يوسف جميل نعيسة- الجزء الأول- ص١٠٦.

(أن سوق الفرائين وخاصة الفرا الحمر عند سوق القميلة، وأن الدمشقيين يلبسون الفراء شتاءً (ص٩٤) الجزء الأول من الكتاب المذكور أنفاً، أما الفرا الحمر فكان يلبسها الأغوات الأكراد وغيرهم وهي من الحرير الأحمر اللون المبطنة بفراء السمور. وبالنسبة لسوق القميلة فقد حرف مع الزمن إلى سوق ميلة الذي يباع فيه الخلقان أو الأشياء البالية والسلع العتيقة ويسمى أيضاً سوق برّا ويقع بجانب قلعة دمشق أما سوق الفراء الآن فهو في محلة السنانية في دمشق، ومن الفرائين في هذا السوق حالياً الحاج ياسين جنيد (الفرواتي) وعمره حوالي خمس وثمانون سنة وولده محمد خير جنيد وعمره خمس وستون سنة وبعض أبنائه. وفي مدينة القامشلي يشتهر في سوق الفراء الحرفي حسين المرعي الأحمد وعمره خمس وستون سنة وقد علم أولاده الحرفة وهم يعملون فيها.

٥- الدلالات الأسطورية والتراثية الشعبية الأدبية في حرفة الفراء:

حملت هذه الصناعة الكثير من الترديدات الشعبية وتجسدت في أجزاء عديدة من تراثنا، تجلت أكثر فأكثر في المثل الشعبي إذ وجدناها في أمثال عدة منها:

١- حط ابنك عند الفرّا يا بيشتغل بالبلد يا بيشتغل برّا:

مثل يحض على تعلم صناعة الفراء لأنها تؤمن للإنسان العيش الكريم إن كان داخل البلاد أو خارجها، فأنّى ذهب لا يخشى شيئاً ولا يخاف البطالة.

٢- الصنعة إذا ما غدّت بتعشي وإذا ما عشت بتفطر:

مثل يستخدم في شتى الحرف ولكنه يستخدم أثناء صناعة الفراء أكثر، حيث يدل على أنها تكسب الإنسان وتغنيه وتشبعه، ومن معاني هذا المثل العميقة الحرص على إنسانية الإنسان وحفظها.

٣- الفروة دروة:

مثل يحمل الفخر بارتداء الفروة، وأنها تقي الإنسان البرد والعواصف والزمهرير، وتجعله في أمان واطمئنان، ويدل في خلفيته على أن كل شيء من صنع الإنسان يقيه الأشياء السيئة والرديئة.

٤- بني آدم بيقول بالشتا: اجا الشتا لبسني فروة:

مثل يدل على أهمية الفروة في الشتاء حين يداهم البرد القاسي الناس، فالفروة في هذا الحين من الموسم هي المطلوب والمرجى.

٥- الفروة خير من دروة:

في الشتاء البارد تكون الفروة الصوفية السميكة أفضل من أية (دروة) بل هي ما يتوقى به الإنسان البرد والرياح.

وأثناء العمل وبعد التمثل بتلك الأمثال المذكورة وتناولها يأتي ببال صانع الفراء الغناء، فيغني المواويل العذبة المعبرة، وما سنذكره من مواويل سمعناه من الحرفي الفرواتي محمد خير جنيد[1]:

١- دمعتي تحدّر على خدي ونوحي زادْ
جارتْ علي الليالي والرفاقةْ زادْ
من كترْ همي يا ربي نفسي أبتْ لذيذْ الزادْ
لو انصفْ الدهرْ باهلْ الجودْ يا ما أحلاه
عقبْ المعزةْ مذلةْ والموتْ يا ما أحلاهْ
يابا حييتْ النفسْ بأرضها لوشحْ عنها الزادْ
٢- فخرك بدنياكْ معروفكْ لزيد وعمرْ

(١) الراوي- محمد خير جنيد فرواتي في سوق الفرائين في دمشق.

وابني لنفسكْ قصورا بالمعالي وعمرْ
يا خوي عَوّدْ لسانكْ على قولْ الصدقْ بالعمرْ
تحمدْ مزاياك لو شافكْ عدوكْ مالْ
لا تفتخرْ بالدهبْ وتقولْ عندي مالْ
يابا المالْ يفنى وذكرْ الله يبقى عمرْ
يابا المال يفنى وذكرْ الجيدْ يبقى عمرْ
٣- طلعْ الصباحْ يا جميلْ وأنا على المنى بدري
كلْ البدورْا لفتْ إلا أنا لم لفي بدري
أنا بسألكْ يا إلهي يللي بالقلوبْ تدري
تردْ شملي وشملْ محبوبي بروضةْ والنهورْ بها تجري

٦- هذه الصناعة اليوم:

صحيح أن صناعة الفراء قد تقلصت نتيجة لأسباب عدة منها: لأن أبناء المدن قد قللوا من ارتداء الفراء ولبسها إلى الحد الأدنى، وخاصة فئة التجار ومنهم تجار الحبوب، وتجار الأقمشة، وبائعو المصنوعات اليدوية، وغيرهم، إلا أنها ما زالت مهمة لأبناء الصحراء من البدو ولسكان الجبال والأرياف، رغم أننا نلاحظ أنه حتى البدو قلصوا من ارتداء الفراء بسبب توفر عناصر كسائية أخرى تغني عن الفروة في اللباس، كما أن النظرة الجمالية للزي قد تبدلت وتغيرت، علماً أنها أصبحت تكلف غالياً على الفقير فهو لا يستطيع شراءها لسعرها الثمين(١).

فسعر الفروة الجيدة هذه الأيام لا يقل عن ثلاثة آلاف ليرة، وهي الفروة الصوفية، أما الفروة الحمراء فإن كلفتها غالية جداً.

---

(١) المرجع: مجتمع مدينة دمشق- د. يوسف جميل نعيسة- الجزء الأول- ص١٠٦.

ورغم ذلك فإن صناعة الفراء ما زالت قائمة في أكثر المحافظات السورية مع أن نسبة العاملين فيها قد خف كثيراً عن الماضي، ولم يعد معلم الحرفة يتمنى لأولاده العمل فيها.

مما ذكر نستنتج أنه للحفاظ على هذه الحرفة يجب إزالة الأسباب التي تعوق استمرارها وخاصة سعرها المرتفع لغلاء مادتها الأولية وهي الجلود. وهذا يعود إلى عناية كل من له علاقة بالحفاظ على تراثنا الشعبي وفي إحياء حرفنا وصناعتنا[1].

حرفة الأغباني
تطريز يصل الأرض بالسماء

خيوط من ذهب الشمس تطرز الوقت، صباح من ألوان القزح يغمر أجسادنا، انبعاث من أغوار التاريخ يحمل البحر والجبل والساقية، والتموج، رقع من ترصيع بديع على امتداد يخترق الحجب. إنه الأغباني السؤال على العباءة، والزنار، واللفة، والمشلح. ارتسام على الجسم يصل الحياة ضمن متوالية الزمن. بهاء لانهاية لإشعاعه، سحر يدهش الأشياء، موال تغنيه الموجودات مع ناي الأطيار.

تتوهج الأسماء حين يذكر، تتوهج المخازن وتشع، تتوهج البيوت، والقصور، والعمائر، والمنائر، تضج الأزقة بالحركة، والليونة، واللدانة المبهرة.

هو الأغباني رقش من التاريخ القديم على زمننا الحاضر. تاريخ، وذاكرة وحلم.

٢- المواد المستعملة في هذه الحرفة:

كما وأن لكل حرفة من الحرف مواد أولية تستعمل فيها كذلك لحرفة الأغباني. وهذه المواد تعتبر الأساس للعمل ودونها لا ينتج هذا النوع من القماش. وهذه هي موادها:

---

(١) الراوي- محمد خير جنيد فرواتي في سوق الفرائين في دمشق.

١- الكتان:

وهو نوع من القماش القطني الجيد يعالج ويلون بألوان مختلفة، ويصبغ صباغة أصلية، والكتان من القماش المستعمل حديثاً في صناعة الأغباني.

٢- الحرير:

وهو الحرير الطبيعي، وقد استعمل لصناعة الأغباني قديماً، وكان لونان فقط الأصفر والأبيض، وأما الآن فتستعمل عدة ألوان منه مثل الأحمر، والأخضر، والذهبي والمقصب.

٣- الخيوط:

وهي خيوط متنوعة ومختلفة.

٤- القصب:

ويستعمل للتزيين، والتشكيل، والشنشلة، وهو على أشكال مختلفة.

٥- خيوط الذهب:

وكانت تستعمل لتزيين العباءات الأغبانية، وهي من أغلى أنواعه، وأهمها.

٣- الآلات المستعملة في هذه الحرفة:

تنوعت آلات العمل في صناعة الأغباني، واختلفت من القديم الذي يعود إلى مئات السنين حتى الآن، فالقديم كان يدوياً محضاً أما الآن فهو إما يصنع على آلة نصف آلية أو آلية بحتة.

أ- الآلات القديمة:

١- الطارة:

وهو التطريز اليدوي البحت، والطارة هي هيكل خشبي يشبه الغربال، ويكون فيه طارة داخل طارة. ومن أهم المطرزات القديمات على الطارة في دوما هي السيدة خرما، واشتهرت بتطريزها الجميل، والتطريز كان بواسطة السنارة والخيطان.

٢- النول الخشبي:

وهو نوعان عادي يدعى نول الأغباني، كل الأشياء فيه يدوية. وقد بطل في أيامنا استعمال هذه الآلات القديمة.

ب- الآلات الحديثة:

وهي آلة واحدة تسمى آلة الأغباني أو ماكينته. وقد تطورت هذه الآلة من نصف آلية إلى آلية أخيراً، وقد أخذ هذا التطور وقتاً حتى وصل إلى صورته الأخيرة.

أ- مكنة الأغباني نصف الآلية وتتألف من:

١- **الرأس:** وفيه عدد كبير من القطع المعدنية ولكل قطعة اسم خاص بها فمنها: المرآة، الجوزة، المدفع، الإبرة، الفالة، بيت الفالة.

٢- منضدة خشبية وتستعمل لارتكاز الرأس عليها، تحملها أرجل معدنية.

٣- دولاب معدني ثقيل يتصل بالدواسة.

٤- الدواسة للتحرك بواسطة الأرجل

٥- قطعة خشبية، عملها وصل الدولاب المعدني بالدواسة.

٦- قشاط من الجلد المبروم عمله وصل الدولاب الكبير بالدولاب الصغير.

٧- اليد وتسمى يد (المكنة) ومكانها الناحية السفلية من رأس الماكينة.

٨- الكركر ويدعى كركر الحرير.

٩- المسننات وهي لعمل الماكينة.

١٠- الإكس.

١١- الكباس ليسحب حسب إرادة العامل أو العاملة.

١٢- الطيار ويلحق بالماكينة وهو عبارة عن قطع خشبية تتحرك حول قضيب معدني حديدي، إذ تدخل فيه شلة الحرير والدولاب الذي يحمل الكركر،

حيث تحرك العاملة يد الدولاب فيتحرك الكركر، وهكذا تتم عملية (كب الحرير) أو (كبكبة الحرير) أي لفه من الطيار الخشبي إلى الكركر.

أما الآن فقد أدخل المحرك الكهربائي إلى الماكينة فأصبح العمل آلياً بحتاً، حيث ألغي عمل الطيار ووضع الحرير على بكرات تدعى (كونات).

٤- آلية العمل:

تدار الماكينة نصف الآلية بالرجلين، إذ يوضع كركر الحرير ويسحب بالإبرة من المرآة. حيث يوجد ثقبان رئيسيان موصولان بسلم، يخرج الخيط من الثقب الكبير، ثم تشغل الماكينة باليد فتنزل الإبرة لسحب الخيط إلى الثقب الصغير عندئذ يهبط الكباس وتثبت قطعة القماش، وتعمل الماكينة بواسطة القبضة اليدوية ثم تتصل البكرة بالرأس، ويصعد الكباس، ويهبط إلى أن تنتهي القطعة، وتتحكم القبضة بشكل الرسم.

تعمل النساء غالباً على تلك الماكينات في البيوت خاصة في دوما إذ توجد أكثر من خمسمائة عاملة وتوجد بعض الماكينات في قرية مديرا.

والعمل حسب فراغ العاملة. وتنتج عاملة الأغباني جميع القصات حسب الطلب من لفات، ومنتان، وصدارٍ رجالية، وزنانير وأفضل وقت للعمل لديهن هو من طلوع الفجر حتى الضحى (وتسمى الفجرية) أو (البكرية).

٥- حول هذه الحرفة:

حرفة الأغباني حرفة قديمة جداً تعود إلى مئات السنين وهي حرفة دمشقية بحتة اشتهرت بها دمشق المدينة، ولم تنتشر إلى مدن أخرى، وهذه من سمات دمشق وميزتها. واشتهرت بها عدة عاملات بذاتها وهي عائلات[1]:

١- طبّاخة وهي عائلة دمشقية قديمة.

٢- سكر وهي عائلة دمشقية أصيلة.

---

(١) ملاحظات: الرواة: ١- عائلة طبّاخة. ٢- عائلة سكر. ٣- عائلة دبانة.

٣- دبانة وهي من العائلات الدمشقية القديمة أيضاً.

قديماً كان كل العمل يتم في دمشق أما منذ ما يقارب من مائتي سنة إلى الآن فقد انتقل التطريز إلى دوما وبقي التفصيل، والرسم والدرز في دمشق.

يحضر الأغباني بتفصيل القماش، وينتقل من عملية إلى أخرى. التفصيل حسب طلب السوق. بعد التفصيل الدرازة ثم الرسم وبعدئذ إلى دوما للتطريز وبعده الغسيل فالكوي ثم عملية التمييش أي قص الزائد من الخيطان، وترتيب المنتج، وآخر العمليات هي القص حسب المساحات التالية:

١- ١م^{٢} × ١,٦٠ م^{٢}.

٢- ٢ م^{٢} × ١ م^{٢}.

٣- ٢,٥ م^{٢} × ١,٥ م^{٢}.

٤- ٢,٥ م^{٢} × ١,٥ م^{٢} دائري.

٥- ٣ م^{٢} × ١,٥ م^{٢}.

٦- ٤ م^{٢} × ٢ م^{٢}.

٧- ٣ م^{٢} × ٢ م^{٢}.

٨- ٣,٥ م^{٢} × ٢ م^{٢}.

٩- ١,٥ م^{٢} × ١,٥ م^{٢} مدور.

وهو موصول أي يطرز فوق الوصلة حتى لا تظهر وكل ما ذكرناه من أرقام هي أقطار القماش.

أما ما ينتج من ثياب أغبانية وغيرها فنذكره فيما يلي:

١- طقوم الطاولات.

٢- اللّفات الأغبانية.

٣- سجادات صلاة.

٤- طقوم الصلاة.

٥- عباءات نسائية.

٦- قلابيات نسائية.

٧- طقوم التخوت.

٨- الصداري الرجالية.

٩- الزنانير الرجالية.

١٠- المتانات الرجالية.

هذه العائلات التي ذكرناها في صناعة الأغباني ومن أهمها عائلة طباخة ورثت هذه الحرفة أباً عن جد، وهي تسكن في الدقاقين نزلة البزورية ناصيف باشا أي في دمشق القديمة. ومن الجدود المعروفة في هذه الحرفة السيد محمد حمدي طباخة. وهناك خان في المحلة نفسها تسمى باسم هذه العائلة هو خان طباخة في حارة الإصلاح، ومن الأحداث التي تروى عن هذه العائلة أنه عندما كان الأغباني ينتج يدوياً فقد كانت هناك امرأة تدعى زهرية طباخة أثّر العمل على يدها من العمل على الطارة فالتهبت أعصاب يدها مما اضطرها إلى عمل مداخلة جراحية في يدها أوائل القرن العشرين. وتعلمت النساء في العائلة العمل على الطارة منذ القديم. ويقال أن اسم عائلة طباخة كان (أصفر) وانتقلت الكنية إلى طباخة من خلال طبخهم للذهب الذي تستعمل خيوطه في زركشة الأغباني الثمين، وذلك منذ ما يقارب (٢٠٠) سنة. ولا بأس أن نضيف أن الأغباني يزركش بالقصب والذهب.

٦- الدلالات الشعبية والأسطورية في هذه الحرفة:

نوهنا عن بعض الدلالات الشعبية من خلال الحديث عن حرفة (نقش الأغباني) التي فصلتها عن الحرفة خاصة حول مرموزات النقوش الأغبانية القديمة.

وهناك بعض الأمثال التي تقال أثناء العمل في التطريز وغيره. ومن هذه الأمثال التي لها دلالات عديدة اجتماعية ونفسية، هذه الأمثال:

١- حط كركر، وقيم كركر والعترة عالمشحر:

مثل يدل في خلفياته على أن هذا العمل الذي تقوم به العاملة على الآلة لا يجدي كثيراً، بل يبقى الإنسان على حاله فلا يحسن العمل من معيشته.

٢- بالبلد ما لها تاني والعباية أغباني:

مثل للسخرية من بعض النساء اللاتي يرتدين الأغباني وهن لسن أهلاً لهذا النوع من القماش إما لبشاعتهن أو لسوء سلوكهن، ولكن لأنهن يملكن المال فيستطعن شراء هذه الملابس.

٣- اللفة أغبانية والجراب ما في مصرية:

هذا المثل يشبه المثل الذي يقول (شروال مالو دكتو بأربعين) وهو يتهكم بمن يحاول تقليد الآخرين ولا استطاعة لديه على ذلك. فيصبح محل سخرية الآخرين، وفي الوقت نفسه يقدم المثل حكمة وموعظة للناس كي لا يختاروا هذا الأسلوب السيء في الحياة.

٧- هذه الحرفة اليوم:

يلاحظ بأن حرفة الأغباني تتطور إلى الأفضل ولو أنها تمشي ببطء حيث أن وارثي علمها يحافظون عليها جيداً، وهم يعلمون أولادهم أسرارها، ودقائقها، وروحها. وهي حرفة رائجة وقد وصل صيتها إلى مناطق عديدة في العالم، واشتهر هذا القماش الدمشقي شهرة عالمية، وفي مكان بيعه في دمشق أكثر من ثلاثين متجراً لا يبيعون إلا الأغباني، وهم في الوقت نفسه الذين يصنعونه وينتجونه. حرفة المحافظة عليها، وتنميتها بمثابة المحافظة على العين، فهي تراثنا الحرفي الخالد العظيم الذي يحمل أصالتنا، وعراقتنا وروحنا.

حرفة طبع الأغباني

نقوش وسحر وانسياب

١- يتعالى النقش من عوالم مختلفة. يختلط فيه الزمان بالمكان، والثبات بالحركة، والاحتدام بالسكون، وكل هذا محاكاة للواقع، واستشراف للغائب، وللصورة غير المعروفة. نقش يمثل الجمال بما فيه، وبما يعطيه وبما يحلم أن يعطيه للرائي والمتبصر، فيخرج هذا الناظر مسكوناً بالجمال. يتباهى النقش أمام أقرانه، والناظرين إليه متخايلاً زهواً. تبهر العريشة وتدهش فكأنما هي ملأى بحملها، وترغب أن تعطي حتى الامتلاء. وهكذا بقية النقوش بعلاقتها مع الطبيعة ومع الحلم، والناس، والمرتدي. هي رؤيا في الليل والنهار، ورؤى حالمة كأنها خيالات، ورسوم من عوالم مجهولة لنا.

يرتسم النقش على الصدر فيتوهج، وعلى الخصر فيلمع، وعلى الزند فيتألق، وعلى الرأس فيشمخ روعة، وعلى الكتف فيرتفع ابتهالاً وحنيناً.

هو النقش الأغباني العريق رحلة في أعماق الإنسان والوجود تأخذنا عبره حتى اللا نهاية.

٢- المواد المستعملة في هذه الحرفة:

لكل حرفة موادها الخاصة بها التي لا يمكن لها أن تسير دونها، إذ أن هذه المواد تكوّن بنيتها الأساسية، وهي العامل الرئيسي في إظهارها إلى الوجود.

وفي مثل هذه الحرفة نجد هذه المواد:

١- **الكتيرة:** وهي مادة معروفة تشارك في عمليات الصباغة والطبع، وعملها الفرز.

٢- **الزنك:** وهو المعدن المعروف حيث يخلط مع النيلة ليشكل الصبغة المطلوبة، ومقداره حسبما يقدر الصانع لطبعة أو نقش ما، وهو من ألوان متعددة.

٣- **النيلة:** وهي النيلة المعروفة بشكلها ولونها النيلي، وتكون إما قوالب معدة لهذا الغرض أو معبأة بأكياس كبيرة.

٤- **الماء العادي:** كل هذه المواد تكوّن مادة الطباعة التي تدبغ القماش المطلوب طبعه.

٣- الآلات المستعملة في هذه الصناعة:

هناك أدوات كثيرة تستعمل لتستكمل هذه الصنعة مقومات وجودها، وتشكل في مجموعها طاقماً للعمل، وهي أدوات بسيطة في تكوينها عدا القوالب المعينة.

ويمكن لنا أن نذكر هذه الأدوات فيما يلي:

١- **اصطمبا:** وهي الطابعة الرئيسية وهي قالب من خشب السنديان.

٢- **طاولة مستطيلة:** وعملها: مد القماش عليها بهدوء وتأن، واستقامة كي لا (يتجعلك) أو (يكرنش) وهناك عدة طاولات بقدر المعلمين الموجودين، وهذه الطاولة ترتفع عن الأرض حوالي (٤٠) سم كي يعمل المعلم عليها وهو في وضعية الجلوس.

٣- **الفرشاة:** وهي الأداة الرئيسية لرش مادة الطباعة على قطعة القماش الموضوعة فوق الطبق.

٤- **طبق:** وهو من التنك أو الألمنيوم توضع فيه مادة الطباعة.

٥- **قطعة قماش** من الشاش توضع فوق الطبق لامتصاص المادة الصباغية.

٦- **القوالب الطباعية الأساسية:** وهي مجسمات من الخشب- السنديان ويقال إنها ذات أصل هندي- تصنع إلى الآن عند حفار الخشب وأحد صانعيها هو النجار المشهور: أبو زياد المرابط- وهو دمشقي محله في الجسر الأبيض في

دمشق. وهو من صناع قليلين في دمشق يعملون في صناعة هذه القوالب، وهي تحفر يدوياً وتصنع من خشب السنديان لمتانته وقوته.

وهذه هي القوالب المنوه عنها:

١- ضاما.

٢- أخو الحجب: ودلالته على الحجاب وهو الرقبة.

٣- سلطعان: وهو السرطان البحري.

٤- سقف القاعة: ومن الاسم تحدد الدلالة وتشير إلى زخرفة تشبه زخرفة سقف القاعة في البيوت القديمة.

٥- العريشة: وهي الدالية ودائماً تطبع على محيط القماش.

٦- الفلة: وهو نقش زهرة الفلة.

٧- دعسة الجمل: وهو نقش يشبه دعسة الجمل، ولهذا النقش عدة أسماء أخرى هي: شنبات الشايب، والشيخ حسن.

٨- بقلاوة: وهي أكلة الحلو المشهورة، فيكون الطبع على صورة قطعة البقلاوة.

٩- البحرة: وهي على شكل الرقعة التي تبنى في باحات الدور القديمة وتملأ بالماء وتسمى البحرة.

١٠- عرق الورد: وهذا النقش يمثل وروداً مختلفة، وأزهاراً كثيرة كالجوري، والقرنفل، والياسمين، والنرجس، والآه يا أنا، والأقحوان، والبنفسج وغيرها.

١١- فراشة: وهو نقش على شكل الفراشة المعروفة ويدعى أيضاً رسمة الحلبي.

١٢- أرزة: وهو نقش على شكل شجرة الأرز ويدعى شجرة الميلاد.

١٣- شمعة: رسم على شكل شمعة عادية.

٤- آلية العمل:

يؤتى بقماش حريري أو قطني يسمى: (الدولس) ألوانه مختلفة ومتنوعة، والغالب على الألوان هو اللون الأبيض، أو يسمى القماش أوركندي، وهو من الحرير الخفيف، ففي المرحلة الأولى يقص هذا القماش حسب الطلب بأطوال مختلفة، ويكون القص بواسطة المقص العادي، أما المرحلة الثانية، فهي الدرز على محيط القماش، والدرز عادة بواسطة اليد -درز يدوي- وبعد الانتهاء من عملية الدرز تبدأ المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الطبع، وفي بيت المعلم أو مكان العمل نجد عدة طاولات حيث يجلس كل معلم وراء طاولة وأمامه الطبق المملوء بمواد الطباعة. يمد المعلم أولاً أمامه قطعة القماش المطلوبة، ويشدها شداً محكماً ثم يبدأ (بغط) القالب المعين فوق قطعة الشاش التي تمتص المزيج الطباعي ثم يبدأ بطبع القماش ضمن أشكال هندسية معينة، ويرش القماش أو يطلسه كله، فيظهر النقش واضحاً فوق القماش حسب الطلب والشكل الهندسي المعين.

وينتج معلم الطبع المبدع في هذه الحرفة خمسين قطعة قماش أغباني بأطوال مختلفة في اليوم الواحد، وتلزم سنة من الزمن لإتقان هذه الحرفة.

أما استعمالات هذا القماش في وقتنا الحاضر فلها مناح متعددة فهي للطاولات في المطاعم الغالية، وتستعمل لسجادات الصلاة الثمينة أو للجلائل المنزلية، وللفساتين، والأثواب، وللزنانير الرجالية، والشالات النسائية، والرجالية، ولطقوم الصلاة النسائية عند الأثرياء، وللّفات الأغبانية، والبشاكير، والمناشف ،ونلفت النظر بأن هذه الصنعة أو الحرفة هي المقدمة لصناعة القماش الأغباني أي التطريز على القماش لتصبح القطعة أغبانية، حيث أن المطرزة قديماً كان يأتيها القماش مطبوعاً لتبدأ تطريزها عليه أو هي كانت تبدع أشكالاً لنفسها ولكنها يجب أن تسلمها للطباع كي يطبعها، حيث أن شكل الطبع لا ينزع من مكانه

بل يطبع على القماش، ولا يذهب عنه. وهذه الحرفة قديمة جداً في بلادنا فهي من حرفنا العريقة.

٥- الدلالات الأسطورية والشعبية في هذه الحرفة:

مثلما كل حرفة أثناء العمل لابد للعامل أن يسلي نفسه إما بأغنية أو بمثل شعبي أو بموال إبراهيمي وأكيد أن لهذه الدلالات والأغاني علاقة ما بالصنعة، وبالصانع بالدرجة الثانية من حيث العمل، والخلفية الاجتماعية له، وثم الخلفيات الأسطورية والشعبية العريقة بالقدم. ولقد استطعت جمع بعض هذه الأمثال الشعبية التي تقال أثناء العمل كي تطرح للفائدة والتجربة والحكمة، ومن هذه الأمثال:

١- **طباع وطباع وخود رباع:** مثل يحث على العمل والصبر عليه حتى يحصل العامل والمعلم على نقود أكثر حيث أن (الرباع) جمع ربع وكان يطلق قديماً على (ربع المجيدي).

٢- **طباع يا طباع واستنى الرباع:** وهو مثل حكمي وحكمته تشير إلى أنك أيها الطباع تعمل وتشتغل ولكنك لا تدري ماذا يأتيك فقد تأتيك الرباع أو لا تأتي.

٣- **يا ناقش نقش الفلة كل شغلة والها علة:** أيها العامل في الطبع والنقش كن عارفاً أنه لولا عملك لا يمكن لهذا القماش أن يبرز ويظهر بهذا الجمال خاصة هذا النقش الجميل نقش الفلة، والفل معروف برائحته العبقة، ولونه الرائع. وهذه الحكمة التي أصبحت بديهية عند الشعب يؤكدها هذا المثل، وأي أن لكل شيء سبب معين.

أما المصطلحات الشعبية التي تأتي على ألسنة العاملين فقد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حديث العمال اليومي، وقد وردت على ألسنة العاملين في هذه الحرفة بعض تلك المصطلحات ومنها:

١- **لا تطبع وتلحش من ورا ضهرك**: وهذا المصطلح يدل على تحذير المعلم، والصانع من العمل دون اعتناء، وحرص كي لا يضعف عمله، ويظل على مستوى معين من القيمة وكي يحافظ على سمعته في السوق. ومعناه لا ترم عملك وكأنه شيء ثانوي بل حافظ عليه ليحافظ عليك.

أما الأغاني الشعبية التي سمعنا بعضها من أفواه بعض العاملين، فهذه الردة من دلعونا:

كمـل الطبعـة كمـل الطبعـة	فلـة وعريـشة والبـاقي نبعـة
وضـاما وبقـلاوة وطلـع لـك طلعة	خيـي يـا محمـد يـا نـور عيونـا

نجد في هذه الدلعونا أشكال بعض النقوش في صناعة طبع الأغباني ومنها الفلة والعريشة والضاما، وهي تحث على إكمال العمل، واستمراره، وعدم التهاون به، وفيها حب وحميمية وجمال، فالصديق العامل هو نور العيون والأخ. وهكذا وجدنا في هذه الصناعة- الحرفة عدة أنواع من التراث حلّت هذا العمل، وجملته وتعايشت معه.

٦- هذه الصناعة اليوم:

هذه الحرفة العريقة في القدم التي تعود إلى أزمان سحيقة هي من صناعات، وحرف بلادنا الجميلة التي أصبحت نادرة بل أوشكت على الزوال.

كانت هذه الحرفة رائجة في القرون الخوالي واستمرت حتى العشرينيات من هذا القرن، ولكن غلاء هذا النوع من القماش أي الأغباني وتكلفته أفقده طابعه الجماهيري وأصبح للقلة من الناس، ولم تعد هناك إمكانية مادية عند أكثرية الناس للشراء.

ولم تبق في أيامنا إلا ورشات قليلة لطباعة قماش الأغباني حيث أننا نجد في مدينة دمشق ورشات لا تربو على أصابع اليد، وهناك في دوما ورشة مع أنه

كان فيها أكثر من خمس ورشات لشهرتها بصناعة الأغباني. وصاحب ورشة دوما هو المعلم قاسم الحنفي[1]، وعنده ورشة مؤلفة من حوالي أربعة معلمين وأربعة عمال، وهو معلم دؤوب متمكن من صنعته.

وحول إمكانية متابعة العمل وتطوير هذه الحرفة كي تعود إلى سابق عهدها يجب التعاون بين هيئات كثيرة أهمها وزارة التعليم ووزارة السياحة والاتحاد العام للجمعيات الحرفية والبلديات والكتاب، كي لا تذهب هذه الحرفة كما ذهب غيرها من حرفنا الجميلة.

صناعة الأنوال الخشبية اليدوية

يضرب في أعماق التاريخ جذراً لا نهائياً. هو النول يمتد ويخترق. تتسامق الأيدي المبدعة مكونة شجرة مخصبة ففي كل مدينة عطاء، وانتشاء. تتسامر اليد مع الدفة والحدفة، وترقص مع القاعدة والزاوية. فعندما يطرب النوال يبدع المبهر والمعجز ويخلق لحن الأزياء الخالدة. هي يد الإنسان المكونة الرشيقة. ويبقى النول مغنياً يغني الحياة، والزمن في استمراريته، وسكونه من الماضي مروراً بالحاضر، وحتى اللا نهاية. يسكب في الأرض صوتاً حاراً يعيش في وجداننا، ويسمر معنا. ينقش اسمه في الأسواق، والبيوت، والحارات الشعبية، ويرتسم في الجدران، والثياب، والحكايات، والأغنيات هو النول عمر إنساني متدرج. يتراشق مع غيره من الأنوال أسهماً، وحروفاً ملونة تضيء مساءات البيوت، ولياليها، وينثر حكايات لا تغيب ويمد حبالاً مستقيمة مع المواسم والفصول. يغوي، ويغوي في تظرف إنساني تاريخي. يعالي في أنشودته الأشياء فيهمس لحناً وراء لحن، ويرسم صورة وراء صورة في خيال لا يحد، ويدور في الصباحات

---

(١) الراوي: قاسم الحنفي- من دوما- صناعة طبع الأغباني- حي.

مرسلاً أبجدية خاصة للأزياء ملازمة للواقع والبيئة. يقترن مع الخصب، يتغاوى نبعاً لا ينضب، وعرساً لفرح دائم. وتبقى الأيدي الماهرة ترسله تكويناً ساحراً لفرح الإنسان الرائع.

٢- النول تاريخياً:

النول اليدوي قديم تضرب جذوره في تاريخ بلادنا عبر أزمان ممتدة فمنذ بداية معرفة الإنسان للثياب الصوفية، والحريرية، وتطورها بدأت حكاية النول لتصنع هذا الصوف وهذا الحرير ومعاملتهما بعد غزل خيوطهما على الدولاب والمغزل. وكم حاكت الأيدي الشعبية الماهرة ونسجت على النول الخشبي اليدوي القديم الذي سمي بالعربي.

صنع النول في دمشق منذ القديم وبعض المدن السورية الأخرى مثل حلب، وحمص، ولكن صناعته الحقيقية كانت في دمشق.

وصانع الأنوال نجار خاص رغم أن أي نجار يستطيع تصنيع النول.

وكان يلزم لهذه الحرفة معلم وثلاثة عمال. وهناك عائلات خاصة بدمشق اشتهرت بهذه الحرفة وهم آل النويلاتي الذين كانوا يصنعون الأنوال الخشبية اليدوية. أما مدة إتقان الصناعة فكانت حوالي من (٨-١٠) سنوات وقد صنع النول من عدة أنواع من الخشب هي: الزان- المشمش- الجوز- السنديان.

ولكل قسم من النول خشب خاص به تبعاً لعمل هذا القسم فمثلاً المكوك يصنع من خشب السنديان، والدفة من المشمش، والمطواية من المشمش، وبقية القطع من الجوز، وكانت هذه الأنوال تصنع في حي مأذنة الشحم بدمشق. ومدة تصنيع النول الواحد من عشرين يوماً إلى شهر. وتطور النول منذ صناعته الأولى من الأبسط إلى الأعقد، وقد توقفت صناعة الأنوال كحرفة منذ ثلاثين سنة تقريباً. أي منذ دخول الأنوال الآلية بكثرة إلى سوريا.

٣- أنواع الأنوال:

النول واحد ولكنه يقسم إلى أنواع، وأقسام حسب نوع الإنتاج الذي ينتجه أو الذي يصنع من أجله. لهذا يجب أن يقال لنجار الأنوال أن هذا النول لإنتاج كذا. إذ أن الأجزاء الرئيسية واحدة ولكن الذي يغير فيه لينقلب من نوع إلى نوع هو الدورة والشفرة والدوسات. فهناك نول بست دوسات ونول بأربع. ونول بدوستين. ومن أقسام الأنوال نذكر:

١- نول البسط.

٢- نول العبي.

٣- نول الآلاجا.

٤- نول المناديل.

٥- نول الصاية.

٦- نول البروكار.

٧- بتة وبندار.

٨- نول الشراشف.

٩- نول القنباز أو الطقم العربي.

٤- الأدوات التي تصنع بها الأنوال:

النول من الخشب عدا بعض الأجزاء البسيطة من الحديد. وهو من الخشب الخالص يفصّل حسب الطلب.

يصنع النول بواسطة الأدوات التالية:

١- المنشار اليدوي وهو نوعان كبير وصغير.

٢- المثقب وهو عدة أنواع تستعمل حسب الطلب في صناعة النول.

٣- بريم عربي.

٤- الفارة.

٥- السنبادج.

٦- المثقب الحديدي.

٧- مصب يدوي للرصاص.

٨- الشاكوش.

٩- الكماشة على عدة أنواع.

١٠- أسياخ رفيعة وثخينة.

١١- مبرد.

١٢- قدوم.

٥- آلية العمل:

يؤتى بدف الخشب الناشف جداً، والمبيس الذي لا تخالطه أدنى رطوبة وذلك كي يظل النول متيناً ويبدأ العمل بنشر هذا الدف بواسطة المنشار حسب السماكة المطلوبة لكل نوع على حدة. ثم ينتقل العمل إلى الفارة حيث تعالج القطعة المنشورة، وترتبها على المقياس المراد. وينتقل العمل إلى المثقب فيثقب القطعة حسب النوع اللازم. ثم يبدأ دور المبرد، لتسيق القطعة، وتنعيمها بشكل سليم وجيد. أما الأدوات الأخرى فتساعد حين الحاجة. وكل أداة لها وقتها، وضرورتها، واستعمالها الخاص بها.

٦- أقسام النول:

للنول أقسام عديدة نعددها فيما يلي:

١- الزيركون- المسند.

٢- مكاوي- للف القماش.

٣- أمكاك.

٤- مدارج.

٥- سوائط.

٦- دوسات.

٧- بكرات.

٨- زقازيق.

٩- قناديل.

١٠- بكرات جدّار.

١١- حبلة.

١٢- جلدة.

١٣- خيطان.

١٤- ثقل- أوزان.

١٥- سيخ حاشية.

١٦- مشط- لضب الخيوط.

١٧- جزرة- للف القماش.

١٨- الجحاش- لوزن الخيوط على وزن المشط.

١٩- الحوارس- لفرز الخيوط الزوجية عن الفردية وتنظيم خيوط السدى.

٢٠- النيارة.

٢١- الدرق لحفظ النيارة.

٢٢- ثقل النيارة لشد خيوط السدى إلى الأسفل.

٢٣- الشبكة في نول البروكار.

٢٤- ريشة الجاجة أو الفروة لعدم تشميط خيط الماسورة.

٢٥- المصفاة في نول البروكار- مصفاة السنانير.

٢٦- السلندر في نول البروكار اليدوي.

ولكل قسم من هذه الأقسام الكثيرة المكونة للنول عملها وبدونها يقف النول ولا يعمل فهي أشياء ضرورية ولازمة.

٧- المدلولات الأسطورية والشعبية في هذه الحرفة:

حرفة صناعة النول كأي حرفة أخرى دخلت موروثنا الشعبي وخاصة بين أوساط (النويلاتية) وقد لاحظنا وجودها في المثل الشعبي. إذ نتجت عنها وتناولتها عدة أمثال شعبية عبرت عن حيثيات عملها وحاجات هذا العمل وغير ذلك من أمورها. كما وجدت في بعض التشبيهات الشعبية. نذكر من هذا الأمثال:

١- **النوّال بتختخ عضامو ولسا إجريه ما قاموا:** مثل يوجز بتكثيف صعوبة عمل النويلاتي والجهد الذي يبذله في عمله، وكم يقدم من عرق وألم حتى يصنع النول. ومن معانيه البعيدة تقييم جهد الإنسان وبيان الصعوبات في الحرف.

٢- **النول فيه ألف حاجة وحاجة حتى ريشة الجاجة:** أقسام النول كثيرة جداً حتى أنه يحتاج لريشة الدجاجة ويضرب للمبالغة بالشيء ومراميه البعيدة، وحث الإنسان على التأني والبحث وطول الملاحظة حتى يقترب العمل من الكمال.

٣- **ظبوط الدفة والدوسة بتروح عنك المنحوسة:** أي أكمل العمل بشكل جيد وخاصة الدفة والدوسة وهما من أجزاء النول الهامة. يذهب نحسك وتذهب من أمامك السدود والأيام السوداء. ومن مراميه البعيدة إتقان العمل وعدم الاتكال.

٤- **يا متفنن بالنول الشغلة مو بالقول:** مثل يصر على وجوب اقتران القول بالعمل، وليس الاكتفاء بالحديث، وذلك في كل الأشياء، والمواقف، والأزمان، والأحداث.

أما في التشبيهات الشعبية فقد لاحظنا تشبيهات تخص هذه الحرفة ومنها:

١- **مثل نجار النول ما على كلامو قول:** وهو تشبيه يمس الإنسان الذي لا يصدق في كلامه أو مواعيده.

٨- هذه الصناعة اليوم:

تمر صناعة الأنوال اليوم بمحنة قاسية. فالعمل على النول الخشبي اليدوي أصبح نادراً وهو في سبيله إلى ندرة أكثر.

فإنتاج هذه الصناعة لم يعد يفي بتأمين المعيشة، والحاجات اليومية. وأخذ نجارو الأنوال ينتقلون الواحد تلو الآخر إلى أقسام أخرى من أعمال النجارة كالنجارة العربية والموزاييك وغيرها.

لقد دخلت الآلات الحديثة، والصناعة بلادنا حيث حل النول الآلي الذي ينتج الكثير من الأشكال، والأنواع النسيجية المختلفة في زمن أقل، وأصبح النول من الأشياء النادرة، والطريفة، وصرنا نشتهي هذا النسيج اليدوي وصوت النول الذي عاش في ذاكرتنا، ووجداننا مدة طويلة، وأحقاباً من الماضي البعيد.

هذه الصناعة الهامة تكاد تنتهي ويجب العمل على إنقاذها، وإعادة بعض أيامها لعلاقتها الحميمة معنا، ولقيمتها وقيمة إنتاجها. والعمل على تأمين بيع إنتاجها كي تقف على أقدامها، وتعاود إشراقها على أرض الوطن(١).

صناعة أدوات الأفران الخشبية والامتداد اللانهائي

يمتد حي العقيبة بعد نهاية ساروجا امتداداً يدخل الروح والوجدان، يمتد في عمق الذاكرة فيخترق الزمن ملوناً الحاضر بعطر الماضي ويتزركش بزخرفته الرائعة. وهكذا يعبق الجو بكل الأشياء الجميلة، ونعيش حالات من

---

(١) الرواة: أحمد النويلاتي- متوفى..

الفرح الإنساني. فهنا الحلواني وهناك المقشش وعلى امتدادها نلاحظ المنجد والبقال والفران وبائع السحلب والمخللاتي إلى آخر ما هنالك من دكاكين، ومخازن، وغيرها. ويدخل العقيبة بتفرعاته في صميمنا، وفي صميم دمشق، ونسيجها خالقاً احتفالية من الفرح، والغناء لا مثيل لها كلما لامست أقدامنا حجارته ونظرت عيوننا إلى بيوته، ومساجده، وعلى امتداد حمام العمري إلى الشرق منه قليلاً يجلس أبو عادل أمام منشرته في العصريات ومقابل مزار العمري تقريباً يجلس على كرسيه الخشبي ناظراً إلى الأمام ولامساً الزمن حتى جوانيته العتيقة عائداً إلى ما قبل ستين سنة من عمره وهو في أوج نشاطه. يضع كفه على خده، والبسمة لا تفارق وجهه. يغرف الزمن غرفاً داخلاً في عنكبوت الحي العتيق، يرمي في كل ثانية كلمة عذبة نهيم بها وتحرك كوامننا. زمن يتابع زمناً ومنشرة أبي عادل تعانق حي العقيبة أما أيادي الكريكات فتمسك بأيدينا مرفوعة تعانق السماء، يمتد العقيبة بكل سحره وعبقه ويمتد معه أبو عادل حاملاً في وجدانه حرفته وتاريخه حاملاً فرادة الحرفة الدمشقية الممتدة من أعماق التاريخ حتى الآن.

بعد هذه المقدمة، نتحدث عن أحد أشكال حرفة النجارة وهي حرفة صناعة أدوات التنانير والأفران وهي الكريكات الخشبية.

٢- مواد هذه الحرفة:

تحتاج هذه الحرفة إلى عدة مواد أولية لإنتاج الكريكات الخشبية وهي:

١- الخشب: وهو من خشب الحور الرومي حصراً وهذا لصناعة الدفة. أما صناعة اليد فيلزمها خشب الصفصاف.

٢- الغراء: وهو الغراء الأحمر المصنع من الجلد.

٣- مسامير خشبية: ويسمى المسمار الواحد (بيّور) وطول البيّور (٢٥) سم وسماكته (٨) مم.

٤- معجون من نشارة الخشب الناعمة والغراء: لملء الفراغات ما بين الدفة والعصا.

٥- ورق زجاج: ويستعمل لتنعيم الدفة واليد ليسهل العمل بهما وكلما ازداد العمل بورق الزجاج نعم الملمس أكثر.

٣- الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:

تستعمل في عمل هذه الحرفة عدة أدوات كل أداة لها عمل ما يحركها المعلم حسب ما يريد، وحسب متطلبات الحرفة.

١- الفارة: وهي لتسوية قطع الخشب المطلوبة.

٢- شاكوش: وتستعمل لأشياء كثيرة أهمها تطريق المسامير الخشبية والفولاذية.

٣- كماشة: وتستعمل لسحب بعض المسامير الناشزة أو لطرقها.

٤- مثقب يدوي: لحفر بعض الثقوب المطلوبة في الدفة.

٥- مبرد خشابي: وهو مبرد خاص بالخشب لتخليص اليد، والدفة من الأشياء الزائدة.

٦- قوس ومثقب على القشاط: أي مثقب يعمل على القشاط لدقة الثقب.

٧- منشار خاص: وهو منشار خاص بهذا العمل يختلف عن المناشير الأخرى بعدة مواصفات منها أن له عارضة خشبية صغيرة.

٤- آلية العمل:

يبدأ العمل بإحضار الخشب اللازم، ويؤتى به إما من البساتين حيث يقطع الحور والصفصاف. وهذا يلزمه تشيف في الشمس إذ يترك ليجف مدة سنة كاملة. بعد هذا العمل تقطع الأخشاب بواسطة المنشار، ويقطع الخشب بسماكة (٤) سم.

والكريك هو عبارة عن قطعتين هما:

١- الدفة.

٢- اليد.

وهناك نوعان من الكريكات:

١- كريك الصفيحة.

٢- كريك الصاج.

ونبدأ من:

١- كريك الصفيحة: والصفيحة هي الأكلة المعروفة، والمكونة من اللحم والعجين.

أطواله: الكريك مع اليد يتراوح طوله من (١,٥-٣) أمتار.

دفته: (٦٠) سم.

طول بعرض: (٢٥) سم. وفي الدفة فتحة في منتصفها لإدخال اليد فيها.

سماكة اليد: من (٣-٣,٥) سم وهي مضلعة الشكل.

سماكة الدفة: من (٠,٥-١,٥) سم.

٢- كريك الصاج:

أطواله: الطول الكامل (٢,٥) متراً.

طول اليد: متران.

طول الدفة: (٦٠) سم.

عرض الدفة: (٢٠) سم.

سماكة الدفة: من (٢-٣) سم.

واليد عادة تكون من خشب الصفصاف وذلك لمتانته، وقوته.

ونعود إلى آلية العمل وكيفية التصنيع بعد توصيف الكريك:

بعد أن تنشر قطع الخشب إلى الأطوال المطلوبة تحضر الدفة واليد حسب طوليهما، وتثقب الدفة في منتصفها بواسطة المثقب لإدخال اليد فيها أو تدكيكها وقبل التدكيك تنعم الدفة بورق الزجاج لتصبح ناعمة الملمس، وسهلة الحمل. ثم يأتي التدكيك وبعده تغرّى الدفة بغراء أحمر يصنع من الجلد، وينشف الغراء خلال يوم واحد، ويتطلب الكريك الواحد (٢٥) غراماً من الغراء. أما تثبيت الدفة باليد فيتم بواسطة مسامير خشبية (بيايير) وطول البيّور (٢٥) سم وسماكته (٨) مم.

وآخر عمليات التصنيع تأتي عملية (التحشاية) وهي إملاء الفراغات ما بين الدفة واليد بمعجونة مكونة من نشارة الخشب الناعمة جداً، والغراء. ويترك المزيج عدة ساعات ليجف على الكريك.

٥- الدلالات التراثية الشعبية:

لقلة عدد العاملين في هذه الحرفة إذ لا تحتاج لأكثر من عاملين على الأغلب تقل الدلالات فيها إلى الحد الأدنى. حيث يغني العامل وحده بعض الأغنيات الخاصة.

ولكننا لاحظنا أن هناك بعض الأمثال الشعبية يتناولها الشغيلة أثناء العمل وهي تخص هذا العمل آخذة تجاريه بعين الاعتبار ومنها :

١- بين الدفة والدفة بتيبس الشفة:

يدل هذا المثل على أن العامل يتعب كثيراً حتى تصبح دفة الكريك جاهزة حتى أن شفته تتيبس. ولكن لهذا المثل خلفية اجتماعية ودلالة أخرى وهي أنه يجب على الإنسان أن يتعب كثيراً، ويعاني حتى ينال جزاء عمله.

٢- خود دفة لهون ودفة لهون وشوف الشغل شلون:

ويدل هذا المثل على قيمة الحركة، والنشاط كي يظهر العمل بأجمل تجلياته. ويدل على عمل الإنسان الحرفي اليومي لزيادة إنتاجه وبالتالي تعمم معانيه على جميع شؤون الحياة.

٣- وقت ضرب البيّور لا تكون زيّور:

ويشير المثل على أن الشدة لا تنفع في موقع اللين فالبيّور وهو المسمار الخشبي ليّن فإذا ضرب بشدة قد يكسر لذا فيحتاج اللين في المعاملة، وكذلك يدل هذا المثل في خلفيته على أن كل عمل يجب أن يعامل دون تسرع، وتهور وزفرة كي نصل إلى النتيجة المثلى.

٤- الكريك بدو ايد لا تكون عنيد:

يدل هذا المثل على أنه يجب على الإنسان أن لا يكون عنيداً خاصة في المسائل الواضحة، والبديهية. فالكريك يحتاج ليد واحدة وليس أكثر ويأتي أحياناً من يقول أنه يلزمه أكثر من يد. وينطبق هذا المثل على الكثير من القضايا التي لايلزمها تشبث بالخطأ.

وهكذا توضح لنا من خلال هذه الأمثال كم أثرت هذه الحرفة وتأثرت بمسيرة الإنسان خلال حياته من خلال وجدانه الجمعي وعمله.

٦- هذه الحرفة اليوم:

بقيت هذه الحرفة حية ونشطة إلى ما قبل ثلاثين سنة من الآن تقريباً، وكان في دمشق عشرات المناشر عملها تصنيع الكريكات فقط، تنتشر في المدينة القديمة. وذلك لسوقها الرائجة ولانتشار مئات التنانير، والأفران والحاجة إلى الكريكات أما بعد انتشار الأفران الآلية فقد قلت الحاجة إلى الكريكات. وهكذا أغلق الحرفيون المختصون بها محلاتهم وعملوا في اختصاصات أخرى من تنويعات حرفة النجارة.

وبقي القليل من الحرفيين محافظين على عملهم رغم قلة العطاء. وهم مصرون، ومتمسكون بحرفتهم حريصون على الإبقاء عليها.

وأصبحت هذه الحرفة شبه ميتة وهي في طريقها إلى الاندثار.

وممن أصر على هذه الصنعة الحرفي محمد سرغايا من مواليد ١٩٢٣ ويكنى بأبي عادل ومحله في حي العقيبة بالقرب من حمام العمري ووالده أمين سرغايا كان يعمل نجاراً عربياً. ويعمل أبو عادل في الحرفة منذ (٦٠) عاماً وقد تعلم الحرفة عند خاله حسن سرغايا. وقد علم أبو عادل الحرفة لأولاده، ولكنهم تركوها عندما أصبحت شبه ميتة.

والآن لم يبق في دمشق سوى (٥) محلات لإنتاج الكريكات للأفران والتناينر.

قديماً كانت الورشة تنتج من (٥-٨) كريكات في اليوم الواحد وأحياناً (١٠) كريكات.

أما الآن فلا تنتج سوى كريك واحد حتى كريكين بالأكثر.

قديماً كان ثمن الكريك (٥) ليرات سورية.

ويلزم حالياً عناية الدولة حتى لا تفقد هذه الحرفة وتضيع في مجاهل النسيان(١).

أدوات الطعام الخشبية

في كل الفصول وخلال النهارات والمساءات اليومية كانت تتراءى الخشبيات المتنوعة. فكم لونت من أكلة جماعية صباحية. ورسمت في الذاكرة من علاقات إنسانية. فها هي الملاعق في حركة دائبة. ومن بعيد ترنو مدقة الكبة في انتظار اليد الحانية. أما الشُوَكُ فهي معلقة على الحامل في تكوين جميل. وهنا وهناك تتناثر الأشياء وديعة هادئة. وتتتابع تكوين إثر تكوين. فهنا اختراق للواقع. وهناك كمون واستفسار. وفي زاوية بعيدة يرنو جرن القهوة ناظراً عبر الزمن إلى تاريخ الإنسان. وفي حامل آخر تركز مدقة الثوم معلقة بخيط ثخين. وتتتابع الأمكنة،

---

(١) الراوي: محمد بن أمين سرغايا- العقيبة- العمري- مواليد ١٩٢٣- حي.

ففي المطابخ تشكيل من الخشبيات متناغم مع الأشياء الأخرى يترنم بأغنية الأيدي الخالقة. فهو لوحة تجن فيها الحياة، والحركة وتتراتب الأحاديث والحكايات والقصص اليومية. هو الآن والماضي، والآتي في علاقات منفتحة متشابكة كالنسيج المطرز لورد ربيعي جبلي. وتتهامس الخشبيات فيما بينها. فالكبجاية تهمس للكفكير، والمهباج يهمس للمدقة. والملعقة تهمس للشوكة. ويشكل الهمس لحناً راقصاً متجانساً. وعلى الجدران تخط أحرف، وكلمات بحبر الفصول التي لا تنتهي. وتبقى الأيدي الخالقة معطاءة لا تتوقف عن العمل المبدع.

٢- أدوات العمل:

كان لأدوات الطعام الخشبية نجار خاص. ليس كالنجار العادي. بل هو نجار مبدع فنان. أبدع أشياء غير موجودة في الحياة استدعتها الضرورة، وكونتها التجربة. وقد احتاج لأدوات عمل وعدة ليتم إبداع هذه الأشياء. وهي أدوات متنوعة نبينها فيما يلي:

١- الفارة الخشبية + فارة (سنان) خشبي.

٢- الرابوب اليدوي الخشبي (فارة كبيرة).

٣- الجراحة- وهي للنقش.

٤- ريشُ الحفر: وهي حوالي عشرين نوعاً. تختلف بالأحجام والأشكال. فهي إما عريضة أو رقيقة أو مبوزة. ولكل ريشة اسم مختلف عن الآخر فمنها:

١- المفصل.

٢- المنقار.

٣- الإزميل.

٤- اليكرد.

٥- مبارد يدوية منوعة منها الخشن ومنها الناعم.

٦- مقشطة.

٧- المنشار + (سراق).

٨- قدوم.

٩- الدريل (مثقب).

١٠- مخرطة يدوية بواسطة الحبل.

١١- مثقب يدوي.

١٢- ملزمة أو مقمط.

١٣- ضظضبان (فارة جنب).

١٤- سنبادج.

ولكل من هذه الأدوات عمل يختلف عن الآخر، ويتداخل معه. أما نوع الخشب الذي تصنع منه أدوات الطعام فهو عدة أنواع أهمها:

١- البطم. ٢- الجوز. ٣- الزعرور.

٣- آلية العمل:

لصنع أية أداة من أدوات الطعام يلزم زمن معين، ومكان معين، والخشب الذي يتفق عليه. ويبدأ العمل بشكل عام بأن ينشر المنشار الخشب ثم ينتقل العمل للقدوم لتنظيم القطعة أو الكتلة الخشبية. ويبدأ عمل المبرد الخشن. بعدئذ إلى المخرطة اليدوية لتنظيم الكتلة وتنعيمها. وبعد أن تتحول إلى القطعة المطلوبة ينتقل العمل إلى آلات الحفر المعينة لتحويل الكتلة نهائياً إلى الشكل المراد. ويأتي دور المبرد الناعم إذ يستلم الكتلة في طورها الأخير، وينعمها ويختبر التنعيم براحة اليد. ويختلف الزمن اللازم لكل أداة على حدة. فإذا أخذنا مدقة الكبة مثالاً نلاحظ أنه تلزمها ثلاث ساعات من العمل الجاد، وكانت تباع بنصف ليرة سورية. بينما الآن يلزمها نصف ساعة عمل على الآلات وتباع بخمسين ليرة.

وكان يكفي لمنشرة الخشب قديماً عاملان أو ثلاثة عمال للعمل اليومي عدا المعلم الرئيسي. أما إتقان هذه الحرفة في الماضي فكان يحتاج إلى ثمان سنين تقريباً حتى يسمى الصانع معلماً. ومنشرة الأدوات الخشبية عادة أصغر حجماً من المنشرة العادية. وهذه الحرفة كانت موجودة في الريف، والمدينة عامة.

٤- أدوات الطعام الخشبية:

تتوعت أدوات الطعام الخشبية، وتطورت على مر السنين. وأخذت أشكالاً، وأنواعاً مختلفة، طالت جميع نواحي الحياة وعلاقاتها اليومية. وانسجمت مع متنوعات الطعام وحيثيات حاجاته. وعمل بهذه الأدوات منذ مئات السنين حسب اكتشاف الأكلات والزراعة، وبعد اكتشاف النار، وارتقاء الإنسان حضارياً من طور إلى طور آخر. ولقد أحصينا أهم أدوات الطعام الخشبية فكانت كما يلي:

١- الملاعق.

٢- القوالب الخشبية لاستعمالات عديدة مثل المعمول والكعك وغيره.

٣- مدقات الحمص.

٤- مدقات الكبة. وهي لأكلة الكبة حصراً.

٥- مدقات الثوم.

٦- الكفاكير.

٧- الشوكات.

٨- الكباجي (جمع كبجاية) لسكب الطعام.

٩- القُدور والنعارات.

١٠- البراميل.

١١- أجران القهوة.

١٢- أدوات الوزن مثل المُد ونصف المُد والربعية والثمنية.

١٣- هاون خشبي.

وكان مكان هذه الأدوات سابقاً (غرفة المؤونة) أو المطبخ. وبعضها مثل جرن القهوة مكانه (المنزول) أو غرفة الجلوس. أما أشكال هذه الأدوات وأحجامها فقد انسجمت مع ضرورة استعمالها وكيفية هذا الاستعمال وطريقته. ولنوع الحاجة إليها. وخاصة في أسلوب مسكها. وانسجمت كذلك مع اليد الإنسانية التي تحرك بواسطتها.

٥- الدلالات الأسطورية والشعبية في هذه الحرفة:

دخلت أدوات الطعام الخشبية صميم حياتنا اليومية فلونتها وعاشت فيها وفي أعماقها، وقد عبرت بشكل ما عن آمال وأحلام الإنسان ومثلت واقعه، وصراعاته، وعلاقاته. إن كان في شكلها أو حجمها. وكانت صورة حية عن واقعه. وإذا أخذنا جرن القهوة مثلاً على ذلك، فجرن الغني مطعم بالفضة أو الصدف، وعليه نقوش عديدة تمثل واقعه. بينما جرن الفقير فهو جرن عادي عليه بعض النقوش التي تمثل الواقع الذي يعيشه. وقد وجدت على أدوات الطعام نقوش عديدة مثل الأشكال الهندسية المترابطة كالمثلث على محيط القُدور والمواعين، وما يرمز إليه من معان أسطورية لأسطورة الخلق عبر إشارات الخصب. وهناك الخطوط الهندسية والمعينات، وبعض أشكال الحيوانات على أجران القهوة. أما في موروثنا الأدبي الشعبي فقد وجدت أدوات الطعام وأدوات العمل في الكثير من أقسام هذا الموروث. فكانت في الأمثال الشعبية، وفي التشابيه، والحكايات، وفي أغاني الأطفال.

١- في الأمثال الشعبية:

١- القدرة عيرت النعارة قالتلا جيت أنا وياك عفرد حمارة:

مثل إنساني يعني أن الناس كلهم متساوون. وهم مثل بعضهم ويشبهون بعضهم مثلما تشابه القدرة النعارة. فلماذا الغرور عند البعض، والكبرياء عند الآخرين.

٢- معلقة وشوكة وعيشة مجعوكة:

مثل يشرح واقع بائس لإنسان متعب وفقير.

٣- قدرة ولقت غطاها:

٤- حطو الحزن بالجرن:

مثل يدل على أن المبالغة بالحزن صفة سيئة.

٥- اضرب بالقدوم بتاكل وبتدوم:

مثل يرمز على أن إتقان حرفة ما والعمل فيها يساعد على استمرار الحياة ويقي الإنسان شر الحاجة.

٢- في التشبيهات الشعبية:

١- طالع نازل مثل المنشار:

تشبيه لحالة إنسان معين تهمه نفسه فقط. فهو كيفما اندار وتحدث يضع فائدة نفسه قبل أي شيء ويأكل حق الآخرين.

٢- لسانه مثل المبرد:

تشبيه عن حالة الإنسان الذي يتحدث عن الآخرين بغيابهم حديثاً سيئاً.

٣- في الحكايات الشعبية:

حكاية حديدان في كتاب (حكايات شعبية من الزبداني)[١] ودور القدوم في الحكاية وما يقدمه ويفعله.

٤- في أغاني الأطفال:

- أغنية يا عمي النجار:

يـــا عمـــي النجـــار	عيرنـــي قـــدومك
بطعمـــي هالزعـــار	وبـــسلي همومـــك

---

(١) حكايات شعبية من الزبداني – محمد خالد رمضان – دمشق ١٩٧٧.

بتـــركض ليـــل نهـــار   بـــيخلص عيرومــــك
يـــا عمـــي النجـــار   يـــا عمـــي النجـــار

٦- هذه الصناعة اليوم:

استمرت هذه الصناعة في بلادنا على حالتها اليدوية حتى أواخر الأربعينيات. حيث أن الكثير من أدوات الطعام المصنعة يدوياً لا زال في بيوتنا. وعندما أتت الآلة ودخلت الصناعة الخشبية أصبح العمل اليدوي مضنياً وقاسياً. وصار إنتاج الآلة يفوق أضعافاً مضاعفة إنتاج اليد. واستمر إنتاج بعض أدوات الطعام الخشبية آلياً وإلى الآن. واختفى أو كاد إنتاج بعضها الآخر لوجود أدوات معوضة رخيصة، وعملية.

فمثلاً انتفى وجود الملاعق الخشبية، والشوك، والكفاكير، والكباجي، وبقي استعمال أجران القهوة ومدقات الكبة ومدقات الثوم، والقدور وأدوات الوزن في بعض المناطق والنواحي.

لقد قدمت هذه الحرفة مدلولاً حضارياً يشهد على عمق تقدم إنساننا، ومساهمته في مضمار التقدم الإنساني عامة. وكان لها دور بين في هذا المجال . وقد أصبحت ضمن تراثنا الشعبي الذي نعتز به ونغار عليه من الضياع. ويهمنا أن تستمر حسب عطائها اليدوي السابق لما قدمته وستقدمه في مجال العلم والتراث والفن حتى تبقى شاهداً حضاريا كبيراً. وتبقى استمراريتها أحد العناوين الواضحة للعطاء الإنساني الخالد[١].

صناعة الهوادج

١- عندما تتداعى صورة الهودج في ذاكراتنا تتداعى معها صور القوافل، ورنين الأجراس، والترحل عبر مسافات شاسعة على حفافي الصحارى في سبيل

(١) النجار أبو علي- الصالحية- شيخ محي الدين- متوفى- صناعة أدوات الطعام الخشبية.

الكلأ والماء، حيث الهوادج تتهادى على ظهور الإبل مثيرة في النفس نشوة خاصة، فقفل وراء قفل، ومجموعة وراء مجموعة، فالهوادج هي المقاعد التي لا يستغنى عنها في تلك الأيام الغابرة. كما أن الإبل هي سياراتها.

كم من أغنية انسابت، وانتشرت على اتساع البوادي تذكرنا بالهودج وبسحره، وبمن يحمل، وبما يرسمه من خيالات، وأحلام، ورؤى، وكم من قصيدة قديمة يشغل الهودج جزءاً واسعاً من نسيجها. وفي أيامنا تتالى أغنيات تذكرنا به، وتحمل إلينا بعض أريج تلك الأيام وعبقها.

٢- ما هو الهودج والمواد الأولية في صناعته:

الهودج وجمعه هوادج استعمل منذ القديم وهو خاص بالإبل والهجن وهو على الجمل كالسرج على الحصان، وكالجلال على الحمار، أي هو ما يكون على ظهر الجمال حين الرحيل والمسير خاصة الإبل المخصصة لركب النساء. وهناك هوادج متباينة الأحجام، وقديماً سميت الجمال التي تحمل النساء بالظعائن وواحدتها ظعينة.

ويصنع الهودج من الخشب، ومن خشب الجوز أو التوت أو المشمش أو الكينا حصراً في سوريا، ويدخل في صناعته الجلد الذي يستعمل للربط، وهناك المسامير الفولاذية التي تستعمل للتثبيت، أما الفضة أو الذهب فتطعم بهما الهوادج الغالية الثمن، حيث تكون على جوانب الهوادج، وخاصة الأماكن العليا منه، ثم توضع تحته مخدات من قطن أو صوف لحماية ظهر الجمل.

٣- آلية صناعة الهودج وأدوات العمل المستعملة:

إن أدوات العمل المستعملة في هذه الصناعة هي:

١- الطبقة لتقسيم كتلة الخشب.

٢- المنقار وهو لنقر قطع الخشب.

٣- الدقماق وهو للطرق والترتيب.
٤- القدوم ويستعمل لتسوية القطع الخشبية.
٥- قطع خشبية عديدة تدكك في النقرات.
٦- مسامير خشب تستعمل للربط بين القطع الخشبية.
٧- نحاس لصناعة رأس الهودج.

ويبدأ تصنيع الهودج من إحضار كتلة الخشب الكبيرة المهيأة لهذا، سماكة هذه الكتلة (١٤) سم بطول (٦٠) سم. تفكك هذه القطعة بواسطة الطبقة، ثم تقسم إلى شقف وتنقر بواسطة المنقار، وتحفر حسب الطلب، وتسوى بواسطة الدقماق، وتؤخذ بالقدوم حتى تصبح على صور الهودج الذي هو عبارة عن أربع قطع خشبية طول الخشبة (٦٠) سم بعرض (١٥-٢٠) سم، وترتبط هذه القطع ببعضها بواسطة مسامير خشبية، أو مسامير فولاذية ثم يزركش سطحه بمسامير عادية، وترتبط القطع الخشبية ببعضها بجلد فطير أو جلد بقر، ويدعى هذا الجلد (بالسريد) إذ يبلل أو ينقع بالماء وبعدئذ تربط به القطع الخشبية.

يسمى صانع الهوادج بالقتابي، والحرفي الماهر يمكنه صناعة هودج في اليوم الواحد. يمكن للعامل الذكي تعلم هذه الحرفة في مدة أقصاها سنة، ويسمى الهودج في سورية شداداً أو قتباً أما في السعودية فيدعى كورياً، وفي البادية يدعى رحّلاً. وتدعى خشبات الهودج مصاليب أو قتاداً، وهناك شداد دمشقي وآخر تدمري، يدعى شداداً تدمرياً.

تصنع الهوادح في دمشق، وتدمر في سورية، وفي منطقتي حائل والجبة في السعودية إذ يصنع فيها من خشب الطرفاء.

الحرفي الوحيد في سورية حالياً لصناعة الهوادج أو القتب هو السيد ياسين هيكل أبو عيد، عمره الحرفي خمسون سنة وهو من مواليد عام ١٩٢٤ ومن محلة الميدان، وكان هناك حرفي آخر يدعى عبد العزيز الدرسوني.

كان ثمن الهودج قبل سبعين وحتى خمسين سنة (٣٥) ليرة سورية، أما الآن فثمنه من (٨٠٠) ليرة سورية حتى (١٥٠٠) ليرة وهذا سعر العادي منه.

يستعمل الهودج حالياً في غرف الضيوف أو غرف الجلسة للاتكاء، ويوضع للزينة في بيوت الموسرين وفي الفنادق، وقد خف الطلب على شرائه لعدم الحاجة لاستعماله، فالحرفي المذكور لا يصنع الآن أكثر من عشرة هوادج في الشهر.

٤- الدلالات الأدبية الشعبية في هذه الحرفة:

تأثرت هذه الحرفة أي صناعة الهوادج بما تركته اليد الصانعة فيها وكم تعبت حتى كونت هذا الشكل ، ومن هذا التعب اليومي والشكل المكون تتلامح في الذاكرة الشعبية حركات، وتعبيرات، ومكونات خاصة تتجلى في الأدب الشعبي في شتى مناحيه، وبدورها أثرت أيضاً في تجليات هذه الحرفة.

لقد وجدت هذه الكلمة في الأمثال الشعبية، وفي القصيدة، وفي الأغنية، وورود هذه الحرفة في الأدب الشعبي له ارتباط بخلفيات معينة تحمل هموم وتعب الإنسان وعلاقته بالموجود، والحياة، وبآماله، وأحلامه الفردية والجماعية.

في الأغنية الشعبية المشهورة (تحت هودجها) نجد كم لكلمة الهودج، ومعانيها من تداخل هام في إنجاحها، وذيوعها، ودخولها الوجدان الشعبي. وهذه هي الأغنية:

يا ويلْ يا ويلْ يا ويلْ حالي ... اخدوا حبي وراحوا شمالي
تحتِ هودَجْها وتعالجْنا ... صارْ سَحبْ سيوفْ يا ويلْ
ما قتلني غيرْ أبو ياسينْ ... يا دَهبْ يلطمْ على الجبينْ
يا شَدادْ الحلوةْ فوقْ الهجينْ ... أحلى الأيامْ والليالي

وجاء في القصيد الشعبي:

يا راكبْ المَلّحة لها الكورْ شدي ... قومْ اعتلي يا وليفي فوقْ هيّافْ

وانسفْ عليها الخرجْ حينٍ تمِدي أسـرعْ منلـي بالـسما ريـشها ردّافْ

قَـوطرْ يـردْ لـي ريمّهـا بالتفـدي هـو مهجتـي يا خويْ جوّ السقافْ

ينوه الشاعر الشعبي في قصيدته عن أحد الذين يشدون الكور أو الكوري وهو الهودج ويحثه على اعتلاء ناقته، وهذه الناقة السريعة. فالكوري هو مستراح هذا الراكب، ومأمنه فوق طهر هذه الناقة لهذا يجب أن يشد بشكل جيد، كي يُحفظ حين المسير السريع.

وفي نشيد ديني يقال:

يا سعدْ إنْ جئت إلى المعلا فقفْ أدباً وانـزلْ عـن الكـوري مـا للعـيشْ ترحيـلْ

أي انزل عن الهودج في هذا المكان المقدسي أيها الراكب، ويتأكد في هذا البيت كم للهودج من قيمة إذا اعتبر بمثابة الدابة فالتحول عنه في مثل ذلك الظرف قيمة أخلاقية معينة.

أما في هذا البيت الآتي من القصيد الشعبي فنحن نلمح ونلمس مدى ما للهودج وأجزائه من قيمة حين يتحول إلى قيم معينة ومعنى معين:

يا ما حوبيتْ فوقْ عوجْ المصاليبْ من خوفي ليقصرْ عليكنْ عشاكنْ

فالمصاليب أجزاء الهودج، فهنا يوري الشاعر الشعبي تورية عن تجواله، وسفره ، وجهده، وكده، كي يؤمن لأهله مأكلهم، وملبسهم، ومسكنهم، فهو يعتلي على هودج محطم وهالك من فقره وعجزه.

من خلال الأمثلة السابقة رأينا كيف ساعدت مادة الهودج في نسيج بعض أجزاء الأدب الشعبي كالأغنية والقصيد، وكانت في قلب تلك الأجزاء، وحملت ما حملت من آمال الإنسان، وأحلامه.

٥- هذه الصناعة اليوم:

مثلما نعرف عن الحرفة وتبعيتها لظروف وتقلبات الإنسان الاجتماعية والتحولات الاقتصادية فإن صناعة الهوادج تابعة أيضاً لتلك الظروف. وقد خفت حاجة إنساننا بل تقريباً تلاشت للهودج بوجود الآليات، والسيارات، لكل هذا لم تعد هذه الحرفة تطعم خبزاً أو تساعد من يعمل فيها. وبقي القليل ممن يمارسها لسد بعض الحاجات الضرورية. أما الآن وفي وقتنا الحاضر فلم يبق منهم إلا النادر النادر. ولجمالية هذه الحرفة وندرتها فيجب الحرص على من بقي منهم، والعناية بهم، ووضع أسس معينة تحفظ عملهم للاستفادة منهم كي لا تنتهي أسرار حرفتهم وتصبح في عالم النسيان. وحالياً تصنع تلك الهوادج للزينة حيث تزركش بها الفنادق الكبرى، والبيوتات والمضافات.

ملاحظات: الرواة:

١- ياسين هيكل- أبو عيد- ميدان- مواليد ١٩٢٤- حي.

٢- عبد العزيز الدرسوني.

الكشك دفء في الشتاء وتبصر في الربيع

ينساب الدفء في العروق لغة شتائية خاصة، والكشك ينقي الشرايين مثلما الثلج حين ينقي الروح، ويجوس في الحواس كمطر لذيذ. يساهم الكشك في الليالي الباردة بمدِّنا بإحساسات من نوع خاص يختلط فيها الذوق والجمال، وتحلو بعد أكله اللقاءات مع الضباب، والسير فيه، والتملي في أبعاده.

شهي بين كانون وكانون، وشهي حول الكوانين في أبعاده. حيث تهدر النار تهدر وتغني أغنية الكشك والشتاء، وتناغمنا الغيوم باشتياق، تناغمنا راسمة رؤى زمانية هي مدعاة للتأمل، والحنين الأبدي.

كشك وأياد إنسانية تعشق الحياة تقوم، وتقعد، وتفرك، وتتعش لتروح عنا في أوقات الشتاء، وتغني لغة الفصول.

هكذا الكشك غناء الروح، وعطاء الإنسان في سمفونية الوجود الخالد.

٢- حديث حول الأكلة:

الكشك من الأكلات الشعبية السورية الشهيرة. اشتهرت بها سورية منذ قديم الزمان. ومن المسلم به أن الحضارة السورية من أقدم حضارات العالم، لذا شكل المطبخ السوري بما يحويه من أكلات شعبية، وقديمة سمة بارزة من سمات هذه الحضارة بل وإحدى دلالاتها بما يقدمه من تنوع وغنىً، وكثرة، ضمن اتساع مكاني وزماني كبير. والتفنن في الأكل في الأكلة الواحدة واستخراج أكلات عديدة منها معلم حضاري بارز يشير إلى أن المرأة كانت لا تعمل، لذلك اهتمت بالأكل وحتماً كانت تعيش في مجتمع مدني، وحضري.

والكشك من جملة هذه الأكلات القديمة التي اكتشفها الإنسان السوري، وهي بالمناسبة أكلة سورية بحتة، بل أنها فقط في المناطق الجنوبية من سورية خاصة في دمشق وريفها وبالتحديد في منطقتي يبرود، والزبداني إذ أنهما هما اللتان تنتجان الكشك الجيد. أما في محافظات الجولان، ودرعا وجبل العرب فيعمل الكشك من لبن مخضوض أو لا خير فيه. وهذا الكشك السوري له شهرة كبيرة في الوطن العربي كله. ومن أكلة الكشك استطاعت المرأة السورية استخراج عشرات الأكلات. كلها من الأكل الطيب الشهي اللذيذ.

وهذه هي الأكلات الشعبية التي تطبخ من الكشك:

١- كبة بكشك. ٢- كشكية. ٣- كشك مريق بالزيت. ٤- كشك مريق باللحمة. ٥- كشكة خضراء. ٦- كشك مدعبل مثل اللبنة. ٧- كشك ببطاطا. ٨- كشك بعدس وتدعى الأكلة حميمة. ٩- فطائر بكشك. ١٠- كشك بسلق. ١١- كشك بفول. ١٢- كشك ببرغل. ١٣- كشك بططماج أي بعجين وتدعى الأكلة ططماجة. ١٤- كشك بسبانخ. ١٥- بليلة كشك وتعمل عند بلّ الكشك والبليلة

تصب للأطفال في صحون صغيرة. ١٦- كشك بحمص. ١٧- كشك بشماميط أي ببيض. ١٨- ست الأنس.

والكشك يؤكل أكثر ما يؤكل في الشتاء فهو طبخة شتائية، وهذا له سبب إذ أنها أكلة دسمة، فهي للدفء، والإنسان بحاجة لها في هذا الفصل البارد، خاصة (فتة الكشك)، فهي أهم الأكلات صباحاً أيام العطل الأسبوعية، والأعياد. ولطيبة هذه الأكلة الشهية دعيت باسمها أكلة حلو طيبة هي (كشك الفقرا) تيمناً بأكلة الكشك.

٣- مواد هذه الأكلة - الحرفة:

هذه الأكلة - الحرفة - تتطلب عدة مواد حتى تنتج وتصبح أكلة راقية وهذه هي المواد اللازمة:

١- البرغل: وهو القمح المسلوق جيداً بعد غليه وتيبيسه.

٢- الحليب: وحليب الغنم والماعز أفضل من حليب البقر لهذه الأكلة.

٣- اللبن: وهو الحليب المروب الجيد.

٤- الملح: وهو ملح الطعام، النقي الصافي.

٤- الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:

تستعمل في تحضير هذه الأكلة أدوات فخارية وأخرى من الشعر ومن الخام أيضاً.

وهذه هي الأدوات المستعملة:

١- **الخابية**: وهي من أكبر الأوعية الفخارية حجماً طول الأزمان، والآباد، وقد كانت بعض الخوابي تسع قنطاراً فتسمت بالخابية القنطارية، أما خابية الكشك فتسع خمسة أمداد أو ستة، وهي لوضع الكشك فيها بعد بله.

٢- **المسمنة:** وهي وعاء فخاري قديم يسع حوالي مداً،وقد يكون اسمها أتى من السمن حيث كانت تستعمل لحفظه، وتستعمل للكشك بعد بله، وأوائل فركه، أو بين فترتين من الفرك.

٣- **الشراشف:** وهي لنشر الكشك عليها على الأسقف منذ الصباح وقبل بداية الفرك، وعادة تكون من الشراشف الكبيرة الحجم لتسع ذلك الكم من الكشك.

٤- **البلاسات:** وهو بساط من الشعر ينشر عليه الكشك فوق ملاءات أو شراشف لتبدأ عملية الفرك عليه، وعادة يكون هناك أكثر من بلاس ليستوعب الكشك.

٥- **الوادية:** وهي من الشعر تشبه البلاس.

٦- **اللقن الكبير** لوضع البلة فيه أول يوم.

٥- آلية العمل في هذه الأكلة- الحرفة:

يؤتى بالبرغل الخشن ثم ينقى على الصواني بشكل جيد حتى ينظف تماماً من كل الشوائب إذ ينقى حبة حبة بواسطة النساء، وبعد الانتهاء من هذه العملية، تحضر الكمية المتفق عليها من البرغل ولنتفق على ثلاثة أمداد مثلاً أي ستين كيلو غراماً فيلزمها لتنتج كشكاً جيداً مائة وثمانين كيلو غراماً من الحليب، أي ثلاثة أضعاف كمية البرغل، وتضاف إلى مزيج الحليب والبرغل كمية من الملح النقي الجيد تقدر بكيلو غرام واحد للكمية التي ذكرت.

ندع الحليب مدة (٢٤) ساعة حتى يحمض قبل المزج، ثم يمزج البرغل بالحليب المحمض، حيث يوضع في ألكان (جمع لقن)، وهو وعاء مسطح واسع ويغطى بقطعة قماش كبيرة حتى يتخمر ويكشف عنه، ويجب أن لايصل التخمر إلى درجة كبيرة حيث تدعى الحالة حينها (بالحماوة) وإذا وصل إلى

هذه الحالة يفسد، بعد ذلك نضع المزيج في الخوابي والمسامن، وكل ثلاثة أيام نضيف له كمية من اللبن تقدر بأربعة كيلو غرامات وذلك للكمية التي ضربنا المثل بها آنفاً ثم نخرجه، ونضعه في ألكان واسعة وعلى كل (لكن) يجلس رجلان ويبدأ الفرك بواسطة راحة اليد فكل رجل يفرك المزيج مرة، ويعاد بعدها إلى المسامن، والخوابي، وهكذا تستمر هذه العملية كل ثلاثة أيام مرة حتى خمسة عشر يوماً، ويكون قد فرك المزيج أربع مرات، وأضيف له ستون كيلو غراماً من اللبن الرائب كامل الدسم، ويفضل أن يكون لبن غنم أو معزى، ويتم هذا الفرك لمزج الكشك، وإماتة حبته أي تنعيمها، وفي اليوم السادس عشر ينشر الكشك على الشراشف السميكة بطريقة التقطيش أي التقطيع إلى قطع صغيرة بواسطة كف اليد، وهي عملية جميلة تدعو إلى التأمل فيها ليرى الناظر كم تكون صاحبة الكشك منهمكة حينها، وكم تبذل من جهد ثم بعدها تبدأ عملية البسبسة أي لمس الكشك ليعرف هل اقترب من اليبس أم لا. وتبسبس القطع مرتين أو أكثر، وعند التأكد من أنه يجب أن تبدأ عملية الفرك تفرد الشراشف فوق البلاسات أو الواديات وتجمع القطع إلى بعضها، وتكون صاحبة الكشك في صباح ذلك اليوم قد أرسلت إلى صاحباتها، وقريباتها بصحون عليها قطع كبيرة من الكشك ودعتهن إلى المساهمة معها في عملية الفرك، وتتوارد النسوة إلى (السطوح) وتبدأ عملية الفرك بواسطة راحات الأكف من وقت الضحى حتى ما بعد الظهر وحين يأتي وقت الغداء تكون سيدة المنزل قد حضرت للنسوة غداءً طيباً شهياً من المجدرة أو أكلة أبي شلهوب مع السلطة أو أكلة (حراق إصبعو) أي الأكلات التي لا يكلف تحضيرها زمناً طويلاً، وبعد الغداء تعود النسوة للفرك إلى وقت الغروب، وبهذه الحالة يكون الكشك قد نعم تماماً تقريباً من شدة الفرك. وفي اليوم ذاته ينخل الكشك كله وما زاد عنه من كشك خشن يعاد

فركه من قبل سيدة المنزل، ويضاف إلى الكشك المنعَّم، أما ما زاد عن ذلك وهو قليل فإما يعاد فركه أو يعاد مزجه بقليل من اللبن ونشره وفركه مجدداً.

ولابد من الإشارة أنه قبل عملية تنقية البرغل لابد من (تصويله) أي غليه بالماء ونشره حتى يجف تماماً بواسطة الشمس.

٦- الدلالات الشعبية والأسطورية في هذه الأكلة- الحرفة:

الكشك من المؤونة الرئيسية خاصة في المناطق الباردة، وذلك للدسم الكثير الموجود فيه، فله صلات وطيدة مع الناس منذ مئات السنين، لهذا فهو على الألسنة تتداوله النساء ويتداول الرجال الحديث عنه، فله وضع اجتماعي وبيئي وطبيعي ومعنوي، فهكذا تفاعل مع الناس وكونت حوله قضايا شعبية كثيرة إذ ساهم في تكوين الذاكرة الشعبية لما له من أهمية تمس حياة الإنسان اليومية. ولقد لحظنا وجود الكشك في عدة مناح شعبية منها: الأغنية الشعبية، والاصطلاح، والمثل الشعبي، والتشابيه، والاعتقادات، والطرفة، وهذا دليل شدة التصاق هذه الأكلة مع الناس وتداخلها في أوقاتهم، وعلاقاتهم خاصة في أوقات الشتاء. وخدمت هذه التداخلات الشعبية العلاقات بين الناس وطورتها وقد ساهمت في عملية تكوين الوجدان الشعبي.

ففي الأغنية الشعبية جاء من موليا قديمة تغنى في محافظة ريف دمشق:

كشك ما كشكت وسليقة ما جابت

راحت لعند النبي حجت وما تابت

والموليا أغنية قديمة طعمها الشاعر بالكشك فصارت جميلة أكثر وملأى بالمشاعر الجياشة، وهي تتحدث عن الحب وبأنه يلهي الإنسان عن عمله حتى عن معيشته، وتأمين مؤونته، وخلفيتها دعوة للحذر من ذلك.

وجاء في التشابيه الشعبية عدة تشبيهات نقتطف منها هذا التشبيه:

١- **مثل الكشك:** وهذا التشبيه يقال للدلالة على كثرة معينة إن كان في الشجر أو الثمر أو الناس أي كثرة هذا النوع المعني ككثرة حبات الكشك وهو تشبيه مبالغة، وله خلفياته الاجتماعية فهو إما تحذير أو للتخويف من قضية أو للاعتناء بقضية.

وفي مجال جمل الوعيد هناك عدة وعودات شعبية تحمل هذا المعنى ومنها هذا الوعيد:

١- **روح كشكها:** أي اعمل ما بدا لك فأنا لا أخافك، ولا أهابك بل إنني أقوى منك، ولن تستطيع فعل شيء وإلا فسينالك جزائي. وأتى الكشك في هذا الوعيد ليدل على كثرة أي اعمل ما بدا لك حتى لو بعدد حبات الكشك فلن أهابك.

أما في الأمثال الشعبية فقد أتى ذكر الكشك في الكثير منها، حيث دل على أهميته، وتداخله في حياة الناس. ومن هذه الأمثال:

١- **النومة من عشية وأكل الكشك والكشكية:** أي أن خير الأكلات وأطيبها الكشك، والكشكية، وهما مميزان عن كل الأكل والطبيخ، كما أن النوم باكراً عند دخول العشية هو أفضل النوم، وأحسنه للإنسان. ويضرب المثل في عدة مجالات عامة حين ذكر الأكل وذكر النوم والصحة وراحة الإنسان أو أي شيء لسعادته.

٢- **كول الكشك وخود الملك:** وهو مثل دلالة وإشارة للاهتمام بأكلة الكشك أو لإثارة الانتباه، فكأنما أكل الكشك يساوي من حيث القيمة كون الإنسان ملكاً، وأن الإنسان حين يأكل الكشك فكأنه يأخذ الملك أو الحكم. ويضرب في شؤون عدة حسب القاعدة التي تحدثنا عنها، وله عدة معان خلفية: فيقال افعل هذا العمل، وستصبح ملكاً مثلك حين تأكل الكشك، وتسعد كأنك الملك.

ومن الاعتقادات الشعبية الهامة أثناء فرك الكشك خاصة حين بقاء حبة معينة يعجز الفرك عن تفتيتها، حينها تقول ست البيت (المعلمة) لهذه الحبة:

(سلقتك ما انسلقت، برغلتك ما تبرغلت، كشكتك ما تكشكت روحي على حظ فلانة) وتكون فلانة المعنية حاملاً هي أو ابنتها أو كنتها أو إحدى الفاركات. وحينئذ ترمي الحبة عن (الأسطوح) فإن مر رجل فسيكون المولود ذكراً، وإن مرت أنثى فستكون المولودة أنثى.

أما في مجال الطرف الشعبية التي تقترب من الاصطلاحات الشعبية، فيقال حين يظهر أثناء فرك الكشك بأن بياضه سيكون شديداً وهو الممتاز منه يقال: (صاحبتك بيضا يا كشك) (صاحبتك بيضا يا كشك) وهو ترداد كأنه ثناء على ست البيت أو صاحبة الكشك.

وأما أجمل شيء جاء عن الكشك في هذا المجال فهو تحميل الناس لصوت الكوكو وفهمه على أساس أنه يقول: (كشك كبو لبن صبو) وذلك في منتصف فصل الربيع، وهذا بدوره اعتقاد شعبي جميل، وهو يعني انتهاء وقت أكل الكشك الأكلة الشتوية وبدأ أكل اللبن الأكلة الصيفية الناعمة الطرية، فلقد قوّل الوجدان الشعبي الكوكو الطير الربيعي الجميل ما يريده هو أي ما يريده الشعب. والكوكو طائر يظل يصدح بصوته الربيعي طيلة فصل الربيع منبهاً ومحيياً الخصب والحياة.

٧- هذه الأكلة اليوم:

لا زالت أكلة الكشك من الأكلات المنتشرة في كل سورية الجنوبية بل وانتشر استعماله في كل أنحاء سورية وبعض أقطار الوطن العربي خاصة المشرق العربي. لكن الذي تغير تغيراً جذرياً لدى أكثر صناعها إلا الندرة فهو طريقة صنعها خاصة المرحلة الأخيرة إذ أن مجيء الطواحين الآلية قد غير من تلك الطريقة الجميلة الاجتماعية والإنسانية.

فاليوم يطحن الكشك بواسطة الطاحونة الآلية وتدعى طاحونة الكشك، لهذا فنحن لا نجده ناعماً تماماً كطحن اليد ثم النخل بالمنخل. يباع كيلو الكشك اليدوي بحوالي (٤٠٠) ل. س بأربعمائة ليرة سورية. أما الكشك العادي فيباع الكيلو بـ (١٥٠) ل.س بمائة وخمسين ليرة سورية.

وتظل الأيدي الإنسانية تفرك الكشك أكلة شتائية لذيذة إلى اليوم.

ملاحظات: الرواة:

١- فاطمة محمد رمضان- مواليد ١٩١٩- توفيت عام ١٩٩٨- من أهم صانعات الكشك في منطقة الزيداني.

صناعة الدبس

١- مع نسيمات الخريف المتأخر، ونهايات تشرين الثاني المشبعة بالبرودة كانت تنتقل عبر الأثير، ومع الهبات الغربية والشمالية رائحة الدبس. ومن البعيد يحس المتبصر أن المعاصر بدأت بالعمل. ويلاحظ دخانها منتشراً في السماء. يتابع غيمة شاردة ويغيب مع الأفق أو يتفتت بين الكروم والبساتين. ومع الملاحظة يتابع الناظر قوافل الدواب المحملة عنباً وزبيباً في طريقها إلى المعاصر.

ومن بدايات شهر آب يبدأ الحصرم بالتحول إلى العنب رويداً رويداً حيث يشتد الحر الذي يساعد على إنضاجه. وفي الكروم تتمايل الدوالي وتختال في الأماسي الجميلة. وعلى أغصانها تتغاوى العناقيد مشكلة منظراً بهياً. ولقد تعمقت هذه اللوحة في وجدان الشعب، واختزنها جيلاً وراء جيل. حتى أخرجها في جملة موجزة مكثفة من خلال المثل الشعبي المشهور والمعبر (بآب قطوف العنقود ولا تستهاب). ولكن القطاف الفعلي لا يبدأ إلا مع أوائل أيلول ويحول العنب إلى زبيب بطريقة التيبيس.

وهكذا الأحمال تنتقل من الكروم إلى المعاصر صباحاً ومساءً فوق الدروب العتيقة على مدار السنين، والأيام وفي أمكنة مختلفة تجمع بينها جودة زراعة العنب فيها.

٢- المعاصر وأمكنتها:

توجد المعاصر دائماً حيث يوجد العنب أو أمكنة زراعته التي تسمى منطقة الكروم. ذلك كي يكون الجهد قليلاً. وتجود زراعة العنب في الأماكن الجبلية العالية والباردة إذ تلائم بعض أنواع العنب مثل العبيدي والجبلي والدربلي وهي تصلح للدبس أكثر من غيرها رغم صلاحية كل أنواع العنب للتدبيس.

وتمتد هذه المعاصر الجبلية من جبال القلمون مروراً بجبال الزبداني منتهية. بجبل الشيخ هذا في محافظة دمشق وريفها. وهناك معاصر جبل العرب إذ تجود زراعة العنب. وفي محافظة حماة ومحافظة حمص وجدت بعض المعاصر في الأماكن التي كانت تزرع عنباً، كمنطقة مصياف وغيرها. وفي محافظة حلب وضمن مناطقها الجبلية وجدت معاصر لصناعة الدبس أيضاً.

ولو جئنا على ذكر عدد المعاصر في بعض المناطق فنذكر أنه كان في مدينة الزبداني ست معاصر. وفي بلدة سرغايا أربع معاصر. وفي بلدة المشرفة (القلمون) معصرتان. وفي حلبون معصرتان. وفي بلدة حلفايا في مصياف معصرتان. وكان في دوما أربع معاصر وفي حرستا معصرة واحدة. وفي منطقة الرحيبة معصرتان. وفي حضر معصرتان. وحتى منتصف الخمسينيات كانت هذه المعاصر كلها تعمل بكامل طاقتها. وبدأت زراعة العنب تتوقف رويداً رويداً وأخذ إنتاجه يتحول إلى صناعة الخمور وغيرها. ولهذا أخذت معاصر الدبس بالتوقف واحدة إثر الأخرى.

ولم تبق سوى معاصر قليلة تنتج الدبس الزبيبي والعنبي وهي لا تتجاوز عدد أصابع اليد. أما المعاصر القديمة فهي إما آيلة للسقوط أو أنها سقطت، وبقيت آثارها شاهدة عليها.

٣- **المعصرة:**

المعصرة كل متكامل: تتقسم إلى قسمين هما:

1ً- البناء: وينقسم بدوره إلى عدة أقسام هي:

١- المستودع: ومساحته ستون متراً مربعاً.

٢- غرفة دراس الزبيب ومساحتها خمسة وعشرون متراً مربعاً.

٣- غرفة تجميع الدراس ومساحتها ثلاثون متراً مربعاً.

٤- غرفة التواغير ومساحتها ثمانون متراً مربعاً.

٥- غرفة بيت النار ومساحتها تسعة أمتار مربعة.

٦- غرفة تبريد الدبس ومساحتها عشرون متراً مربعاً.

٧- غرفة تجميع وتوزيع الدبس ومساحتها أربعة وعشرون متراً مربعاً.

وتبلغ مساحة البناء كاملة ثمانية وأربعون ومائتا متراً مربعاً. وهو من لبن ترابي وسقف خشبي. له نوافذ في السقف على شكل مداخن مفتوحة عالية وبعض النوافذ الجدارية القليلة.

حً- أدوات العمل:

١- الأكياس: وهي من القنب أو الخيش. وكل كيس مكتوب عليه اسم صاحبه.

٢- قبان روماني يحمل على الكتف.

٣- حاصل أرضي في غرفة الدراس لوضع الزبيب.

٤- حجر الدراس: له شكل أسطواني. وهو قطعة واحدة من حجر صلب مثقوب في الوسط. وفي الثقب أو المحور قطعة خشب قاسية من شجر الملول، طويلة من جانب وقصيرة من الجانب الآخر. الجانب القصير مثقوب وفيه عمود خشبي مرتكز إلى السقف ومرتبط بالقاعدة الأرضية المرفوعة عن الأرض حوالي متراً واحداً بشكل دائري، وهي التي يجلس فوقها حجر الدراس.

٥- أربعة صفوف من التواغير وهي أرضية، وفوقها التواغير الفخارية.

٦- جعيلة (الخلقين أو الحلة): قطرها متران وارتفاعها متراً. وهي مرفوعة عن الأرض حوالي (٨٥) سم ومن النحاس المبيض. وترفع عن الأرض لتتيح للوقاد العمل تحتها، ووضع الحطب وغيره.

٧- محراك للدبس وهو من الخشب بطول (١,٥) متراً وفي أعلاه خشبة عريضة.

٨- مغراف لغرف الدبس وتحريكه. وهو من النحاس، وأحياناً يكون من الخشب.

٩- حلتان من النحاس وهما أصغر من الأولى.

٤- آلية العمل:

يبدأ العمل لإنتاج الدبس من الزبيب - وهو من العنب المجفف - إذ يؤتى به ويوضع في المستودع. ويأتي دور البغل فيربط بخشبة حجر الدراس ويدور الحجر تجاه عقرب الساعة. ويحمل الزبيب إلى غرفة الدراس ثم ينقل بكميات قليلة بواسطة (كريك) ويدفع تحت الحجر.

بعد أن يُنهي الدراس يجمع المدروس على شكل كتل تخلط بقليل من الحوارة البيضاء الكلسية لتسريع عملية تيبيس الكتلة وتخفيض نسبة الحموضة. ثم تجمع فوق بعضها، وتنقل إلى غرفة تجميع الدراس. وتترك من عشرين إلى ثلاثين يوماً حتى تجف تماماً. ويأتي بعد ذلك دور الحتّ حيث تحت بواسطة قدوم أو (سنكة) وينقل المحتوت إلى غرفة التواغير، ويوضع الفتات في التيغار الأعلى الذي يكون مثقوباً من الأسفل، وسدوداً بقطعة خشب صغيرة. يملأ التيغار إلى حوالي ٧٥٪ منه بالفتات ويملأ الباقي بالماء النقي ويترك حوالي سبعة أيام حتى يحلل بامتصاصه للماء. ثم ترفع السدة الخشبية فينزل الفتات

المائع المصفى إلى التيغار الأسفل، إذ تكون هناك في التيغار الأعلى قطعة بلان للتصفية، ويترك في التيغار الأعلى ليكتسب حلاوة ويبقى ثلاثة أيام. ثم ينزل إلى التيغار الأسفل مرة أخرى. وهكذا كل التواغير والتي تبلغ سبعة وعشرين تيغاراً يلزمها سبعة وعشرون برميلاً عادياً، وسبعة وعشرون برميلاً من التوتياء، وسبعة وعشرون قدراً فخارياً. وينقل الجلاب أو الملت إلى الحلة في بيت النار. ثم توقد النار تحت المزيج وتحرك الطبخة بالمحراك حتى يصعد البخار منها وكلما كثر البخار كان ذلك أفضل للدبس. وتبقى الطبخة حوالي الساعة على النار وعندما تنضج تنقل إلى غرفة التبريد، والحلل الصغيرة بواسطة المغراف. ويخلط الجلاب مع خميرة من الدبس القديم، إذ يكون ساخناً ومائعاً فتحل فيه الخميرة بالتحريك. وقبل أن يبرد الدبس تماماً يوزع على الأوعية النحاسية أو القدور الفخارية. أما بقية طبخة الدبس في الحلة الكبيرة فتجمع قبل أن يوضع الجديد وتسمى (عصفور). وقنطار الزبيب كان يعطي خمسة وسبعين رطلاً دبساً أو سبع تنكات. وكل دَبّسة سبعة سطول خلال خمس ساعات.

أما دبس العنب. فقد كان يؤخذ العنب الذي لا يصلح للزبيب ويوضع في مكان مسطح واسع، ثم يعصر بالأقدام وبالمدقات الخشبية الكبيرة، وينقل إلى اليد ليكمل عصره. وبعد أن يصبح عصيراً يصفى بالمصافي إلى جرن واسع كبير، وينقل العصير إلى الحلة. ثم يغلى على نار هادئة. ويترك بعد النضوج ليبرد في حلل أصغر. ويبقى الدبس العنبي مائعاً.

أما عمال المعصرة فهم:

١- الدّباس الرئيسي وهو المعلم.

٢- عامل دراس.

٣- عامل أو اثنان للّفت.

٤- عاملان لعملية التواغير.

٥- عامل للطبخ.

٦- وقاد.

يبدأ العمل في المعاصر كل عام من أول كانون الأول ويستمر أربعة أشهر. أي أن العمل في الشتاء. أما الحطب الذي يصلح للوقود تحت حلة الدبس فهو من الشيح والفطفوط واللّزاب. ويكون مهيئاً منذ فترة طويلة، ومن منتصف الصيف في غرف خاصة به.

٥- الدبس المنتج وأطعمته:

الدبس المنتج من معاصر العنب نوعان:

١- دبس زبيبي.

٢- دبس عنبي.

والدبس أكلة شتائية مفيدة وسهلة، وهي ملأى بالحريرات غير المتعبة واللينة. يؤكل وحده أو مع غيره من الطعام.

فالدبس الزبيبي يؤكل مع طعام الصباح. وأحياناً يضاف إليه السمن البلدي.

والدبس العنبي يخلط مع الثلج شتاءً مكوناً أكلة السويق. ويطبخ الدبس مع البرغل والسمن في أكلة شتائية تدعى (عميشة). كذلك يطبخ مع الطحين والسمن مشكلاً أكلة (الحلاوة). وتحلى أكلة (حبوب الدبس) بالدبس وهي مكونة من القمح، والحمص، والفاصولياء، واللوبياء، والفول المفقوش. ويخلط الدبس مع اللبن مكوناً أكلة (دبس ولبن). وتضاف الطحينة إلى الدبس الزبيبي في أكلة (دبس وطحينة). وهناك أكلة (الملبن)، وهي جوز يابس مربوط ببعضه على شكل حبل، ويغطس بالدبس العنبي ويعلق حتى ينشف ويؤكل في الشتاء. وأخيراً يؤكل الخس بتغميسه بالدبس.

٦- الدلالات التراثية والأسطورية:

دخل الدبس في أكثر من مجال من موروثنا الشعبي الأدبي. فقد لاحظناه في الأمثال الشعبية، والكنى، والتشابيه، والاستعارات. وخلق خلال وجوده علاقات اجتماعية متشابكة ملأت زمن الإنسان، وعبرت عن واقعه ويومياته، وحركته.

جمّل الدبس هذا الموروث وأدخل إليه حلاوته وصفاته، وأبقى لنا ذخراً كاملاً تعرفنا خلاله معيشة إنساننا ومجمل مكونات حياته.

ونذكر فيما يلي الدبس في الموروث الشعبي:

أ- في الأمثال الشعبية:

١- نيّال من حطب حطباتو ودبس وعبى كواراتو من التين الميبس:

وهو من أمثال الفصول، والمواسم. ومعناه البعيد يرمي إلى حث الإنسان على تدبر أموره، واستحضار مستلزمات حياته، والعمل على تجهيز بيته قبل حلول الشتاء. وينطبق ذلك أيضاً على كل شؤون الحياة. أي على الإنسان أن يكون مجهزاً مسبقاً للأمور الآتية حتى لا يندم ولا يسبق.

٢- دبسْ دبساتكْ ليومْ حبساتكْ:

مرماه البعيد يشبه المثل السابق. أي جهز نفسك لأيام الشتاء القاسية التي يحبس فيها الإنسان في البيت دون عمل.

٣- كونْ دبّاسْ ولا تكونْ لحّاسْ:

ويعني: عليك أيها الإنسان أن تعمل بيدك ولا تحتاج أحداً. فاتعب واجتهد حتى تكفي نفسك.

٤- دبس ولبن عوافي عالبدن:

أي كل المفيد من الطعام كي تتعافى كمثل أكلة الدبس واللبن.

ب- في التشابيه الشعبية:

١- وجها مثل الدبس العنبي:

الدبس العنبي له لون أشقر، ولون وجه هذه الفتاة يشبه لون الدبس العنبي، وحيويته تشبه حيوية هذا الدبس.

٢- حلاوتو متل حلاوة الدبس:

للدبس حلاوة جارحة أي أنه شديد الحلاوة. وحلاوة المشبه به تشبه حلاوة الدبس.

ج - في الكنى الشعبية:

١- من السبعا اللي خلطوا الدبس عالطحينة:

تقال هذه الكناية عن المرأة الذكية القوية الماهرة. إذ أن أكلة (الدبس عالطحينة) تلزمها امرأة واعية، ومجربة حتى تصبح أكلة شهية طيبة.

٧- هذه الصناعة اليوم:

انقرضت صناعة الدبس أو تكاد اليوم. وانهارت تلك المعاصر التي كانت تعمل خلال عدة شهور كل عام. فأينما سرنا الآن في الأماكن التي كانت مشهورة بصناعة الدبس لا نرى إلا بقايا معاصر قديمة. تدل عليها أرضيتها وبقايا جدرانها والخشب المتآكل من فعل الشتاءات والرياح أو الإنسان. ويتأملها الناظر إليها ملاحظاً وقارئاً تاريخاً كاملاً مر على إنساننا وحياتنا كانت هذه المعصرة واحدة من مكونات معيشته. ولم يبق من هذه المعاصر إلا معاصر قليلة متناثرة في أمكنة مختلفة. ويكاد يختفي الدبس من الأسواق هذه الأيام - هذه الأكلة صاحبة النكهة الشهية - وصرنا نبحث طويلاً حتى نجد طلبنا لدى الباعة، أو حتى نوصي عليها قبل مدة أحداً من المعارف والأصدقاء ممن نعرف أن في مدنهم أو قراهم معصرة.

والأسباب التي أدت إلى انهيار هذه الصناعة كثيرة أهمها:

١- استعمال العنب وهو المادة الأساسية في الدبس في أمور أخرى غير التدبيس.

٢- تأخر زراعة الكروم والعنب بشكل عام.

٣- قصور المردود الذي يناله صاحب المعصرة عن عمله.

٤- دخول المكننة إلى الحياة.

ولكي تعود أكلة الدبس إلى الوجود والمعاصر إلى العمل . يجب تشجيع المزارعين على زراعة العنب، وتأمين المردود اللازم للعاملين في هذه الصناعة.

ملاحظات: المصدر:

١- محمد إبراهيم ثابت- مواليد ١٩١٠- زبداني، متوفى.

٢- محمد علي الكويفي- مواليد ١٨٩٥- زبداني، متوفى.

صناعة دبس التمر

١- في الشتاءات القاسية والباردة، وفي كوانين منها يحتاج الإنسان إلى دفء خاص عدا دفء المواقد، والمدافئ، والكوانين. ففي مثل هذه الشتاءات يتبارى الثلج في أغنيته مع الريح والعواصف الشديدة الدوارة. ويتداخل الرذاذ مع الصرصر. إضافة إلى الجليد الذي يشكل مع الماء متدليات تشبه العناقيد تطل علينا من "السفرنات"(١) والسقوف. وفي الليل تزداد حدة البرد اللاسع الذي يمنع الناس من التحرك إلا بشق الأنفس.

ويتجمع الناس في البيت أمام مصادر الدفء مكونين دائرة واسعة. ويكون دبس التمر زينة أكلات هذه المجالس حيث يرد البرد عن الأجسام

---

(١) السفرن: وهي كلمة من أصل سرياني وتعني الجزء البارز الواقي من سقف البيت الذي يرد المطر والثلج عن الجدران.

المقرورة، ويبعث فيها حرارة عالية. فهو خلاصة ثمر شجرة النخيل. وتتداخل في هذه الجلسات الحكايات الشتائية مع موسيقى الطبيعة وتنويعات الدبس التمري في الجسم مع أغنيات الأطفال ليشكل الجميع لوحة الحياة واستمرارها في جريان نهر الزمن. هذا الزمن اليومي خلال رحلة الإنسان المتباينة في تاريخ الكون الجميل.

٢- مادة الصناعة:

التمر هو ثمر شجرة النخيل تلك الشجرة الهامة في تاريخ بلادنا وفي ذاكرتنا. تجود زراعة النخيل في الصحارى والمناطق القريبة منها. ففي سورية يزرع في منطقة تدمر، وبعض الأماكن الأخرى.

تنتج هذه الشجرة عدة أنواع من التمور. إذ يسمى النوع الأسود منها (بالعجوة) والنوع الأشقر بالتمر. ويدعى ثمر النخيل "رُطَباً" أيضاً، وهو غذاء كامل لاحتوائه على كافة الفيتامينات المطلوبة كغذاء. واعتبر في فترة من الفترات الغذاء الرئيسي للبدوي القاطن في الصحراء. حيث يخزن للشتاء وللأوقات العصيبة في أوان خاصة.

٣- معصرة دبس التمر وأدوات العمل:

انتشرت معاصر دبس التمر أكثر ما انتشرت في الغوطة الشرقية من دمشق خاصة في مدينة عربين ففيها أكبر تجمع لمعاصر دبس التمر في سورية، وهناك بعض المعاصر في دوما. وقد بلغ عددها حتى منتصف الخمسينيات حوالي مائة معصرة منها حوالي (٧٠) معصرة رئيسة و(٣٠) ثانوية صغيرة.

تتميز معصرة التمر ببابها الكبير الواسع على شكل مستطيل ووسطه باب صغير. وتتشابه معاصر دبس التمر مع دبس العنب في أشياء كثيرة ولكن لكل منهما ميزات خاصة تتميز بها.

تبلغ مساحة معصرة دبس التمر حوالي (١٥٠) متراً مربعاً. وفيها غرف متنوعة الأحجام، عددها ست ولكل منها وظيفة خاصة نبينها فيما يلي:

١- غرفة الوقود ويجمع فيها الحطب المتنوع، وورق الجوز، والقنب وتسمى غرفة (المورقة).

٢- غرفة الدريس أو المطحنة وفيها يدرس التمر.

٣- غرفة (الكانون) وهي لغلي الدبس.

٤- غرفة (التمر المطحون) وهي لتجميع الدريس.

٥- غرفة التواغير وفيها تتم تصفية الجلاب.

٦- غرفة التبريد والتعبئة وهي بعيدة عن الحرارة.

وفي المعصرة عدة أدوات عمل نذكرها:

١- حجر بازلتي دائري كبير قطر (١٥٠) سم تقريباً، وفي منتصفه ثقب دائري بقطر (١٠) سم.

٢- حجر بازلتي سميك دائري صغير سماكته (٧٠) سم وقطره (٧٠) سم يتوسطه ثقب قطره (١٠) سم تقريباً.

٣- قفف لنقل التمر والتفل.

٤- معاول، ورفوش لتعبئة التمر وتفتيته.

٥- تواغير عديدة، وهي القنوات منها المثقوب، ومنها غير المثقوب.

٦- حلة كبيرة نحاسية ينقل إليها الجلاب من التواغير.

٧- مسواط لتحريك الجلاب في الحلة.

٨- أوعية من نحاس لنقل الجلاب من التواغير إلى الحلة.

٩- علب سعة كغ واحد أو سعة كيلو غرامين لتعبئة الدبس.

وموسم العمل في معاصر دبس التمر أو التدبيس يبدأ أوائل الشتاء ويستمر حتى أوائل الربيع.

٤- آلية العمل:

يحمل الحجر البازلتي الكبير على قوائم ترتفع عن الأرض حوالي خمسين سم تقريباً. وتوضع عصا طويلة في الثقب، وتثبت على الأرض ثم يوضع الحجر السميك الصغير فوق الكبير كالدولاب، أيضاً توضع في ثقبه عصا شبيهة بالأولى، وتربط بها بشرط السماح لدورة كاملة بحرية، وتربط بالحصان من الطرف الآخر بعد أن يتم تجهيزه وإلباسه اللباس الخاص. بعد ذلك ينقل التمر بالقفف إلى المطحنة، ويوضع فوق الحجر الكبير ليتم درسه، ويبدأ الحصان بالدوران شاداً معه الحجر حتى يتم الطحن جيداً، ثم ينقل (الدريس) إلى غرفة أخرى لتجميعه على شكل أكوام. وبعد أن تصبح كمية الدريس كافية لتعبئة التواغير ينقل إليها، والتواغير صحون كبيرة قطر فتحتها خمسون سم وقطر قعرها حوالي (٢٥) سم وكل منها مثقوب من قعره وعادة تكون مرتفعة عن الأرض بحوالي (١٠٠) سم معلقة على قوائم لِبْنٍ ترابي، وهي متلاصقة على شكل نسق طويل عشرة أمتار، وتحت كل تيغار تيغار مثله غير مثقوب لاستقبال الجلاب الصافي الناتج عن الدريس. يقوم أحد عمال المعصرة بعجن الدريس بالتواغير العليا بواسطة المعول أو رفش صغير بغية عصره.

بعد أن يعصر الدريس جيداً ويُصفى الجلاب تفرغ التواغير السفلى من الجلاب إلى الحلة الكبيرة. وتفرغ التواغير العليا من التفل ليوضع خارج المعصرة ويجفف ليحرق. ثم يعاد ملء التواغير العليا بالدريس لتصفية الجلاب، ونقله إلى الحلة وهكذا.

وبعد أن تمتلأ الحلة توقد النار تحتها ويبدأ أحد العمال بتحريك الجلاب بواسطة (المسواط) إلى أن يتم (تعقيده) أي تماسكه. بعد ذلك ينقل الجلاب المعقود إلى البحيرة لتبريده، وعندما يبرد يبدأ العمال بخبطه بالأيدي حتى يتلون باللون الأشقر ويجمد.

٥- الأكلات التي يدخل فيها دبس التمر:

دبس التمر أكلة شتوية، يدخل في عدة أكلات شعبية يحليها ويجملها، ويساعد على نشر الحرارة في الجسم لما لسكَّره من تنوع، ويمكن أن نذكر أهم الأكلات التي يدخل فيها:

١- **الحبوب:** وهي أكلة شعبية تتألف من: القمح – الحمص – الفول – الدبس. وطريقة إنضاجها هي أن يبلل القمح بالماء ويدق ويُنسّف. ثم يوضع في طنجرة واسعة، ويترك على النار حتى يغلي وينضج، ويضاف إليه الحمص والفول، وأخيراً الدبس.

٢- **الخبيصة:** أكلة شعبية شتائية قل أكلها، وطبخها، وطريقة صنعها تبدأ بإذابة الدبس في الماء ثم يضاف إليه النشاء ويغلى المزيج فوق النار.

٣- **السويق:** أكلة شعبية شتائية، تتألف من الثلج ودبس التمر.

٤- **تماري:** أكلة شعبية تباع في المدينة، وهي عبارة عن أرغفة من الخبز يؤتى بها ويرش الدبس فوقها.

٦- الدلالات الشعبية والأسطورية في هذه الصناعة:

منظر النخيل جميل يشكل لوحات رائعة. ويكوّن ثمره "مشكاكاً" لماحاً في ترتيباته التناظرية وفي تكويناته الملتفة على بعضها مانحة الطبيعة لغة حارة وإحساساً بالتواجد. وله تواجد في المنطقة العربية منذ القديم إذ جاء ذكره في عدة كتب مقدسة. لذلك قدست شجرة النخيل مع إنتاجها، وتجسد هذا التقديس وعبر عنه في أكثر من مجال. ففي لوحات الفسيفساء الباقية حتى الآن نستطيع مشاهدة هذه الشجرة. ونراها أيضاً مرسومة على بعض السجاجيد والبسط تترامح مع أغصانها وسعفها مشكلة رسم مروحة حية.

وقد لاحظنا وجود الدبس في أكثر من ناحية من نواحي الموروث الشعبي. ففي المثل الشعبي جاء:

١- بتشرينْ دبسْ تمراتكْ بكانونْ بتحلي سنوناتكْ: مثل موسمي يحتضن المناسبة ويؤكد علاقة الدبس بالإنسان، وبالبيئة.

٢- بكانونْ دبسْ التمرْ وهيّي الجمرْ.

٣- دبس تمر وغمر جمر.

أما في الأغنية فقد تجلى دبس التمر في أكثر من واحدة منها. حملت الأبعاد الشعبية، وجسدت من خلاله وخلال عدة أجزاء أحلام الإنسان وآماله، وحللت واقعه.

ومن هذه الأغاني نلحظ الأغنية التالية:

يـا تمــرْ دبــسكْ حلاّنــي ... يــا تمــرْ دبــسكْ هنّــاني
يـا حلـوْ يـا أشـقرْ يـا نبعـةْ ... يــا حلــوْ نــاعمْ منّــاني
يـا تمـرْ دبسكْ يـا مـسوسحْ ... يــا نهــارْ نــورّ وفــرّحْ
يــا دبــسْ حنّــتْ وفــرفحْ ... يــا أحلــى مــن سَـلْ غنــاني

وقد تجلت شجرة النخيل في الزغرودة الشعبية فملأتها حناناً وفرحاً. فتاهت الزغرودة عالية قاطعة الأرجاء.

ومن هذه الزغاريد نذكر:

يا نخلةْ الدارْ دبسكْ بلسمْ الشافي ... بلسمْ يحلي ودومِ دومْ عاشفافي
دبسكْ زهورْ الفلا يا زهورْ رفّافةْ ... ودبسكْ عوافي وندي ولوانْ شفّافة

وهذه الزغرودة للعروس الجميلة. فهي نخلة حلوة حلاوة دبس هذه النخلة، وشفافة مثل شفافيته.

فكم حمّل هذا الدبس، وحمل من معان وتشبيهات؟ واتسع لنقل الأحلام الوردية؟ فهو مسافة في الزمان والمكان لا تقف عند حد.

٧- **هذه الصناعة اليوم:**

لقد أخذت هذه الصناعة بالتناقص رويداً رويداً مثل أكثر الحرف الشعبية. وأسباب هذا التناقص كثيرة تأتي في المقدمة منها الأسباب الاقتصادية والاجتماعية. إذ أن مردودها قليل، ووقت إنتاجها مديد فليس هناك تناسب بين المردود وزمن العمل. إضافة إلى أن وجود التمر قد خف كثيراً.

ومن خلال تقصينا للمعاصر الموجودة وجدنا أنه بقيت ست معاصر فقط في بلدة عربين. وتعمل تلك المعاصر بكامل طاقتها ولكنها لا تؤمن سوى القليل من حاجة السوق الفعلية.

وبتناقص هذه الصناعة نفتقد مادة كانت ضمن مأكولاتنا الشعبية الطيبة(١).

صناعة القمر دين

١- في أوائل حزيران من كل عام يبدأ المشمش تلك الفاكهة الزكية بالنضوج. وكم هي جميلة ومشرقة ارتسامته على لوحة البستان. انسجام لوني مكتمل بين ثمرته الصفراء المشربة بالحمرة، واخضرار ورقته الزاهي. ثمرته ريّا ملأى بمذاق حلو سكري ناعم.

والمشمش أشكال وأنواع يزرع في بلادنا بكثرة. وتجود زراعته في غوطة دمشق الشرقية، والغربية، ومشمش الغربية أطيب وأندى، وفي الساحل، ومحافظة إدلب، وحماه، وحمص، أما أنواعه المعروفة والمشهورة فهي البلدي، والعجمي، والكلابي، والحموي، والوزري، والفرنسي، والسنجاني، واللوزي وكل منها له حجمه، ولونه الخاص به.

---

(١) الراوي- أبو سهيل حليس- متوفى- من عربين.

يؤكل المشمش عند نضوجه، ولكنه ثقيل على المعدة إذا أكثر من أكله، وتصنع منه عدة مأكولات تقليدية هامة في حياتنا. من أهمها مربى المشمش، والقمر الدين، وهناك منقوع المشمش.

والقمر الدين من الصناعات الغذائية الريفية. التي تعتمد على هذه الفاكهة.

٢- أنواع القمر الدين وكيفية صناعته:

القمر دين حرفة غذائية موسمية تنتهي بانتهاء المشمش، وتبدأ مع نضجه. لهذا فهو ليس حرفة لها سمات الحرفة علمياً.

يصنع القمر الدين من نوعين من المشمش هما: ١- الكلابي. ٢- البلدي.

أما أكثر صناعته فهي المشمش الكلابي الذي يعطي إنتاجاً غزيراً وتكثر زراعته مقارنة مع غيره من أصنافه الأخرى. تبدأ صناعته بعملية قطاف المشمش وجمعه في أرض البستان وينقى الحب واحدة فواحدة. ثم يوضع المشمش المنقى في خلقين كبير، وتبدأ عملية المعك. والذي يعمل في المعك يدعى المعاك. وتجري هذه العملية بوجود أكثر من معاك وهكذا إلى أن تنتهي فيبدأ حينئذ نقل المشمش المعصور إلى خلقين آخر، توضع فوقه مصفاة كبيرة تغطي سطح الخلقين تماماً. وتبدأ عملية التصفية وفرز بزر المشمش عن المعصور. ثم ينقل العصير المصفى إلى مكان آخر فيه دفوف خشبية منظفة سطحها مدهون بزيت بلدي وهي المرحلة الثالثة من صناعة القمر الدين. حيث يصب العصير فوق هذه الدفوف. ويبقى عليها حوالي سبعة أيام. وحين يتم تنشيفه يلف ويقطع قطعاً مربعة أو مستطيلة ثم يوضع في إناء كبير.

أما النوع الثاني المصنوع من المشمش البلدي. فيمر بالمراحل نفسها ولكن يضاف إلى المعصور بعد تصفيته في الخلقين الثاني اللوز، إما على

شكل قلب كامل أو نصف قلب. وهناك نوع من القمر الدين يصنع من الخوخ الزليط، والخوخ الأيسري، ويمر بالمراحل ذاتها التي يمر فيها قمر الدين المشمش أثناء التصنيع.

تحتاج عملية تصنيع القمر الدين من سبعة إلى تسعة عمال. إن كانت الصناعة للتجارة أما إذا كانت الصناعة بيتية فيكفي عاملان. وننوه إلى أن الخلقين الذي يستعمل في مرحلتي الصناعة يسمى (تيغاراً).

يؤكل القمر الدين أيام الشتاء، ويستمر موسم أكله حتى الربيع المتأخر إذ يجده الحصادون طيباً في يومهم القاسي. ويؤكل أيضاً في موسم شهر رمضان المبارك وخاصة في السحور. إذ يستطيبه الصائمون لبرودته، وسهولته على المعدة.

تأكل القمر الدين جميع الطبقات بلا استثناء ويعتبر من الأكلات الشعبية اللذيذة. وسورية بلد مصدر للقمر الدين. وتعود صناعته إلى أجيال بعيدة. فهو صناعة سورية تقليدية.

٣- التزيينات على القمر الدين ودلالاتها الأسطورية:

تتزين رقائق القمر الدين ومدّاته بعدة تشكيلات هندسية، ومجسمات من الكواكب، والنجوم. ومن التشكيلات الهندسية المرسومة بقلوب اللوز نجدِ المستطيل، والمعين، والمثلث، وأحياناً الدائرة الناقصة وهناك الخطوط بكل أشكالها، وخاصة المستقيمة المنقطة، والمتقاطعة، والمتعامدة، وهذا كله في القمر الدين الملوز المصنوع من البلدي أما في القمر الدين المصنوع من المشمش الكلابي فترسم هذه الأشكال بالتقطيع بواسطة السكين. وترسم أيضاً مجسمات الكواكب والنجوم وإشارات للشمس.

ومن تحليلنا لهذه الدلالات نستنتج أولاً قدم هذه الصناعة الغذائية ثانياً تأثرها بالأساطير، والعبادات القديمة، وخاصة عبادات آلهة الخصب. ونستدل

على ذلك من المثلثات، والمعينات، أما الدائرة الناقصة فتعبر عن آمال وتفكير الشعب، وسعة أحلامه، ومداها البعيد أما دلالات اسم هذه الصناعة الغذائية ومن أين أتى وإلى ماذا يرمز؟ فيمكن القول أن للقمر علاقة رئيسية في التسمية. القمر الذي حير الإنسان القديم فعبده، وقدسه، ورمز له بعدة رموز وخلد هذه العبادة على كل الموجودات التي شاركته زمنه، وصراعاته ولجمالية القمر أثر في هذه العلاقة. لذلك قرنه الإنسان بأكلة من أكلاته الشهية تخليداً لاسمه وإكراماً لهذه الأكلة.

٤- الموروث الشعبي الأدبي الذي رافق صناعة القمر الدين:

دخل القمر الدين في صميم حياتنا، وأعماقها فتمثلناه لغة حية دافئة انعكست في وجوده التراثي الأدبي. فقد حمل في أدبنا الشعبي. وتجلى في عدة فنون تراثية. واخترق القمر الدين اليومي وذهب في البعيد حيث كرس.

فقد لاحظناه في نداءات الباعة الشعبية. إذ ينادى عليه بعدة نداءات منها:

١- رطب يا قمر الدين. ٢- رطب وبارد يا قمر. ٣- خود قمر الدين وادعي لي يا حزين. ٤- بلبل قلبك بالقمر.

كلها نداءات لجلب المشتري ملأى بالرقة والعاطفة وتشتمل على مزايا القمر الدين، وصفاته، وعلى ما يمكن أن يقدمه للمشتري.

وجاء في الكناية الشعبية:

أحلى سحور سحور القمر الدين: والسحور هو وجبة السحر في رمضان إذ أن لها أهميتها، لهذا يؤكل القمر الدين فيها. فيحافظ الصائم على قوته، وعلى نسبة من الرطوبة، والبرودة تقيه العطش.

وسمعناه في المثل الشعبي إذ ردده الشعب طويلاً، وغار في وجدانه، وسكن أبعاده. فهناك أمثال شعبية عديدة عن القمر الدين منها:

١- **الشتا بدو تين والربيع بدو قمر الدين:** مثل يعيّن موسم أكل هذا الغذاء للرطوبة التي يحملها مزيجه، والفائدة التي يجنيها الإنسان من أكله.

٢- **حزين يللي ما بياكل قمر الدين:** وهذه كناية ذهبت مذهب المثل. فمن ترددها تمثلها الإنسان، وقارن بها الشهي من الأكل مع غيره. ويضرب هذا المثل في عدة مناسبات.

٥- القمر الدين اليوم:

لقد قلت صناعة القمر الدين وأصبحت شبه نادرة في حرفيتها الشعبية، ويعود ذلك لأسباب عديدة على رأسها تبدل الظروف الاجتماعية، وظروف العمل، ومدى مساهمة هذه الصناعة بالإنتاج، ومردودها ثم يأتي دور الصناعة الحديثة ودخول الآلة والمكننة. فأين قطعة القمر الدين المنشف على الشمس حسب الصناعة الشعبية القديمة من قطعة قمر الدين منشفة بالآلة. فحكماً الأولى أطيب وأحلى، ولها نكهة اليد الشعبية، ونكهة أشعة الشمس، ولفح الهواء، ولها رونقها الخاص وجماليتها العالية.

وكصناعة شعبية أصلية وحرفة هامة فلابد من الحفاظ عليها ومنع أسباب زوالها، وتشجيع الفلاحين على الاستمرار بصناعتها حتى لا تذهب هذه الأصالة المتمثلة فيها والإبقاء عليها حية في وجدان إنساننا[1].

الشرشف واختراق حاجز الزمن للصيف والشتاء

يتغاوى في تلاعبه مثل النسيم، يتطاير في مهبات المكان حنيناً وعشقاً، حنيناً طرياً من خلال ثنايا الإنسان، ويتداخل مع الأشياء الرائعة محبةً تَغْزِلُ الليل، وتوشيه في الأمسيات، والعشيات، وتناغيه في غيّة ونداوة. يتلوى

(١) الراوي- نذير حلاق- حي- مواليد ١٩٦٠- عربين.

الشرشف عند المنحنيات البيتية ففي كل حنية (وليوك)[1] مأوى له، حيث تسامر ألوانه الفصول بكل تلويناتها، وتقلباتها، فتسري أغنيته ليلاً، وتسافر نهاراً، ويظل اللحن الشرشفي يتردد في مسامعنا ومسامع الزمن ترددات متواترة. يخترق الأزمنة واصلاً الماضي في عراقته والحاضر في صوره، والمستقبل في ترميزاته دون توقف.

٢- المواد الداخلة في صناعة الشرشف:

نأتي أولاً إلى توصيف ماهية الشرشف:

فالشرشف قطعة مستطيلة على مقاس الفراش أو السرير مع بعض الزيادة ويستعمل واقياً للفراش، وغطاءاً له. وهناك شراشف للزينة حيث يزين بها الفراش، وهي تزدان وتشرشب بالخيوط الملونة.

أما الشرشف فيصنع من:

١- **خيوط القطن:** إذ تحضر تلك الخيوط، وتكون مصبوغة بعدة ألوان منها: الزهري، البرتقالي، الأزرق، الأخضر، الأبيض.

٢- **خيوط الحرير، والساتان:** وهذا النوع من الشراشف أغلى كثيراً من الشراشف القطنية أولاً لغلاء الحرير ثانياً للوقت الذي يستغرقه التصنيع.

٣- **الخيوط:** وهي خيوط من صوف أو قطن تضاف إلى الشرشف للزخرفة بعد التصنيع.

٣- الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:

١- **النول اليدوي:** وقد وصفناه في أكثر من حرفة، وهو لا ينتج الشرشف فقط بل شتى أنواع الأقمشة. والنول اليدوي الذي يُصنّع الشرشف على نوعين:

---

(١) الليوك: فراغ في أحد جدران الغرف في البيوت العربية القديمة توضع فيه الفرش واللحف.

١- نوع لإنتاج الشراشف الحريرية - الساتان ولإنتاج الشرشف الأغباني، ويسمى نول الأغباني.

٢- نوع لإنتاج الشراشف القطنية العادية.

٢- مقصات: وهي مقصات خاصة بالشراشف على مقاييس مختلفة.

٣- مساطر: وهي مساطر حديدية تستعمل للقياسات.

٤- إبر: وهي ذات مقاسات مختلفة لخياطة بعض الشراشف، وتسويتها.

٤- آلية العمل:

تحضر الخيوط المطلوبة حسب المقاييس المعينة إن كان في النول العادي أم في النول المختص لعمل الساتان، والحرير، والأغباني، وتركب على الآلات كسدى ولحمة. ففي الشرشف الذي يدعى شرشفاً محجراً فالسدى يكون (١٦) نمرة غزل واللحمة (٨,٥) نمرة غزل وهو من القطن. أما إذا كان الشرشف من الساتان الحرير فسداه (٢/٢٠) نمرة غزل أما اللحمة فتكون (٨,٥) مرة. أما أطوال الشراشف فتكون على الشكل التالي: العرض (١٨٠) سم الطول (٢٢٠) سم وهذا للمقاييس الكبيرة، أما للمقاييس المتوسطة فيكون العرض (١٦٠) سم بطول (٢١٠) سم.

تلون اللحمة في المصبغة بالأزرق، والأخضر، والزهري، والبرتقالي، والمشمشي، والأبيض.

ينتج النول اليدوي القديم (٣-٤) شراشف من النوع القطني العادي، وتكون الخيوط محلية، ويوجد مثل تلك الأنوال في حلب وتكلف تلك الشراشف كثيراً، والموجود منها (٤) مشاغل فقط، وفي حماة مشغل واحد يضم نولاً واحداً.

وكان الشرشف القديم يسمى الشرشف المقلم الصالحاني، وينتج على نول عربي بخيط أبيض مع بعض ألوان أخرى. والشهرة كانت قديماً في صناعة

الشراشف للشاغور والميدان. ويقال إن أحد صناع الشراشف على النول القديم العربي كان يسمى: (أبو عقيد) وهو من آل الهمّ من الشاغور حارة الإصلاح وكان لديه (١٠) أنوال.

أما النول الآلي الحديث فينتج من (١٨-٢٠) شرشفاً يومياً، ويحتاج لعاملين اثنين فقط.

٥- الدلالات الأسطورية والشعبية في صناعة الشرشف:

دخل الشرشف مجالات حياتنا الاجتماعية اليومية إذ أننا نحتاجه في منامنا، وفي تغطية بعض طراريحنا أثناء الفرش العربي، وفي زخرفة غطاء الفُرش، ومحيطها. ومن مظاهر هذه الدلالات أنه كان من عادات الناس في الأعراس أن يخرجوا لبناتهم ضمن الجهاز الشراشف المزخرفة، والمشغولة، عدا أنه كانت تحضر الشراشف ضمن جهاز العروس العادي الذي يجلبه العريس. وكانت الشراشف تزخرف من قبل الحيَّاكة، أو الشّغالة وترسم عليها بالخيوط الصوفية أو القطنية الملونة أشكال هندسية، أو أشكال من الحيوانات المختلفة بألوان عدة تخالف لونها الأصلي وهذا الشرشف المطرز هو الذي يخرج مع (خرج العروس)[1] من بيت أهلها.

ونجد الشرشف في عدة مناح شعبية حيث جاء في الزغرودة الشعبية مثلاً:

جهازك تكمل ووصوف يا واصف   يا ألف لون ولون فوق الشراشف
سكملات وصناديق من كل شي نايف   واللي يبغض هالعروس قديش هو ناشف

زغرودة من النوع القديم الطويل غنيت بالشرشف، وألوانه، وأنه من مستلزمات الجهاز، وهذه الألوان غطت، وزينت، شراشف العروس، وزينت العروس أيضاً.

---

(١) خرج العروس: هو ما يخرج معها من عند أهلها.

أما في الأمثال الشعبية فقد جاء فيها عن الشراشف عدة أمثال منها:

١- شرشفها أبيض وشجرها أغيض:

وهذا المثل يدل على نظافة العروس، وجمال جسدها، ورقته، وروعة هذا الجمال. لهذا فهي جديرة بأن تكون زوجة. وهكذا رأينا دخول الشرشف، وتعبيراته في تراثنا الشعبي الشفاهي، والمادي، وأهمية هذا الدخول وماذا أعطانا من دلالات.

٧- هذه الحرفة اليوم:

لا ريب أن كل حرفة مرتبطة كوجود، وتطور بمدى الحاجة إليها، واستعمالها. ومن المعلوم أننا لا زلنا بحاجة للشراشف، ولاستعمالها. لذا فنحن نجد أن هناك عشرات الأنوال في مدننا الكبرى تعمل في هذه الصناعة وتنتج مئات الشراشف يومياً.

أما الذي افتقدناه ونفتقده فهو الشراشف القديمة[1] المشغولة على النول اليدوي القديم، وهي ذات السمات العالية الجميلة، والراقية، وهي متينة الصنع، وملأى بالرقة، والحنان كأي مُنتج يدوي، فنحن نتملى القديم والذاكرة ونستمتع بأشهى ما يمكننا حين نلامس شرشفاً مصنوعاً بالنول اليدوي.

ومن هذه النقطة ومن قبيل الحفاظ على تراثنا الحرفي الجميل يجب العمل على تنشيط صناعة الشرشف بواسطة النول اليدوي العربي القديم.

الأطباق وغيرها من الأدوات القشية

قبل حوالي خمسين أو ستين سنة كان من النادر أن تدخل بيتاً في المدينة أو في الريف في سورية دون أن ترى الأطباق على أشكالها، وأحجامها معلقة على

(١) الرواة: الراوي- بشير هيكل- حي- ميدان- جزماتية- عن (أبي عقيد) الهم- شاغور حارة الإصلاح.

الجدران أو مستعملة حسب قيمتها الفنية أو تلاحظ القفف أو القفافير الكبيرة منها، والصغيرة ملأى بالحاجيات اليومية من حبوب متنوعة منها الحمص والعدس أو الفول اليابس الخ.. وكان الأجمل والأحلى من كل هذه الأطباق هو المعلق على الجدران للزينة لما فيه من صنعة، وجماليات لونية وفنية، ومهارة ودقة. وهذه الأشياء تبعث في النفس الاطمئنان، والإحساس بالجمال، والتطلع إلى البعيد البعيد عبر هذا التكوين القشي، وهندسته البديعة.

أنواع الأدوات القشية:

الأدوات القشية التي تصنع من القش أربعة أشكال هي:

١- الأطباق:

وهي أهمها وأشهرها. والأطباق أحجام منها الصغير، ويستعمل لوضع الصحون عليه لإطعام طفل واحد والمتوسطة وتستخدم لوضع مائدة صغيرة لشخصين أو ثلاثة أشخاص، وهناك الأطباق الكبيرة والتي لها استخدامات شهيرة أهمها لوضع المائدة عليها لعائلة كبيرة العدد.

ونستطيع إيجاز استخدام الأطباق فيما يلي:

١- لوضع الطعام فكأنما هي الطاولة أو الصدر النحاسي.

٢- لوضع النقولات وخاصة على الأطباق الصغيرة.

٣- لنقل النقوط في الأعراس أو الأفراح الأخرى.

٤- لهز القمح (وتطريقه) أي تنقيته، وفرز الغريب عنه.

٥- تنقية البرغل من الأوشاب.

٦- لتزيين البيوت، وزركشة الجدران وتجميلها لما فيها من نقوش جميلة، ومدهشة.

٢- القفورة:

القفورة وأحياناً تدعى الشختور وعاء من القش على شكل الطنجرة، وحافتها أضيق في العادة. وهذا الوعاء متعدد الحجوم فمنه الصغير، والمتوسط وله يد متصلة في الأعلى من طرفيه أو يكون بلا يد إذا كان من الحجم الصغير. للقفورة استعمالات كثيرة أول هذه الاستعمالات يأتي من اسمها أو تسمت هي به لأنها تتضمنه وتحمله وهو القفير أي الغذاء. فيمكن أن نقول أنها الأداة التي تحمل الطعام، ويوضع فيها القمح المجروش أو البرغل أو الحمص أو العدس استعداداً لجرشه الخ.. وفي بعض الأحيان تستخدم لحفظ الخبز، إلى غير ذلك من الاستعمالات.

٣- القفة:

القفة تشبه القفورة إلا أنها أوسع منها، وأكبر حجماً فلا توجد قفف صغيرة بل هناك المتوسطة، والكبيرة. وتختلف عن القفورة أيضاً بأن لها يد في كل جانب من جوانبها إذ يمكن أن تحمل من قبل اثنين كل يحمل من جانب، ولها أيضاً استعمالات كثيرة أهمها نقل المواد الغذائية، وتنقل الفواكه، والخضروات. وللقفة القشية منظر بهي حين حملها أو تناقلها بين الأيدي أو أحياناً تحملها المرأة على رأسها من البستان إلى البيت أو العكس.

٤- المشقلون:

وهو وعاء قشي صغير بحجم البطيخة الكبيرة أو الصغيرة. وله شكل دائري أو مخصور. وللمشقلون يد صغيرة واحدة من القش على أحد جوانبه. يستعمل المشقلون لحفظ أدوات الخياطة من كراكر، وخيطان، وإبر، ومكاكيك ويستعمل لحفظ الأزرار، والأشياء الصغيرة التي تحتاجها المرأة في البيت. وفي بعض الأحيان تصنع (مشقلونات) صغيرة للأطفال لوضع حاجياتهم، وللتسلية.

٢- كيف تصنع الأدوات والأوعية القشية:

وسيلة صنع الأدوات، والأوعية القشية هو القش. والقش نوعان:

١- المأخوذ من سيقان القمح.

٢- المأخوذ من قصب البربار وهو النبات الذي يعيش في المناطق الكثيرة المياه ففي أكثر محافظات سورية تصنع هذه الأدوات من سيقان القمح. وفي حمص، وغوطة دمشق، والجزيرة تصنع من نبات قصب البربار.

ففي الصيف وبعد الحصيدة مباشرة يؤخذ القش بعد نزع قشرته أو (فصله) عنه وبعد قص السنابل. وينتقى القش ذو الساق الطويلة الظريفة، ويعلق بشكل حزم كبيرة وحسب الطلب فوق الجدران أو في الأسقف أو توضع في الخزائن الترابية، وتبقى معلقة حتى أواخر الخريف أي إلى حين فراغ المرأة الريفية من كل أعمال الصيف المرهقة من حصيدة، ودراس، وتأمين الطحين، وجرش البرغل (والتكشيك) وحينها تتفرغ للأعمال الأخرى الشتوية من الحياكة، والنسج، وصنع الأدوات القشية وغيرها وهكذا تنزل الحزم من أماكنها وتنقع كل حزمة لوحدها في الماء، وليوم واحد على الأقل. وبعد النقع يصبغ القش بأصبغة متنوعة وخاصة منها النباتي أو الصناعي ومن أهم الألوان التي يلون بها القش يأتي الأخضر، والأزرق، والأحمر، والسماوي، والأصفر وهي الأصبغة الغالبة. ثم يبدأ العمل وغالباً ما يكون جماعياً إذ تلتقي كل مجموعة من النساء من زقاق معين أو حي معين أو من عائلة واحدة. وتكون المجموعة من سبع إلى تسع نساء، وبالمناسبة فهذه الصنعة تخص النساء فقط. والعمل الجماعي له دلالاته الاجتماعية هنا فهو نقل العمل من الحالة الفردية إلى الجماعية. أي تأكيد لدور العمل الاجتماعي والإنساني ثم يبدأ العمل وخاصة في العصرية من كل يوم بأن يؤتى بخمس قشات أو ست وتلف على قشة سابعة وذلك بعد ترقيق القش المراد

استعماله وتتكرر العملية إلى أن يصبح طول اللفة (٣٠) سم إلى (٤٠) سم ثم يأتي دور المخرز، وترقق كل قشة من القشات الملفوفة لوحدها، وتثقب بالمخرز، وتعلق وهكذا وتصنع بالطريقة ذاتها كل الأدوات القشية التي ذكرناها إلى ما لا نهاية. وتجدر الإشارة إلى أن كل الأطباق المصنوعة مدورة.

ومن التقاليد الهامة أثناء العمل أن النسوة يأكلن النقولات، والتين، والزبيب، ويتنقلن فكل يوم عند واحدة من المجموعة حتى انتهاء الدور. وصناعة القش منتشرة في كل أنحاء سورية. ولقد دل البحث خلال بقايا الأدوات القشية واستمرار صناعتها، والنقوش التاريخية على أن هذه الصناعة قديمة جداً قدم الحضارات التي سادت في بلادنا وأن عمر هذه الصناعة لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة. وأن النقوش، والتزيينات التي تحملها هذه الأواعي تدل على سمات وثنية غائرة في القدم.

٣- التزيينات والأشكال الهندسية التي تجمل بها الأدوات القشية ومدلولاتها الأسطورية والفلوكلورية:

من الإطلاع والملاحظة على مجموعات كثيرة من الأدوات القشية في كل المحافظات السورية لفتت نظرنا عدة قضايا هامة في هذا المجال، إذ تبين لنا أن أكثرية التزيينات المرسومة على الأدوات القشية تدور حول مواضيع:

١- الأشكال الهندسية من دوائر، ومثلثات، ومعينات، وبعض الخطوط المتقاطعة، وهذه الأشكال تتداخل مع بعضها فتشكل الدوائر مثلاً دوائر متقاطعة أو متداخلة مع غيرها حيث يدخل المثلث مع الدائرة إلى غير ذلك من التقاطعات. وهناك بعض الأشكال الهندسية غير المكتملة كالمثلث المفتوح إلى الأعلى أو إلى الأسفل.

٢- مواضيع الأشكال المختلفة كرسم الزوبعة والأهلة وغيرها.

٣- مواضيع الموجودات البيئية. كالأشجار، والأنهار، والزهور أو الحيوانات وتأخذ هذه الموضوعات أشياء كل محافظة وموجوداتها الطبيعية. وهنا ندرك تأثر الإنسان بما يحيط به ومحاولة نقله إلى أعماله اليدوية أي محاولة أنسنته والتمازج معه وتخليده.

٤- مواضيع مختلفة كرسم أجزاء الإنسان من عيون وأيد وحتى وجوه كاملة. ولكن التزيين ضمن هذه المواضيع قليل ونادر.

خلال ما أسلفنا يتبين لنا أن الإنسان حاول من خلال الزركشة والتزيين نقل أفكاره، ومعتقداته، ونقل رغباته، وأحلامه، وأمانيه مجسدة على القش بألوان مختلفة لتعيش معه أنى تلفت، وسار أو عمل ولتظل هذه الأفكار والرغبات ملازمة له يتذكرها، ويتعامل معها بروحيته، وزمنه. كما يتبين لنا نقله للبيئة كلها خلال زركشتها وتلوينها ولإبقائها حية، وللشعور الدائم بها في أي فصل، ووقت من أوقات السنة. إذ كان يفتقر إلى الصور الفوتوغرافية ويجب تذكر الأشياء المحيطة به لذلك يراها مجسدة في أعماله. وخلال التزيينات نستنتج تصور صراعات الإنسان اليومية والاجتماعية إن كان في صراعه مع الطبيعة في محاولته تقديسها والخوف منها أو التغلب عليها أو صراعه مع نفسه أو غيره من بني جنسه أي نلمس الصراع الحياتي الطبقي ونستنتج ذلك من هذه الزركشات المنقولة والمستوحاة من حياته اليومية. أما ما نستنتجه من المعاني والرموز الأسطورية في هذه النقوش فهي كثيرة وأهمها ما توحيه الأشكال الهندسية من نجوم، ومثلثات، ودوائر، ومعينات حيث تنقلنا هذه الرسوم إلى دهشة الإنسان البدائية وانفعالاته الداخلية مما يحيط به وإرجاعها إلى قوى خفية ومحاولة تصوير هذه القوى ضمن منظور أسطوري زمني. فالمثلث المفتوح إلى الأعلى، وإيحاءاته، والتداخل الدائري، وما يوحيه من معاني الأسر ومحاولة الانطلاق، وتداخل المستقيمات، وما توحيه من استمرارية الزمن ولا نهائية الوجود بشكل

طفلي، وغير واع، كل هذا يجسد لنا محاولة الإنسان منذ القديم طرح أفكاره، وإدخالها بقالب أسطوري ممتزج بالأشياء، والوجود.

أما ما يرافق العمل في هذه الصناعة من قضايا فلوكلورية فهي كثيرة، وأهمها الأغاني وأهم هذه الأغاني هذه الأغنية التي سمعناها في محافظة دمشق ومحافظة درعا:

غنــوا يــا بنــاتْ غنــوا	بــشغلْ القــشْ وتــأنوا
وحطــوا طبــقْ عــاطبقْ	وخلــوا العــالم يتهنــوا
غنــوا غنــوا يــا بنــاتْ	انقعــوا بــالمي القــشاتْ
وهْــاتوا طبــق الزبيبــاتْ	واحكــوا للعــالمْ عنــوا
غنــوا علــى أكــلْ الــتينْ	والطبــقْ بــدوا يــدينْ
يللــه ارقــصو تــنينْ تــنينْ	والــصبحْ ضــحكْ ســنو

وبمساعدة الغناء يزيد الإنتاج، ويحلو العمل. وأحياناً تتحول ندوة العمل إلى حفلة رقص ومرح وكل هذا يساعد على استمرارية العمل، وتحسين الصناعة لما في الغناء من محرك قوي له تأثيرات في الإنسان. كما، ونشأت عن هذه الصناعة بعض الأمثال التي سارت ولا زالت متمثلة إلى اليوم في حديث الناس مثل:

- (قام من القفة وقعد عالدنب):

حول الإنسان الذي كان مغموراً أو فقيراً وأصبح بين ليلة وضحاها غنياً أو معروفاً دون أن يكون أهلاً لذلك.

٤- صناعة الأدوات القشية اليوم:

تأثرت هذه المهنة الجميلة في عصرنا هذا مثلما تأثرت أكثر الحرف اليدوية بدخول الآلة إلى حياتنا بشكل جامح، وبتغير عادات المجتمع، وتغير نظام حياة الإنسان الاجتماعية وتقلب النظام الاجتماعي المتسارع. فالآلة مثلاً أثرت

سلباً في تحضير القش وتهيئته وهو الأداة الرئيسية في هذه الصناعة. فالحاصدة الآن لا تذرّ القش أو سيقان القمح بل تكسرها في مكانها. وتغير نظام حياة الإنسان قلل الحاجة إلى هذه الأدوات. فتأمين الحاجيات وقلب نظام البناء أديا إلى عدم الحاجة تماماً إلى هذه الأدوات القشية. ثم تأتي قضية العمل والفراغ فالمرأة الريفية لم تبق كما كانت قديماً عاطلة عن العمل في الشتاء فهي الآن امرأة عاملة في شتى المجالات لهذا لم يعد لها الزمن الكافي لهذا العمل. وبقيت قضية الزينة أي وضع هذه الأدوات وأهمها الأطباق في مقام تزيين البيوت والجدران وهنا يستعاض عن الأطباق القشية بالأطباق البلاستيكية الهشة والتي لا تحمل روحية هؤلاء الناس، وشفافيتهم، وحياتهم. وهنا لا بد من التنويه إلى أن وعي الناس هو الذي يحدد موقفهم من هذه الصناعة الجميلة التي لابد من إحيائها والسعي الجدي لكي لا تموت، وتنتهي فأكثر الناس تأثر بالقضايا الاستهلاكية اليومية والصناعة السهلة الميتة التي لا روح لها.

لهذا يجب السعي لتكوين وإنشاء معمل يهتم بالصناعات القشية[1] الرائعة الجميلة وخاصة من نبات قصب البريار، وتشجيع زراعته، لكي لا تفنى هذه الصناعة التي تحمل تاريخنا، وروحنا وتصبح أثراً بعد عين.

صناعة السلال

السلة حديث الحقل والبستان للصباح الإنساني الملون. حروف التفاح، والأجاص، والتوت. موسمها الربيع، والصيف، وأوائل الخريف. وهي أغنية لليد التي تحملها. تتداخل مع نغمة الساقية، والعشب. تترنم مع نشيد الغصن المتدلي الذي حان قطافه. وتتناغم مع الحلم الممتد في رقصة يومية فريدة. سلال، وأياد، وارتباط بين المكان والمكان، والزمان والزمان في لغة معبرة.

(١) الراوية حورية الحلبوني- متوفاة.

في البستان كانت تصطف عشرات السلال من أحجام مختلفة تعبر عن انسجام وتوافق إنساني في الحياة. يتلامح هذا بين الشجرة، والسلة، وبين حبة التفاح السكارجي والسلة. بين الشحرور والسلة، وبين اليد، والسلة. والسلة امتداد لا زال يؤثر في ريفنا. نشهده فننتشي لمرتسمه في وجداننا، وأبعادنا. نذكره ونتذاكر معه فتغزل الذاكرة قصصاً، وحكايات لا تنسى. فالسلة رؤى وفرح، وتناول وعطاء. وهي رحلة في العميق من تاريخنا. وجسر يضيق، ويتسع في مد يتناهى إلينا من أبعاد العصور سلة على الخصر في طريق البساتين تشكل لوحة ملأى بأحلام فيها سحر الماضي ممتداً في روعة الحاضر. علاقات وإشارات تتعانق مع الزمن وكل نبض فيه.

٢ - ما هي السلة:

السلال أوعية مختلفة الأحجام والأشكال تفيد في استعمالات مختلفة. فبالنسبة للأحجام لها أربعة أشكال هي:

١- السلة الكبيرة وتدعى أيضاً بالسل.

٢- متوسطة الحجم.

٣- صغيرة الحجم.

٤- صغيرة الحجم جداً.

وللسلال أشكال عدة فمنها المتطاول العمودي، الدائري الملتف. ومنها شبه المستطيل أو شبه الدائري. ولكل منها يد مختلفة الانحناء في الارتفاع والانخفاض.

أما ألوان السلة فهي البني والأصفر الفاتح وذلك حسباً لنوع مادتها. فالتي تصنع من القصب لونها أصفر، والتي تصنع من صفصاف الحيلاف لونها بني.

تفيد السلال عموماً في حمل الأشياء. إذ تملأ خضرة، وفاكهة من البستان أو السوق، وتحمل على الكتف، والخصر. أما السل الكبير فيحمله

رجلان. وتكون له عادة حاملتان على الجانبين إضافة إلى يده، والحاملتان من مادته ذاتها. وهناك شبه اختصاص في استعمالات السلال. فالسلة الصغيرة جداً تكون عادة لحمل التوت الشامي، والعادي. والسلة الصغيرة للتفاح الفاطمي والسكارجي. أما ذات الحجم الوسط فهي للمشمش، والخوخ، والتين. وتستعمل كذلك للخضار مثل البندورة، والخيار، والكوسا، وغيرها. والسلة الكبيرة تفيد في حمل السفرجل، والكرنب. أما السل الذي يكون عادة أكبر قليلاً من السلة الكبيرة فيستعمل لحمل اليقطين ذو الحجم الكبير. وبعض الأحيان يحمل به الباذنجان وغير ذلك.

وهناك أنواع أخرى من السلال منها:

١- المكبة: وهي بحجم أكبر من السل بكثير وتستعمل لوضع الأكل فيها ولها غطاء واسع. إذ أنها ملأى بالهواء المتجدد حيث أن ثقوبها منسجمة وملاءمة.

٢- الكبك: وهو من القصب أو الحيلاف وشكله مسطح واسع له حافات مرتفعة قليلاً. ويستعمل لوضع الأكل فوقه. ويعلق في فراغ السقف أو العلية أو الرواق بواسطة حبل.

٣- آلية العمل:

تصنع السلال من نوعين من النبات هما القصب وصفصاف الحيلاف. وتصنيع السلال من القصب كان يتم عادة في المدن. مثل دمشق، وحلب، وحمص. أما من صفصاف الحيلاف فكان يتم في الريف السوري الذي يوجد فيه ماء كثير كالأنهر، والينابيع الغزيرة إذ تجود زراعة الصفصاف الحيلاف.

والآلات المستعملة في هذه الصناعة هي:

١- السكين: وتدعى القطفة وهي أكبر من السكين العادية.

٢- المخرز: وهو لثقب القصب أو غصن الصفصاف.

وتصنع السلال من القصب بحيث يؤتى به فيقشر ثم يشق من منتصفه بالقطفة. وتوضع القضبان القصبية في الماء فتتقع حوالي أربع وعشرين ساعة. ثم تمسك كل قصبتين طريتين مع بعضهما وتلفان مع غيرهما لفة واحدة من الأسفل إلى الأعلى، فترسم أولاً قاعدة السلة وتترك لها حواف من القصب لتمسك مع غيرها، وهكذا حتى الارتفاع المناسب. وينتج المعلم الماهر ثلاثة إلى أربع سلال من الحجم الكبير يومياً. وتحتاج السلة ذات الحجم المتوسط إلى عشرة قصبات لصنعها. أما السل الكبير فيحتاج إلى ثلاثين قصبة. والمكبة تحتاج إلى أربعين قصبة لإنتاجها. وقد بقي في دمشق وريفها حوالي ثلاثون معلماً لهذه الحرفة من كبار السن.

أما صناعة السلال من الصفصاف الحيلاف فتبدأ بأن تجلب أغصان الحيلاف من الأشجار، ثم تقص حسب المطلوب. ويبدأ العمل من الأسفل إلى الأعلى وذلك بوضع أربعة صفوف من الحيلاف معاكسة لأربعة صفوف أخرى. وتتداخل هذه الصفوف مع بعضها، وتشد بقضيب مرن آخر من الحيلاف. وتلف حول القاعدة قضبان أخرى لتتوسع ثم ترفع أعواد القاعدة التي تبقى بشكل عمودي منحن إلى الأعلى من كل الأطراف. وتربط بها أربعة قضبان بشكل عرضاني ومعاكس حسب طريقة الحياكة. أي الربط بكل قضيب، وهكذا إلى أن تصل إلى الارتفاع المعين أو المطلوب.

وكانت هذه الصناعة قائمة في سوق وادي بردى والزبداني. ولم يبق الآن أحد يعمل فيها. وكان من أهم الحرفيين رجل ماهر يدعى حسين أحمد علوش من الزبداني.

٤- الدلالات الشعبية في هذه الحرفة:

دخلت هذه الحرفة التقليدية الشعبية في أكثر من مجال من مجالات موروثنا الشعبي الأدبي. إذ لاحظناها في الأغنية الشعبية، والمثل، والاصطلاح،

والكنايات. أما أكثر ما رصدناه فكان في الأغنية الشعبية، وهذا دليل التصاقها بواقع حياتنا، وأعماقها وصلتها اليومية بالإنسان، وعلاقتها بالصراعات اليومية، وقدمها. فسلة الغني الملأى غير سلة الفقير شبه الفارغة.

وأكثر الأغاني التي دخلت فيها السلة كعامل أساسي كانت أغنيات العمل. فمثلاً من أغنية دراس في حوران والسويداء والزيداني ورد:

سـبعا بناتـكْ يـا خـالي	سـبعتهنّ شـغلوا بـالي
أولْ واحـدةْ مـنهنّ بتاكـلْ سَـلْ	بتـشكلْ فُـلْ
وفـوقْ الجَـلْ	ويـا خـالي
وتـاني واحـدةْ مـنهنّ معهـا سـلةْ	فيهـا الغلـةْ
بـأرضْ الدلِـةْ	ويـا خـالي

وفي أغنية دراس أخرى من الغوطة والزيداني ورد:

يـا أمـو غنيلـو عبـو مـلانْ كعـابْ	وسـلتو بايـدو بلملـمْ خـوخْ وعنـابْ
يـا أمـو غنيلـو غنـي لعيونـو	وغنـي لـدياتو وغنـي للجـرابْ
يـا أمـو غنيلـو ويـا أختـو غنيلـو	ويـا عمتـو غنيلـو وغنـي للقبقـابْ

وفي أغنية شعبية تغنيها القطّافات أثناء فصول القطاف نرصد:

يـا مقرومـةْ السـلَةْ	علامـكْ مـا تلتيهـا
عبـي مـن حـشيشْ أخـضرْ	وحطـي بقرانيهـا
عبـي مـن خـويخْ أصـفرْ	تـاتملي نواحيهـا
عبـي التـوتْ المعنبـرْ	وعاخـصركْ احمليهـا

نلحظ العاطفة الفوارة الجياشة في كلمات الأغنية، ومدى معانيها العميقة. وكيف تتاسب القطاف في حركاته وانسجامه مع السلة.

ومن أغنية شعبية معروفة بدمشق نقرأ:

فـوقْ الربـوةْ بـشويةْ سـرقوا الـسَلَةْ　　　لا ذنــبْ ولا أســيةْ يــا أهليــةْ
سـرقوا الـسَلَةْ والغَلَـةْ واللـي فيهـا　　　خلــوا قلبــي يدَّهْــدَى بالعليــةْ

وقد وجدنا السلة ومراميها في أكثر من مثل شعبي منها:

١- حزينْ وقعْ بسلةْ تينْ:

وهو عن الإنسان الذي يفتقر إلى أكلة ما، ويجدها فيغوص فيها تماماً محاولاً أن يأكلها كلها. وأعماق المثل تعني أن على الإنسان أن يتمهل عندما يجد الشيء المفقود هذا أولاً، وثانياً يفسر المثل حالة الفقير الذي لا يملك شيئاً.

٢- بدكْ السلةْ ولا العنبْ:

وهذا المثل يفسر حالة الإنسان الطماع الذي يرغب بأخذ كل شيء له ولا يدع شيئاً لغيره. وخلفيته تعني أن ما يهم الإنسان هو الذي يبحث عنه ويجده. فلماذا يريد الأشياء الأخرى؟ وقد ورد اسم السلة في الاصطلاحات الشعبية وذلك دليل حضورها اليومي وعلاقتها معه وأهميتها بالنسبة له ومن هذه الاصطلاحات:

١- بدو سلتو بلا عنب:

وهذه الجملة من قبيل الكناية والرمز. وتعني أن فلاناً من ضيقه وطول بحثه عن أشياء هامة له صار يرغب بتحقيق أمنية واحدة من تلك الأماني الكثيرة. أما في التشبيهات الشعبية فقد لاحظنا السلة في أكثر من تشبيه ومنها:

١- **راسو قدْ السلْ:** وهو تشبيه للرأس الكبير بالسل.

٢- **متلّل قد السل:** ويشبه به الإنسان صاحب الجثة الضخمة.

٣- **محبتك اللي مثل المي بالسلة:**

فالماء لا يبقى في السلة مطلقاً وكذلك المحب الكاذب فهو يشبه الماء في السلة أي أن حبه كاذب وغرّار. وهذا التشبيه أقرب إلى المثل. وجملة هذه

الأغنيات، والأمثال، والاصطلاحات، والتشابيه تدلنا على مدى عمق الصلة بين الإنسان والسلة. وبقاء هذه الصلة مصورة لنا في الموروث الشعبي ومتمثلة في عدة محفورات إنسانية.

٥- صناعة السلال اليوم:

منذ دخول صناعة اللدائن إلى بلدنا وإنتاج سلال منوعة منها خف الطلب على السلال القشية والصفصافية. وأصبحت الصناعة اليدوية غالية الثمن بالمقارنة مع الآلية. ولهذا بدأ الإنتاج ينخفض وأصحاب الصنعة والمعلمين يتركون هذا العمل. حتى أصبحنا من النادر أن نشاهد سلة من الحيلاف وأصبحت هذه السلال من قبيل الأشياء الثمينة والنادرة.

ولكن السلال القشية لا زالت باقية إلى الآن وهي في طريقها إلى الزوال كما تبين المعطيات اليومية. وكذلك يمكننا أن نقول أن صناعة أكياس النايلون عوضت عن السلة أيضاً، وضربت تلك الصناعة اليدوية التقليدية الجميلة. وحلت السَّحارة أثناء القطاف محل السلة.

وهذه الصناعة اليدوية من جملة صناعاتنا اليدوية الجميلة التي يجب أن تلقى الاهتمام حتى تبقى للأجيال القادمة مشيرة إلى دقة ومهارة إنساننا وخاصة السلة الحيلافية منها.

صناعة السروج

السرج شموخ ورفعة وامتثال

١- ينتصب فوق ظهر الحصان رفعةً، وشموخاً، وانعتاقاً، ويتربع على عرشه الخيال مباهياً، ورافعاً رأسه نحو السماء حنيناً إلى اللانهاية، يلف ظهر الحصان والفرس حيث تتتابع أغنية تحاكي الخيال مع امتثال، وحنو، يصبو ويصبو معه الخيال، يشد صاحبه شداً محكماً حتى لا يميل يمنة،

ويسرى إلا بإرادته البحتة لا يريَح، ولا يتحرك بل يمسك الظهر بقوة رابضاً عليه، ربوض خيّالِه.

عالم السرج، عالم الخيل، والسباقات، عالم الجمال والهمهمةِ والأيام الماضية، وملمحِها. يمور في الذاكرة في حركتها الحية هاجساً للتذكر والرجع، يؤكد على سحر من الماضي البعيد لا زلنا ننتشي حين تذكرِه.

٢- مواد هذه الحرفة:

ككل حرفة تحتاج حرفة صناعة السروج إلى مواد أولية لتصنيعها حتى تصبح جاهزة لتكون السرجِ وتشكله. ونورد فيما يلي أسماءَ هذه المواد:

١- الجلد.

٢- القطن.

٣- اللباد.

٤- الخشب.

٥- قماش مقصب.

٦- الحديد للركابات.

٧- السجاد.

٨- المسامير الكبيرة

٩- مشمع.

١٠- صوف.

١١- براغي.

١٢- خيش.

١٣- جوخ من النوع الجيد.

ولكل مادة من هذه المواد عملها الخاص، فالجلدُ ليغلف السرج أو هو الغطاء الخارجي، والقطنُ للحشوة الداخلية، واللبادُ للحشوة الخارجية، والقماشُ المقصب للشنشلة، والتزيين، أما الحديدُ فللركابات التي يوضع فيها القدمان، والخشبُ للغمد الذي يربط بالسرج، وكان يوضع فيه السيفُ قديماً، ويصنع الغمد من الحديد أحياناً أخرى، أما القربوسُ أي رأسُ السرج ومسكتهُ فهو من الخشب، أما السجادُ فللتزيين، ويوضع فوق السرج، وكذلك هناك ثقب جانبي على طرف السرج لوضع الكرباج أو السوط ويكون على اليمين، والمساميرُ الكبيرة للتزيين.

٣- الأدوات المستعملة لصناعة السرج:

١- قالب خشب.

٢- مخرز.

٣- شنكل.

٤- عدة مسلات.

٥- إبر عدة من النوع الفولاذي القاسي.

٦- شاكوش.

٧- مفك.

٨- مطرقة صغيرة حديدية.

٩- مقص.

١٠- محشاية.

٤- آلية العمل في هذه الحرفة:

تحضر أولاً كافة التجهيزات التي يحتاجها العمل وكذلك الأدوات المستعملة في صناعة السرج.

ويبدأ العمل بتحضير قطعة خيش وحشوِها بالصوف أو بالقطن، وحشوةِ الصوف أفضل بكثير، أما القطن فيكون مندوفاً إلى قطع صغيرة، ثم يركب له طقمُ الخشب وثم طبقتي حشوة، ويلبّس على السطح وجهاً من الجوخ المتين، أو الجلدَ البقري الجيد.

وهناك نوعان من السروج:

١- السرج الجلدي الذي وصفنا آليته آنفاً.

٢- السرج الكتاني.

وتأخذ صناعةُ السرجِ الكتاني الطريقةَ ذاتَها أي أسلوبَ صناعةِ السرج الجلدي. عدا الحشوةِ والتلبيسةِ فإنها تكونُ من قماش الكتان.

ويحشى الصوف أو القطن بواسطة الحشايةِ أو (المحشاية). وكانت تستغرقُ صناعةُ السرج الواحد قديماً أسبوعاً كاملاً، ويدعى مثل هذا السرجِ بالسرجِ الشرقي.

أما المواد التي يشنشل بها أو يزين بها فهي:

١- الحرير. ٢- القصب. ٣- الخرز. ٤- الودع الشرقي.

أما طول مقعده فهو يساوي (٤٠) سنتيمتراً، والطول الإجمالي له (١,٢٥) متراً وربع المتر وعرضه (٤٥) سنتيمتراً والعرض الإجمالي له يساوي متراً.

كانت الورشة تتألف من عاملين إلى ثلاثة. ويحتاج العامل الذكي إلى أربع سنوات ليتقن الصنعة.

وقد أقيم لصناعة السروج في دمشق سوقٌ كاملٌ دعي بسوق السروجية وذلك منذ أربعة قرون أو أكثر لأهمية هذه الصنعة.

وللسرج لوازمهُ العديدةُ التي نعددها فيما يلي:

١- الرسن وهو من الجلد ويعلق بالسرج.

٢- الكرباج أو السوط ويعلق على يمين السرج.

٣- الحزام وهو من الجلد المبطن.

٤- اللجام وهو من الجلد .

٥- الحبل.

٦- الركابات.

٧- مقدمة السرج وهي من الخشب أو الحديد.

٨- الخرج أو (الشنتاية) لوضع لوازم الفارس.

٩- قربة الماء وتدعى (طربة) وهي من الجلد أو الكتان.

١٠- مخلاية الحصان لوضع زوادته فيها.

١١- الطرحة وهي من اللباد القطني أو الصوفي وتخاطُ مع السرج بسماكة (١) سم.

أما المرشحة فهي نوع من السروج الأقل قيمة من السروج الجيدة، ولا يستعملها الفارس في الحرب، وهي غالباً تستعمل للفرس وليس للحصان.

٥- الدلالات الأسطورية والفولكلورية في هذه الحرفة:

وتبدأ بشنشلة السرج، وأطرافه حيث توضع على ناصيته، وأطرافه حباتُ الخرز خاصة منها الزرقاء، وهي للحماية من العين أو للحماية من الجان الأشرار حيث أن اللونَ الأزرقَ هو لونُ الهدوء، والطُهر، وملفى الملائكة لهذا تهرب الأرواحُ الشريرةُ ، وهو لونُ البحر، ولونُ السماء. أما الودعُ الشرقيُ فهو للحماية من الوقوعِ، ودفعٍ للشر، وهذا يحفز الروحُ الأسطوريُ إعطاءَ هذا الودعَ القوةَ الكامنةَ لدفع الأذى.

أما القصبُ فهو للجمال، والزهوِ إضافةً إلى خلفيات اللونِ الأسطورية وما تدلُ عليه من إشارات خصبية عن امتزاج الإنسان بالطبيعة.

وهناك أمثال شعبية عدة قيلت وتقال في مناسبات صنع السروج ومنها:

١- **أُسرجْ تفرجْ.**

٢- **عملْ حيطْ من خيطْ:** وهي تدل على علاقة الصنعة بالإنسان وبالإنتاج والحياة، وعلى أن إنتاجية هذه الحرفة تفرحُ الإنسانَ وتسعدُه.

٦- هذه الحرفة اليوم:

مثلما أشرنا فقد كان لمعلمي هذه الحرفة سوق كامل هو السروجية في مدينة دمشق وهو في محلة السنجقدار وقد كان متصلاً بسوق الخجا وينتهي بشارع الملك فيصل شرقاً، ولا زال هذا السوق قائماً إلى الآن، وقديماً قاد هذا السوق شيخ دعي بشيخ السروجية، والسوق الآن هو للصناعات الجلدية كلها، أما صناع السروج فهم أربع صناع فقط، وعلى رأس هؤلاء: أبو هشام أكرم العيطة، العمر (٦٥) سنة، وكذلك المعلم محمد حمودة أبو سعيد، العمر أربعون سنة، وقد ورث محمد حمودة الصنعةَ عن أبيه، وعن جدهِ محمد عبد الرزاق حمودة.

وقد ظلت هذه الصنعة رائجةً جداً إلى ما قبلِ أربعين سنة، حيثُ كانت الحاجةُ الاجتماعيةُ ملحةً في طلب السروج، وتربيةُ الخيل، ومنتعشة لأسباب عدة أهمُها الانتقالُ، والركوبُ، والسباقات.

أما الآن فقد خفت الحاجةُ إلى استعمال الخيل وتربيتها نتيجةً لكثرة وسائل المواصلات وتحسين الطرقات إلخ. لهذا خفَّ الطلبَ عليها فهجرَها العاملون فيها وذلك لكسب عيشهم عن طريق أعمال أخرى مريحة. وبقيت هذه الحرفة للتاريخ وبقيت مثل (الأنتيكا) النادرة، وقل العاملون فيها كثيراً، وكثيرٌ منهم يفكرُ بتركها لأنها لم تعدْ مريحةً، وللحفاظ عليها يلزمُ عملُ المؤسساتِ والقيّمون على التراثِ لئلا تضيعُ وتنتهي وتذهبُ أدراجَ الرياح مثلما ذهبَ غيرُها من الحرفِ الشعبيةْ.

الحذاء- المركوب الأحمر- والصرماية الحمراء

الزمن والتغيير والإنسان

يطرق المركوب الأرض ويدوس فوقها بخفة تشبه هطول الندى فوق زهرة غضة، أرض الربيع رطبة تنتظر تلك الأقدام، ومجموعات مجموعات من الأقدام تدوس على العشب الطري الناعم، تخترق الطرقات الترابية والدروب الموحية، لغة متناغمة بين الإنسان ومركوبه والأرض، لغة فيها القوة، والنعومة فيها الانتشاء، والغوى، والرشاقة وهاهو الفرح يتناوب فترشقه الأرض إلى الإنسان ليعيد رشقه.

الغوى، والرجولة، والقفز، بحركات متواترة سريعة الكل يتغاوى بين أشجار الزيتون في الحقول الخضراء والكل يحاول أن يطير حينما يلبس مركوبه، والأرض تغني تغني حينما يلمسها المركوب، والإنسان يتغاوى ويغاوي حينما يلبسه. وتتوالى أغنيات الأرض والزيتون والإنسان في فرح لا نهاية له.

- مواد هذه الحرفة:

المركوب حذاء جلدي أحمر ظل يستعمل إلى عهد ليس بالبعيد وهو من إنتاج محافظة إدلب خاصة. وقد استعمل في مجالات ومناسبات كثيرة. وكان من أحذية الغوى عند الإنسان. إذ أن من يلبسه يشعر بالنشوة، والرشاقة. وقد استعملت في هذه الحرفة مواد عديدة نذكرها فيما يلي:

١- أرضية الحذاء- المركوب- وهو من جلد الجاموس أو الجمل، وجلد الجاموس أفضل حيث أنه أمتن، وأقوى وفيه ميزة المرونة.

٢- وجه الحذاء من جلد الماعز.

٣- البطانة من جلود الأغنام.

٤- الضبان ويكون عادة من جلد الحمار أو البغال و الخيل.

٥- خيط التتعيل من القطن بثخن (٦) مم.

٦- الشمع لتشميع الخيوط كلها وذلك قبل أن يعمل بها.

- الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:

كثيرة هي الأدوات المستعملة في هذه الحرفة ولكل أداة من هذه الأدوات عملها الخاص بها الذي يميزها عن غيرها. وأكثر هذه الأدوات أدوات محلية ومن صنع محلي. وندرج فيما يلي هذه الأدوات:

١- حجر زيت. وعمل هذا الحجر هو شحذ العدة كلها، ويكون أمام المعلم لكثرة استعماله.

٢- الكاز. وهو قطعة فولاذية مدببة. رأسها حاد عريض طوله عشرون سم.

٣- المشطة- من نحاس ورمل وأحياناً من حديد، وعمل هذه الأداة دلك الجلد، وتطريقه، وتنعيمه.

٤- طاسة من نحاس أو حديد- يوضع فيها السراس.

٥- السراس- وهو مادة من حشائش الأرض أو من (شرش) بعض الحشائش تصنع حتى تصبح لزجة تستعمل للصق الجلد.

٦- مخرز من الحديد بطول (١٠) سم يستعمل للتثقيب.

٧- خيطان من الصايا أحدهما بثخن (١) مم والثاني بثخن (٦) مم يستعملان للشد، والجذب.

٨- القالب الرئيسي ويكون من خشب السنديان السميك حيث يطرق عليه المركوب، وتوضع عليه بعض الأدوات.

٩- الخوالة- وهي خشبة متوسطة الطول تستعمل بوضعها فوق القالب عند إدخاله بالحذاء.

١٠- الإبر- وإبر المركوب طرية مرنة طويلة وهي إبر متنوعة إحداها بثخن (١) مم والثانية بثخن (٢) مم.

١١- عود همر.

١٢- بيكار من الجلد لتعليم الشق أو الشد أو غير ذلك.

١٣- شمعة- ويستعمل الشمع للتطرية والتنعيم.

١٤- مصة- وهي قطعة من الخشب توضع بين القالب والخوالة.

١٥- الدزكا- وهي من خشب الجوز حصراً لها عدة استعمالات. من أهمها أن الجلد يوضع فوقها عند البدء بتفصيل المركوب أو الصرماية- وقطر الدزكا بين (٥٠-٦٠) سم.

١٦- الهندازة- لكل قياس من الأقيسة هندازة تتناسب مع هندازة النعل والوجه والضبان.

١٧- القلابة- وهي بطول (١) مم وقطرها (١) مم.

- آلية العمل في هذه الحرفة:

تنتج هذه الحرفة حذائين أحدهما يدعى الصرماية والثاني المركوب، والصرماية لها وجه طويل يغطي مساحة أكبر ولها في الخلف زر زيادة، أما المركوب فوجهه أقصر وليس له زر زائد.

يبدأ تصنيع المركوب والصرماية بالتفصيل، حيث يتم التفصيل على الدزكا والهندازة فيوضع الجلد على الدزكا، وتوضع الهندازة ثم يقص الجلد بالكاز على أن لا يترك المعلم قطعاً زائدة منه، ويشد المعلم بفمه القطع المطلوبة حيث يصنع أكثر ما يمكن من وحدات الجلد. بعد القص يدعك الجلد ويفرك حتى يبرغل، ويرص، وتظهر مساماته، وكلما كانت المسام أوضح كان الجلد أفضل.

يتألف الوجه من قسمين خلفي، وأمامي يتصلان ببعضهما بالخيط الرفيع واسم هذه العملية (الخاطي). ثم تبدأ عملية التزييق بوضع قطعة طرية اسمها (زيك) لتأطير الوجه، ويوصَل بها (الحور) ثم تلصق بمادة السراس. وتبدأ بعد ذلك عملية التنعيل من الخلف وهي عملية وضع الضبان على النعل، وخياطة الوجه مع النعل، ولا تتم هذه العملية إلا بعد نقع الجلد بالماء لفترة محددة، ثم يقلب الحذاء على وجهه بواسطة القلابة، وبعدها يدخل القالب بالحذاء وتوضع الخوالة فوقه، وتدخل المصة بينهما لأخذ الوضع النهائي للمركوب أو الصرماية، وينتقل المعلم إلى صقل النعل بالمشطة، ويعمل على قص النعل الزائد بالكاز بطريقة الميل، ويصقله فيظهر كأنه عريض الحافتين، وذلك يحببه إلى الشاري وأخيراً يعامله بأسنانه ليعرض.

كانت الورشة تضم قديماً ستة أشخاص المعلم الرئيسي، وخمسة عمال، وهذا الحد الأدنى، أما الحد الأعلى فهو عشرة صناع المعلم الرئيسي، وتسعة عمال. يمكن أن يعيش الحذاء سنتين أو أكثر ويقال أن أول تصليحة له هي فك اللوزات.

كانت الورشة النشيطة تُصنع ثمانية مراكيب يومياً، ومدينة إدلب هي المدينة الرئيسية في سوريا لهذه الصناعة وقد صُدّرت مراكيبها إلى حماة، وحمص، وحلب، ودمشق وحتى عام ١٩٥٨ ظلت هذه الحرفة هي الحرفة الرئيسية في إدلب إذ وجدت فيها (٣٠٠) ورشة.

وفي الخمسينيات وصل أجر (الأجير) أو (الصانع) إلى (٧٥) قرشاً سورياً في الأسبوع أما العامل الأفضل فكان يتقاضى (١٢) ل.س أسبوعياً ومعظم من يريد التعلم كان يعمل بلا أجر.

وتجمعت ورش الأحذية في سوقين في إدلب في محلة الصليبة.

أما قياسات الأحذية فكانت كالتالي من الكبير إلى الصغير:

١- القبا. ٢- أوزكا. ٣- قرطاية. ٤- زركا ندانة. ٥- قرطايقة. ٦- كشاي. ٧- شبراوية. ٨- عورة. ٩- الحورانية. ١٠- شوكحسبة.

وكل اسم من هذه الأسماء له دلالة معينة.

أما هذه الصنعة فيلزمها سنة كاملة لإتقانها إتقاناً جيداً ويعمل بها في الصيف أكثر من الشتاء.

- الدلالات الأسطورية والفولكلورية في هذه الحرفة:

يدل شكل الصرماية والمركوب على صلة وثيقة بالقديم إن كان في الشكل أو في اللون، فلون المركوب هو الأحمر والأحمر لون الدم أي لون الخصب بشكل ما ولهذا صلة أسطورية، ينقل لنا القديم القديم بتأمله، وصراعه أما شكله فهو الشكل القريب من الأحذية القديمة ضمن حضارات بلادنا.

أما ما حملته تلك الحرفة من فولكلور وما كان يقال أثناء العمل فيها فقد لاحظنا أثناء البحث في ثناياها، واللقاء مع أربابها أن المثل الشعبي استعمل أكثر من غيره من تنويعات الفولكلور. ومن هذه الأمثال التي جمعناها:

١- **صرماياتي وبدك نَصّ**: يدل هذا المثل على الانتقاص من هذه الصنعة والاستهانة بها فكلمة النَصّ تعني الفتوى أو الوثيقة الدينية. ويضرب هذا المثل في مجالات كثيرة، وليس في هذا المجال فقط.

٢- **مصمود يا خف بسوق الجزماتية**: مثل يدل على الاستهانة بالمضروب به وتشبيهه بالخف أي أنه معلق بالعالي وهو قليل القيمة. وذاك الشخص يرفع رأسه، ويشمخ، وهو لا قيمة فعلية له.

٣- **لو هالجزمة من عند كادرش مابدي إياها**: وكادرش هو معلم حرفة قدير جداً يضرب به المثل في قيمة صنعته. فيقال لكل شيء جيد كأنه صنعة

كادرش ومن هنا هذا المثل. أي يقال ولو أن هذه الطاولة على سبيل المثال من صنعة كادرش لا أريدها.

- **هذه الحرفة اليوم:**

بعد هذا العز الذي وصلت إليه هذه الصنعة في أوائل الخمسينيات. بدأت بالتراجع والتراجع حتى وصلت إلى حالة سيئة فهي تكاد تنقرض الآن. ومن خلال التقصي عنها في إدلب وجدنا أن هناك محلين يصنعان الصرماية، والمركوب وحسب الحاجة فقط. ولابد أن هناك أسباب كثيرة لهذا التردي فيها، وعلى رأس ذلك كثرة محلات الأحذية، ودخول الأسباب الاقتصادية، والاجتماعية الكثيرة ضمن ذلك. وغلاء أسعار المركوب غلاءً فاحشاً، وتبدل العادات والتقاليد إذ كان المركوب حذاء الأعراس، والاحتفالات، والمهرجانات الشعبية.

ومن المؤسف أن نفقد هذه الصناعة فهي تصلنا بالآباء، والأجداد، وبفقدها نفقد حلقة لا غنى عنها. ومن هنا دورنا جميعاً في وجوب الإبقاء عليها، وتشجيع العاملين فيها، وتسويق إنتاجهم وتعويد الناس على العودة إلى ارتداء ذلك الحذاء المركوب في شتى المناسبات.

صناعة الشَعر

الشَعر برودة في الصيف ودفء في الشتاء

١- امتداد على مسارات متنوعة يشمخ بيت الشَعر. تزرعه الأيدي ليضم في حنان لا نرى مثيله الأجساد في الصيف، والشتاء حيث تنعم بهدوء جميل، وتتعالى أمراس الشَعر واصلة الأرض بالسماء في شد وجذب يتراءى بينهما الزمان ويتناثر المكان في نشيد من أعماق القلب، والوجدان ، يهز الأشياء فتترنم في حال الانتباه مرددة صدى هذا النشيد في انتشار لا نهاية له. ثم نهيم في جماليات عالية ضن تواصل الإنسان مع الأشياء في لغة مبدعة واحدة. وترقص

الأيدي، والأصابع في جوقة تشدها خيطان الشَعر في واحات الصباح. وفي البعيد ترتسم آية القطعة الشَعرية لوحة تغطي الوجود ناشرة الذوائب في لحمة الأشياء.

٢- مواد هذه الحرفة:

المادة الرئيسية والأولية في هذه الحرفة هي الشَعر. ويؤخذ من مصدرين هما الماعز والنساء، ويستعمل شَعر النساء في الشَعر المصنوع.

وهناك عدة أنواع من الشَعر هي:

١- الطويل. ٢- القصير. ٣- المقصوص من الجلد أي من جلد الماعز الحي.

أما الشَعر الناتج عن الدباغة فهو إما قصير أو طويل والشَعر الأسود يصنع مباشرة بينما الأشقر والأبرش فيصبغ للأسود. ويستعمل الشعر الطويل للسدى، والقصير للحمة لأن نسيج السدى يكون أرفع وأمتن من اللحمة ويكون، الصباغ من الأشقر إلى الأسود بواسطة الماء، والصبغة، والصبغة منها المستورد ومنها المصنع محلياً وبيئياً، حيث يسخن الماء في برميل خاص لدرجة الغليان ثم تضاف الصبغة وبعدها يوضع الشَعر في محلول الصبغة مدة (١٥-٢٠) دقيقة. ثم ينشر، وينقع بماء بارد يضاف إليه قليل من حمض الكبريت لتثبيت اللون ثم ينشر فوق السقوف أو في الساحات ليجف، ثم يخلط الشَعر الأسود العادي مع الأسود المصبوغ بنسب متفاوتة حسب الطلب. وهناك نوع لا يوجد به شَعر أسود مصبوغ أبداً.

٣- أدوات العمل:

١- المشط: وعمله تسحيب الشَعر الملبد على الأسنان حتى ينتج شَعر مسحب وهذا للشعر الطويل.

٢- المندف: والمندف عبارة عن مساحة من الأرض بعرض (١,٥) وبطول (٣) أمتار. تثبت في منتصفها أربعة أوتاد خشبية أو حديدية وتثبت على هذه الأوتاد (٤) أمراس.

٣- الهاطور: وهو عبارة عن خشبة أو قضيب مقوس قليلاً تربط بأسفل الساطور.

٤- الجراب: وهو كيس كبير خاص يوضع فيه الشَعر بعد أن يلف بشكل أسطواني.

٥- دولاب الغزل: وهو نوعان:

١- دولاب غَزْل رجالي يستخدم من قبل الرجال.

٢- دولاب غَزْل نسائي يستخدم من قبل النساء، وأصبح استخدام مثل هذا الدولاب نادراً الآن.

ويتألف دولاب غزل الشَعر الرجالي من:

١- قائمتان خشبيتان تشكلان حرف (٨) بطول (٩٠) سم تقريباً ويثبت عليهما قاطع خشبي مقطعه مستطيل بطول (١٠٠) سم على الأقل. يثبت عليه من الأسفل محور حديدي وهو (سيخ الطارة) ويركب على هذا المحور دولاب خشبي مفرغ يدعى (الطارة) والمؤلفة من محور خشبي ثخين مفرغ من داخله بشكل أسطواني. تثبت على هذا المحور من منتصفه أوتاد خشبية بطول (٢٠) سم. وتثبت على هذه الأوتاد بشكل عرضاني أصابع خشبية بطول (٢٠-٢٥) سم. تربط هذه الأصابع مع بعضها بخيطان مصيص عادية وتشد الخيطان جيداً كي تتماسك كل القبة مع بعضها، والقبة عبارة عن الطارة مع أجزائها. هناك في بداية المحور الخشبي للطارة ثلاثة مخاريط- أثلام كي يمر من خلالها الحبل، أما في القاطع الخشبي فهناك ثلاثة ثقوب ذات أبعاد متساوية، تثبت على القاطع الأول، والثاني قطعة خشبية مثبت عليها مسمارا تثبيت مثقوبان من الأعلى، يوضع خلالهما محور حديدي تثبت عليه بكرة خشبية صغيرة، يربط في نهاية المحور الحديدي خيط بطول نصف متر تقريباً يدعى (الأتاشي) وتنقل الحركة الدائرة بين الطارة، والأتاشي بواسطة خيط متين يدعى (المجر).

وتثبت في الثقب الثالث التابع للقاطع الخشبي قطعة خشبية كمثيلاتها في الثقبين الأول والثاني، ولكن المحور الحديدي الموجود بين قطعتي الحديد المثبتتين ينتهي نهاية منحنية وتدعى هذه الخشبة بالدوار، ويعلق بها خيط وتنقل الحركة الدائرية بين الطارة، والدوار بواسطة المجر وتكون حركته معكوسة عن حركة الأتاشي وذلك لوجود (صلبة) في المجر.

ويثبت في بداية القاطع الخشبي من الأسفل وعلى الوجه العلوي مسمارا تثبيت من حديد مثقوبان من الأعلى يمر خلالها محور حديدي تركب عليه بكرتان خشبيتان تدعيان المتخالفتان بحيث يكون محور الطارة مثبتاً في منتصف المسافة بين مسماري التثبيت المتباعدين بمسافة (١٢) سم، يركب على الدولاب حبل طويل يمر من المتخالفة الأولى إلى سلم الطارة فالمتخالفة الثانية فإلى القرص المثبت في نهاية الدكان أو محل العمل وطول الحبل مثل طول محل العمل عادة ويكون بين (١٢-٢٠) متراً.

٦- القنديل: وهو عبارة عن قرص خشبي صغير مثبت عليه محور حديدي عليه بكرة صغيرة حرة الحركة، وعمله لف الطاقتين بعضهما البعض.

٧- ثقل من حجر أو حديد.

٨- المعّالة: وهي قطعة حديدية أو خشبية تربط إلى الثقل عبر بكرة بمرس رفيع.

٩- آلة من خشب (يكبكب) عليها أو يلف الشَعر.

١٠- زنار الغزل: وهو الذي يربطه الغزال على خصره.

١١- الأتاشي: وهي عبارة عن قطعة من المرس بطول (٣٠) سم.

١٢- البكلة: وهي عبارة عن قطعة من المرس بطول (١٥) سم.

٤- آلية العمل:

تتكون عملية صناعة الشَعر من مرحلتين متصلتين. المرحلة الأولى هي الندف، والمرحلة الثانية هي الغزل والحياكة.

١- عملية ندف الشَعر:

يوضع الشَعر تحت الأمراس ثم يقف العامل (الشّعار) عند (الهاطور) ثم يمسك برأسه بيديه ويحركه إلى الأعلى والأسفل كي يندف الشَعر بقوة، فينتج عن تحريكه تحرك الأمراس إلى الأعلى والأسفل مما يؤدي إلى تطايره إلى القسم الأول من المندف وهكذا حتى ينتهي. تكرر هذه العملية عدة مرات حتى ينعم تماماً. في هذه الأيام ومنذ بداية الثمانينيات يؤخذ الشَعر إلى المندفة الآلية فيندف فيها أو ينعم وبعدها يعاد إلى المندف اليدوي ويندف مرة واحدة لتنعيم ما تلبد منه.

٢- عملية الغزل والحياكة:

يقوم بعملية الغزل شخص واحد يثبت على خصره زنار الغزل الذي تثبت عليه من الجهة اليمنى قطعة من المرس وهي الأتاشي حيث تثبت من ناحيتها العلوية بزنار الغزل، وتثبت عليها من الناحية السفلية قطعة خشبية بطول (١٠) سم الغاية منها مسك حبل الدولاب، وجره مع عامل الغزل أثناء رجوعه إلى الخلف. وتثبت على الزنار من ناحيته اليسرى (بكلة) لتثبيت كبة الغزل. وتثبت على الزنار قطعة مرس بطول متر ونصف حتى مترين لتثبيت الجراب على بطن الغزّال.

وعند دولاب الغزل يربط الغزّال الأتاشي بحبل الدولاب ويضعها على جراب الشَعر، ويقربها حتى تلامسه ثم يرجع إلى الخلف فيشد الحبل معه مما يؤدي إلى دوران الطارة فالمجر فتوليد برم الأتاشي مما يمكن الغزّال من عملية

الغزل بواسطة تحريك أصابع يديه الاثنتين. ويدعى الخيط الناتج عن عملية الغزل (الطاقة)، ويستمر هكذا إلى نهاية مكان العمل يرجع إلى الخلف والدولاب يبرم، ويولد البرمُ غزل الشَعر وهو ما يدعى (بالطاقة). وفي نهاية المكان يقوم الغزّال بوصل الطاقتين بعضهما بعضاً ويعلقهما بالقنديل ويكون معلقاً على الحائط بارتفاع متر ونصف، أثناء ذلك ينزع الخيط من القنديل ويربطه بالبكلة بجانبه الأيسر ثم يقوم بكب أو لف الخيط على طوله حتى دولاب الغزل وعندها ينزع الخيط من الدوّار ليتكون الخيط فيما بعد والغاية من القنديل عند دوران الدوّار أنه يقوم ببرم الطاقتين مما يؤدي إلى قصر طولهما، فيقوم الخيط بشد المعّالة فيرتفع الثقل إلى الأعلى، وعند نزع الخيط يعود القنديل إلى حاله الأول ويعلق الطاقتين وهكذا.

٥- الدلالات الأسطورية والفلوكلورية:

يفعل التراث الشعبي الشفوي فعله في حرفة صناعة الشَعر حيث يعيد للعاملين ذكريات عزيزة عليهم، وأياماً مرت بقيت في وجداناتهم ويساعد في الوقت نفسه على زيادة الإنتاج وزيادة وتيرة العمل، فالعامل يتناقل مع زميله مثلاً شعبياً، ويتندران بتشبيه شعبي ويرمي أحدهم باصطلاح شعبي أو كناية ما وهكذا طوال النهار لتزجية، الوقت والاستفادة من الحكمة، والمعرفة الشعبية.

ومن التشابيه المعروفة في هذا المجال:

١- متل جراب الشعار:

يضرب في الإنسان الذي يحمل كيساً كبيراً يضع فيه أشياء كثيرة، وكذلك جراب الشعار فهو يسع شَعراً كثيراً، ومن هنا وجه التشابه أي السعة، وكبر الحجم، وكذلك مدى الحاجة إلى تلك الأشياء في زمن معين.

أما الأمثال الشعبية فهناك الكثير منها يضرب في حالات هذه الحرفة، وظروفها، ومناخاتها، وعملها، وتحمل دلالات، وخلفيات اجتماعية وإنسانية. ومن هذه الأمثال:

١- بريم بريم يا شعار من تموز لآذار:

مثل يدل في ظاهره على عمل الشّعار، وكيفية هذا العمل، وعلى زمن العمل بالأشهر المحددة، أما خلفية المثل فتدل على حسن تنظيم أي عمل كي يستمر وينتج، ويصبح مثل عمل الشّعار في ترتيبه، وتنظيمه، وبالتالي هو حكمة للحث على هذا الترتيب.

٢- زنار الغزّال بيربط الخيّال:

مثل يدل على مدى قوة زنّار الغزّال ومتانته فهو يشد ويربط الخيّال. والخيّال هو راكب الخيل الذي يكون عادة من أقوياء الرجال. أما معاني المثل الخفية فتدل على أن الأشياء التي يتعامل بها الإنسان في مجال الربط يجب أن تكون قوية، ومتينة متانة هذا الزنار.

٣- الشّعار الشاطر بيكتف الساحر:

مهنة الشّعار مهنة لطيفة، وخفيفة وفيها مهارات كثيرة، ومن هنا جاء هذا المثل ليدل على خفة الشّعار، وشطارته، وبراعته حيث أنه لما يتمتع به من مهارة فإنه يتغلب حتى على الساحر الذي يتصف بالبراعة ويستطيع شده كتافاً وتقييده. أما خلفية المثل فتدل على الحث على تعلم هذه المهنة التي تعلم الإنسان البراعة والذكاء.

٤- حط شَعرة فوق شَعرة وشوف كيف بتعمر العمرة:

ظاهر المثل يحث على تجميع الشَعر والخوض في العمل، والبراعة فيه حيث يرى الشعار نتائج عمله بسرعة، ويستطيع بناء البيوت والعيش برفاهية.

وخلفية المثل تعني الحث على العمل، وإتقانه، والاستمرار فيه حتى يرى الإنسان نتائج عمله، وذلك في أية مهنة وحرفة.

٥- بريم شعرة غزيل شعرة بتزحزح الصخرة:

خطاب إلى الشَعّار وحث له على الاستمرار، والقول بأنه إذا استمر بالعمل فسيحقق المعجزات، وسيكون باستطاعته التفوق في كل شيء. وما الصخرة هنا إلا الشيء المعجز الذي يكون باستطاعته إزاحته عن طريقه.

٦- غزيل غزّلك يا شعّار هدا الشّعر للزنار:

مثل يدل في ظاهره على عدم التهاون والاستكانة في العمل خاصة إذا كانت المادة الأولية جاهزة. وفي خلفياته يدل على أن الاستهانة بالعمل تورث الكسل، والتراكم، وبالتالي الفقر والتوقف.

٦- هذه الحرفة اليوم:

من المعروف أن مدينة يبرود هي من المناطق الأساسية في سوريا بالنسبة لإنتاج الشعر وما ينتج منه، ففيها إلى الآن عشرات المحلات، وهناك محلات لهذه الصناعة في دمشق، وحماة، وحمص، وحلب، ودير الزور. ولكن هذه الحرفة تكاد تنتهي رويداً رويداً. ففي يبرود تناقصت المحلات كثيراً عما كانت عليه وكذلك في دمشق، ويعود هذا إلى قلة استهلاك ناتج هذه الحرفة، فهي تنتج بيوت الشَعر، والعدل، وبساطات الشَعر إضافة إلى أشياء أخرى، وكلها تقل الحاجة إليها ويخف استعمالها خاصة بيوت الشَعر، لهذا ينبغي الالتفات إلى هذه الحرفة وصونها وتشجيع الناس على اقتناء بعض إنتاجها خاصة البساط لتشجيع العاملين عليها، ووقف تدهورها ، ووضعها في برنامج التدريس ضمن المعاهد المختصة[1].

---

(١) الرواة: ١- أبو حسن الشامي- متوفى- دمشق- قبر عاتكة.

٢- أبو سمير- متوفى- يبرود.

صناعة الحصر

يندر أن ندخل بيتاً في أريافنا دون أن نلاحظ في أثاث غرفه الحصر على أنواعها، وأشكالها ممدودة إما وحدها في البيوت الفقيرة أو تحت السجاد العجمي أو البسيط في البيوت الغنية عدا أن النوع الباهي أو الفاخر منها والكبير جداً يمكن أن يمد وحده، وهذا النوع هو الحصيرة (الدباشية). ومرتسم الحصيرة يعطي انطباعاً خاصاً بالجمال، والشعور بالفرح، وذلك لمهارة صناعتها وزركشاتها، ونقوشها البديعة، ولدقة الرسوم على أطرافها أو في وسطها ضمن تكوينات ساحرة فاتنة تعيد ذاكرتنا إلى القديم ، وإلى العصور الغائرة في الماضي لتوحدنا بهذا الماضي، وتنقلنا إليه لنلامسه في هذه المعطيات الرائعة فوق حصيرة على الأرض. فلهذا تأنس أنفسنا، وأرواحنا، ونحن نجلس فوق هذه الحصر، وتتداخل الرؤى مشرقة ملونة تصل الحاضر بالماضي في منظر منسجم مزهر يغني الحياة بعطاءاته المبهجة. وتسمع من خلال هذا الإحساس زغاريد، وأغاني الناس، وموسيقى الأيدي الماهرة التي قدمت لنا كل هذه الجماليات الخارقة. ويظل صوت ألف قيثار يغرد في أجواء البيوت يسهم في بعث رائحة حب الحياة، والناس، والأرض، والعمل في انسجام زمني خالد.

١- كيف تصنع الحصر:

تصنع الحصر من مادتين رئيسيتين هما : ١-الجريح. ٢٠- أشبرة الذرة. أو غطاء العرنوس وورقه.

١- الجريح: وهو نبات بري ذو ساق قاسية جداً. تطول وترتفع بشكل مستقيم بجانب السواقي، والأنهار، والجداول في الأماكن الكثيرة المياه وبجانب البحيرات ويوجد هذا النبات بكثافة في منطقة الزبداني وخاصة في أراضي قرية

عطيب وعلى ضفاف نهر بردى، والأعوج وفي أراضي حمص، وبعض مناطق الساحل، وصافيتا، وقساوة هذا النبات غريبة إذ لا يقطع إلا بالموس الحادة. يقطع الجريح في أواخر الربيع، ويترك أياماً في مكان قطعه لكي ييبس قليلاً، ثم يأخذ إلى البيوت بشكل أضمومات، وشمالات، وتحمله النساء أو يحمل على ظهور الدواب، وينشر ثمة فوق أسقف المنازل حتى يجف، وييبس تماماً في أواخر الصيف، وأوائل الشتاء.

٢- أشبرة الذرة:

ونلفت النظر إلى أن أشبرة الذرة غير شباشيل الذرة. وتوجد هذه الأشبرة في كل مناطق سوريا التي تجود فيها زراعة الذرة، وخاصة في الغوطة، ومنطقة الكسوة، وزاكية، والقنيطرة. وتقطف الأشبرة وتنشر على الأسقف والجدران العالية لتجف، وتنشف، وتصبح صالحة للاستعمال. وفي أوائل الشتاء، وعند انتهاء المرأة الريفية من كل أعمال البيدر وأعمال التهيئة للشتاء. تلتفت إلى الأعمال والمهن اليدوية ومنها صناعة الحصر، فحين تريد المرأة صناعة حصيرة من الجريح تأخذ هذا النبات بعد تيبيسه، وتقوم بفتله فترة مديدة حتى يصبح مثل الحبل الطويل الرفيع إذ تصل السوق ببعضها. وتصير هذه الفتلة مثل (كبكوبة مطوية) وتبدأ العمل في هذه الصناعة عدة نسوة. ثم يؤتى بعصوين طويلتين، وتلف خيوط الجريح على عصا منهما على مبدأ النول، وتتصل الخيوط بعضها بخيطان من المصيص القوي المتين ويبدأ العمل حتى تصنع الحصيرة على القياس المراد. أما أشبرة الذرة فتصنع على حسب المبدأ إلا أن الأشبرة تشرح تشريحاً وتقطع وبعدئذ تفتل. ويلزم عشرون يوماً من الزمن وعمل خمس من النساء لإتمام صنع حصيرة. ويلون الجريح، وفتائله وورق الأشبرة بالألوان النباتية المطلوبة لتأخذ شكلاً أبهى، وأجمل ولتعطي الناظر، والجالس تكويناً أحلى.

وصناعة الحصر في بلادنا منتشرة بشكل كبير. وقد دل البحث خلال الشواهد الكثيرة وبعض المكتشفات وبقايا الحصر القديمة واستمرار صناعتها، ومن النقوش الشعبية على هذه الحصر وما تحمله من تزيينات، وما ترمي إليه. على أن هذه الصناعة قديمة جداً تعود إلى آلاف السنين، وقد عايشت الحضارات التي مرت على بلادنا إذ أعطتها هذه الحضارات، وناسها تاريخها وحياتها، وأحلامها، وكل ما خاضته من صراعات خلال الزمن. والجدير بالذكر أن الحصر قديماً في العراق ومصر قد صنعت من نبات البردي المشهور والمعروف. أما محيط الحصر من كل الأنواع فيخاط حواليه الصوف الملون الأزرق، والأحمر، والنيلي أو القماش السميك وذلك لحفظ الحصيرة طويلاً حتى لا تتلف أطرافها.

٢- أنواع الحصر:

١- **حصيرة الجريح**: وتدعى حصيرة قش الجريح وهي ناعمة متينة تتميز باستطالة شكلها أما مساحتها فحوالي ستة عشر متراً إلى عشرين متراً أي تمد غرفة مساحتها عشرين متراً مربعاً أو أكثر. ونحن نتذكر أن الغرف قديماً كانت واسعة جداً. وتفرش هذه الحصيرة تحت البسط أو تحت السجاد في الشتاء لتدفئة الغرف التي تدفأ عادة بالموقد أو مدفأة الحطب أو المنقل، والحصيرة تساعد على عدم تسرب الرطوبة، والبرد وتحفظ الدفء في الغرفة أو تفرش وحدها في الصيف في المضافات الكبيرة.

٢- **حصيرة الأشبرة**: وتدعى الدباشية، وهي حصيرة سميكة خشنة متينة جداً تعيش لمدد طويلة تستمر عشرات السنين دون أن تفنى، وتفرش تحت البسط في الغرف الواسعة الكبيرة، وخاصة في الشتاء. والحصيرة الدباشية تستخدم في الأماكن الباردة، وفي البلاد الثلجية حيث تمنع الرطوبة، وتسرب

الهواء البارد. والحصيرة الدباشية ذات سمك غير عادي إذ يبلغ سمكها حوالي (٢) سم. وأتى اسم هذه الحصيرة تعبيراً عن شكلها وحجمها.

٣- **الحصيرة البيروتية:** وتصنع من نبات المقشات واستعمالها قليل في بلادنا واستخدامها في المدن أكثر منه في الريف. وسميت هذه الحصيرة بالبيروتية لأنها تصنع في مدينة بيروت. وتمتاز بصغرها أو بحجمها المتوسط.

٤- **الحصر الصغيرة:** تصنع حصر صغيرة الحجم تتسع لواحد أو اثنين. تساعد هذه الحصر الصغيرة لجلسات الشتاء الشمسية أو تستخدمها المرأة الريفية حين تزقيم الخروف وتسمينه. وتصنع من كل أنواع نباتات الحصر من الجريح أو الأشبرة أو المقشات. وهذه الحصر الصغيرة لطيفة سهلة الحمل.

٣- التزيينات والأشكال الهندسة التي تزركش بها الحصر ومدلولاتها الأسطورية:

خلال البحث والاستقراء، والمشاهدة، و المعايشة أثناء الصناعة، وعلى مجموعات كثيرة من الحصر من شتى الأنواع، وفي أكثر المحافظات السورية. فقد تبين لنا أن أكثر التزيينات، والمزركشات والمنمنمات المرسومة على الحصر تدور حول:

١- المواضيع الهندسية التي لها دلالات رمزية أسطورية من مثلثات، ومعينات، وخطوط متقاطعة، ومتعامدة. أو أشكال متداخلة بانسجام جميل كتداخل المثلثات مع المعينات أو الخطوط إضافة إلى أشكال هندسية غير مكتملة مثل المثلث أو المربع غير الكاملين أو المفتوحين إلى الأعلى أو إلى الأسفل.

٢- مواضيع الأشكال المتباينة والكونية، كالأهلة، والنجوم، أو الشموس.

٣- مواضيع الوجود والبيئة كالأزهار والأنهار أو الحيوانات على اختلاف أشكالها. وهي تتناول موجودات كل بيئة على حدة. وما يجود فيها. وهذا يدلنا

على تأثر الإنسان بالمحيط وسر نقله إلى منتوجاته، ومصنوعاته اليدوية لأنسنته، والانسجام معه ومحاولة إبقائه حياً بحياته.

ومن دراسة هذه الموضوعات، والزركشات نعرف كيف حاول الإنسان الريفي نقل إحساساته، وأحلامه، وأمانيه، ومعتقداته لتتجسد على الحصر، وبألوان حارة لتكون معه في كل ظروفه وليتعامل معها بروحيته، وحياته. ونستدل كيف حمل البيئة ولماذا حملها خلال هذه التزيينات الجميلة، ولونياتها لإبقائها ماثلة أمامه ليحس بها في أي زمن، ووقت. إذ أن الإنسان في الماضي كان يفتقد إمكانية التصوير، ويحب تذكر الأشياء المحيطة بأشكالها ومجسداتها. ونقل لنا الإنسان أيضاً صراعاته الاجتماعية كلها، إن كان صراعه مع الطبيعة أو مع نفسه أو مع غيره. وصور لنا الخوف من الأشياء الخارجية، ورعبه منها. أي نلمس الصراع الطبقي مجسداً على الحصر. ونشعر أيضاً بدهشة الإنسان البدائي وانفعاله إزاء عوامل الطبيعة وإرجاع ذلك إلى قوى غيبية غير معروفة لديه، وأخيراً محاولة رسم هذه القوى في منظور أسطوري، وغريب، ومدهش. فتصالب المستقيمات. وما يوحيه من استمرارية، وأبدية، ولا نهائية الوجود بشكل طفولي يروي لنا كيف حاول منذ البداية إدخال عقله وزج أفكاره ولو بقالب أسطوري لفهم الوجود والحياة.

٤- الأغاني والأمثال وغير ذلك من القضايا الفلوكلورية التي ترافق صناعة الحصر:

لقد رافق صناعة الحصر، ومنذ القديم الكثير من الأغاني، والأمثال، والكنى وغيرها من أنواع الفلوكلور. أدت مهمتها المساعدة للعمل أو مهماتها الحياتية الأخرى. فمن الأمثال الشعبية المشهورة حول الحصر:

١- طول مانك عالحصيرة لا طويلة ولا قصيرة:

دلالة هذا المثل الإيجابية أن الإنسان يجب أن يعمل حتى يطور حياته إلى الأمام. وأن لا يبقى على ما هو عليه. يل أن يضع لبنة فوق لبنة حتى يعلو البناء. وأن يفرش فوق الحصيرة بساطاً أو سجادة.

٢- عند العمل في صناعة الحصيرة في البيوت يأخذ الأطفال بأداء أغنية جميلة:

عنـــا حـــصيرةْ   حلـــوةْ وصـــغيرةْ
مـــا أحلاهـــا   بهالــــــــديرةْ
أختــــي فوقــــا   وأنـــا فوقــــا
متــــلْ الأميـــرةْ   متـــلْ الأميـــرةْ

٣- وهناك أيضاً تنويحات تتطرق إلى عالم الحصر، وترمز إلى حالة الإنسان، وحياته، وأمنياته ومنها:

عودْ يا زماني عودْ
نفرشْ حصيرتنا ونضوي ضونا
ويطلعْ علينا ضوْ القمرْ ويعودْ

وبمساعدة الغناء يرتفع الإنتاج ويحلو السهر. وفي بعض الأحايين تنقلب سهرة العمل إلى سهرة فرح، وأنس، ومرح، ورقص. يساعد كل ذلك على استمرار العمل، وتجميله.

٥- صناعة الحصر اليوم:

تتراجع صناعة الحصر حالياً يوماً بعد يوم. إذ تؤثر فيها المعامل والآلات الحديثة التي تصنع الحصر البلاستيكية بسرعة كبيرة، وبأسعار رخيصة. وتتراجع أيضاً نتيجة للظروف الاجتماعية والطبقية الجديدة لا سيما أن هناك تقلبات سريعة في الظروف الآنفة الذكر، وتطورات متباينة، وعاجلة وتتأثر بعمل

الإنسان في الريف، وخاصة عمل المرأة إذ أن الفراغ الذي كان متوافراً منذ سنين، وبكثرة قد قلت فرصه هذه الأيام لأن المرأة الريفية بدأت تدخل مجالات العمل، والحياة العملية أكثر فأكثر والفراغ الشتائي الجميل انتهى تقريباً إلى غير رجعة. لهذا تغير نظام الحياة في بلادنا وأثر ذلك على عادات الإنسان، وأسلوبه في الحياة أي تغيرت نظرته إلى أسلوب المد في البيت وأهميتها، وتغير كذلك نظام البناء حتى في الريف، ونظام التدفئة. كل تلك المفاهيم لعبت دوراً هاماً في تراجع صناعة الحصر، وأثرت سلباً على هذه الصناعة كما أثر عليها الإقلال من زراعة الذرة في بلادنا.

أما الحصر البلاستيكية فإنها لا تحمل روح هؤلاء الناس وتاريخهم لذا فهي جامدة لا حياة فيها، والأفضل تصنيع النباتات الأصلية في المعامل، والاحتفاظ بالتزيينات، والزركشات ذاتها للحفاظ على هذه الصناعة الجميلة وما قدمت لنا خلال قرون وقرون[1].

صناعة الشمع

١- امتداد لنسيج الروح في الزمن، وتناول للبعيد من القريب، واغتراف من دندنات عذراء هكذا الشمع. سريان حتى البعيد الغائر، والغابر، وهو صلة الليل بالنهار، والتحام الماضي بالحاضر، ومنظر الخيال مركون على حافة جدار صخري في معبد قديم ينير بخشوع، وصمت رؤيا في حلم الإنسان. حيث يجمع الخيال في مدار المتخيل من الأشياء، والصور والعلاقات، ويعكس الشمع حكايات المجهول القديم في البيوت، والكهوف، والمغائر، والمعابد استرسال محبة، وفرح. ومن ظلال شمعة تتنادى أغنيات مخبوءة بين الجدران، والصخور، وتتتالى ألحان

(١) الرواة: ١- أم حسين المضاوية- متوفاة- مضايا- صناعة الحصر.

٢-أبو حسين الحصري- دمشق- متوفى- صناعة الحصر.

لا نهائية تفجر الروحَ من الأعماق. ترسم لغة الشمع زمناً متصلاً مع أسفار عريقة فهي احتراق وتناثر، وأنوار، وتواتر، وأنواء، وغيطان. فاستمري أيتها الشمعة بمدنا بالصور، واللقى الملونة. هزي أسجاف الليل تتقاطر الرغبات، وتتشد للحياة أسئلة، وأجوبة. يستمر الشمع في علاقاته الإنسانية ويستمر الإنسان في تناوله للشمع حنيناً، وعطاءً إلى الأبد.

- ما هو الشمع - المواد الأولية الداخلة في صناعته:

الشمع جمع لا مفرد له وهو اسم جنس والمؤنث منه واحدته شمعة والجمع شمعات. وقطر الشمعة يتراوح بين (٠,٥-٥) سم. وهناك شمع للزينة قطره حوالي (١٥) سم، وهو قديم. أما أطوال الشمع فتكون من (١٠) سم إلى (٢) م. وتتعلق الأطوال عادة بالنذور الدينية، وبالأجواء الأسطورية. ولنجاح الأطفال أو شفائهم من الأمراض، أو أعياد الميلاد.

تقسم المواد الداخلة في صناعة الشمع إلى قسمين هما:

١- **المادة الطبيعية:** تسمى شمع العسل، وتستخرج من شهد العسل بعد تصفيته، واستخراج العسل منه. فالمادة التي تبقى تسمى (تفل العسل)، وهي التي يصنع منها الشمع المذكور.

٢- المواد الصناعية وتقسم إلى قسمين:

١- من دهن، وشحم الجمل، والبقر، وبعض الحيوانات الأخرى تضاف إليهما مادة الأهرة، وهي مادة صباغية لصبغ المزيج بالألوان الحمراء أو الخضراء أو الصفراء.

٢- من بعض بقايا، ونفايات المواد البترولية.

- أدوات العمل المستعملة في صناعة الشمع:

استعملت في صناعة الشمع حسب الطريقة القديمة عدة أدوات هي:

١- الحلة وهي نوعان: حجم كبير، وحجم متوسط.

٢- خيطان خاصة من القطن تدعى خيوط الشمع.

٣- الطارة وهي من الخشب.

٤- رخامة ناعمة.

٥- قطعة خشب ملساء.

٦- عصا طويلة ثخينة لتعليق الخيوط عليها حين غطها بالحلة.

وقد استعمل الشمع في عدة مجالات نبينها فيما يلي:

١- الإضاءة: إذ أنه استعمل للإضاءة قبل اكتشاف الكهرباء والنفط.

٢- إنارة المعابد القديمة، والمزارات. إذ أنه له دلالاته القدسية.

٣- في بعض مجالات وحالات الطب العربي.

٤- الأعراس، والأفراح. إذ تشعل الشمعة في جلوة العروس وتدعى (شمعة العرس).

٥- حفلات أعياد الميلاد العامة، والخاصة فيجمع عدد من الشمعات بعدد سنين المحتفل به. ثم يطفئ هذه الشمعات عند بدء الاحتفال.

- آلية العمل:

تجهز حلة كبيرة أو متوسطة الحجم. ثم يؤتى بقالب الشمع ويقسم إلى قطع صغيرة ثم يرمى في الحلة. بعد ذلك توقد النار بكثافة تحتها حتى يذوب القالب تماماً، ويحضر خيط خاص ثخين من القطن يدعى خيط الشمع ثم يغطس فيها إلى أن يأخذ القياس المطلوب. والطريقة التي ذُكرت هي الطريقة البدائية القديمة. وقد تطورت، وطرأ عليها تغير. فالآن يوضع الخيط على بروز طارات دائرية. أما حجم الشمعة فيتحكم به الصانع، فالشمع ذو الحجم الكبير

يصنع بأن يغطس حبل ثخين في حلة كبيرة وبعد أن تكتمل الطارة بالغطس تُنزل من البروزات وتوضع على رخامة ناعمة ثم يبدأ بتدليك وتسييب الشمع بخشبة مسطحة قياس ٣٠ × ٤٠ سم تكون ملساء تماماً، وعملها إعطاء الشمعة شكلها النهائي وإزالة الزائد منها، وتقويم اعوجاجها.

وفي القديم استعملت عصا مستقيمة لتعليق عدد من الخيوط ليتم تغطيسها في الحلة.

وينشف الشمع بسرعة عند ملامسته الهواء فيجمد.

- **الدلالات الأسطورية والشعبية في صناعة الشمع:**

دخل الشمع حياتنا الاجتماعية، وتلافيف ليالينا، وأيامنا وأغنى عالمنا، وأزماننا، وتعمق في أقاصي لغتنا، وشراييننا. وكانت للشمع دلالات أسطورية، وميثولوجية. فالشمع يعني النور، والضوء. وذلك يعني الرؤيا، والاكتشاف. لهذا استعمله الإنسان في بعض حالاته الخاصة. فمثلاً أثناء العرس يعطى الحضور شموعاً وذلك دلالة بشارة الخير للعريس، والعروس. وهناك شمعة العرس المزينة الكبيرة. التي تدل على أمنيات بالسعادة، والفرح. إضافة إلى جو القدسية التي يضفيها الشمع على المكان والحضور في المعابد.

وشارك الشمع كذلك في تراثنا الشعبي الأدبي، وساهم في تكويناته، وحمل أماني الإنسان، وأحلامه. وربط حاضره بماضيه.

فقد لاحظنا الشمع في التشبيهات الشعبية والأمثال والزغاريد والأغنيات. ففي التشبيهات مثلاً جاء:

١- **متلّ الشمعة**: نقول فلاناً (مثل الشمعة) أي أنه ينير على غيره، وهو مضيء يتوهج، وهذا ينطبق على المذكر والمؤنث.

أما في الكنايات الشعبية فقد لحظنا:

١- **فلانٌ شمعةُ البيتْ:** أي الرجل المضيء على البيت. أو رجله الحقيقي الذي يشكل عموده، وركنه المصون.

وقد لحظنا الكثير من الأمثال الشعبية خلال جمعنا للتراث الشعبي الأدبي تتضمن الشمع في نسيجها ومنها:

١- **الشمعةْ بتدوبْ لتضوي عاغيرْها:** وفيه الكثير من المعاني الإنسانية العميقة. إذ أن الشمعة هنا هي الإنسان الذي تهمه المصلحة العامة. فلا يهتم بمصلحته الخاصة مطلقاً.

٢- **يا شمعةَ البيتْ ليشْ ما ضويتْ:** مثل استفهامي موجه في خطابه إلى ركن البيت الذي يجب أن يضيء على غيره. إذ يستغرب المتساءل هذا الموقف، ويضمنه الرأي المعاكس الذي يعني أن فلاناً ليس شمعة البيت، وتسميته بذلك هي من قبيل الخطأ.

٣- **الشمعة وقت حاجتها أحسن من ستين شمعدان:** هذا المثل يعبر عن قيمة الشمعة، ومنفعتها. فهي في ظرف معين أهم من أي شمعدان كبير. ويدل ذلك على أن الشمعة متوفرة بينما الشمعدان لا يتوفر إلا في بيوت الأثرياء.

٤- **يا شمعةْ عمينْ ضويتِ:** لهذا المثل دلالات عميقة في النفس الإنسانية فهو موجه للإنسان الطيب الكريم الذي يخدم عيره. والذين يخدمهم، ويضيء عليهم ليسوا أهلاً لذلك. فهو مثل الشمعة التي تضيء على مكان فارغ، ولا يستفاد من إضاءتها.

وفي الزغرودة الشعبية لاحظنا عدة زغاريد تعنى بالشمع مثل هاتين الزغرودتين:

١- يـا شـمعْ مكـةْ ضـوّيتْ فـوقْ الـدارْ   يـا فـلْ فـتحْ وفـتحْ زرارْ فـوقْ زرارْ
شـمعْ العروسـةْ إلـكْ جـوّات قلبـي سـرارْ   شمسْ وقمرْ عاخدودْ الحلوْ سووا غمارْ

٢- يا شمعة البيتْ نوّرتِ على بابهْ أحلى عريسْ بالبلدْ يا زينْ شبابه

الغرّار غارْ منو وتأخرْ وهابهْ يا سعدْ من ضمهْ ويا سعدْ أحبابهْ

هكذا نرى الشمع في تراثنا ونكتشف كم حلاه وجمّله.

- **هذه الصناعة اليوم:**

صناعة الشمع القديمة مثلها مثل غيرها من الحرف اليدوية الشعبية تكاد تنتهي من حياتنا. حيث أننا في مدينة كبيرة كدمشق لم نشاهد سوى حرفي واحد لا يزال يعمل حسب الطريقة الحرفية القديمة، وهو السيد ميخائيل إلياس. فقد تطورت الطريقة وأصبحت آلية. وتكاد اليوم تنتهي من ذاكرتنا، ووجداننا. رغم أهميتها الفائقة للحفاظ على هذا التراث النادر.

فهي إحدى الحرف اليدوية التي يجب العناية بها. والبحث عن أشكال مناسبة للاستفادة من بقايا الماهرين من مشايخ صناعها حتى لا تنتهي، وتضيع من حياتنا.

الرواة:

١- ميخائيل إلياس - صاحب مصنع يدوي لصنع الشمع حسب الطريقة القديمة- عمره ستون سنة - من مدينة دمشق - معمله في باب شرقي وفي البيت الذي يسكنه. توفي عام ٢٠٠٨

٢- مصادر الشواهد الشعبية هو ما جمعته من المواد الشعبية من أفواه الناس ومن الرواة الشعبيين.

صناعة الموزاييك

مثلما تتراصف أنشودة الصباح في هندسة لحنية مشرقة، وتتسجم نجمات المساء في توافق كوني بديع، وتتشكل بنفسجة مع لِداتها، كذلك تتطابق أغنية كرسي الموازييك في زاوية غرفة عربية رائعة مع الطاولة المتناغمة، والخزانة

الساكنة في ترتيل مدهش. وفي ركن آخر من الغرفة يشد هنا (البيرو) مع مرآته، وفوقه الشمعدانات. ومن بعيد تتعالى أغنية البيت لتلتقي مع أغنية الزهر، والطير، والحياة. ففي كل غرفة سؤال، وفيها أثر معين لقطعة موزاييكية حلوة. ومن النظرة الأولى نقدر مدى قدرة يد الإنسان الحانية التي أبدعت الأثر. هذه اليد التي تطل علينا في كل سم^2 خشبي. مربعات، ومثلثات، ومسدسات، ودوائر. الكل في انسجام غريب يرقص رقصة الإبداع الذي لا مثيل له. تجاوز للمألوف الجمالي والمتعارف عليه. قفز إلى الأعالي في اتساع الفضاء. انسياب في بحر من الروح الهائم في النور. موزاييك، وزمن متوقد مملوء، ومكان من نارنج وياسمين، وجوري. سكون يملأ الأشياء، والدروب الضيقة تحفر الوجدان في الحدائق البيتية. وهنا وهناك تتناثر البحرات الثمانيّة الأضلاع موزعة الماء في الفراغ. زمان وموزاييك، ومكان معشب بالحب، والفرح ونشوة تغطي الموجودات.

٢- مواد هذه الحرفة:

أ - **الخشب**: المادة الرئيسية المستعملة في صناعة الموزاييك وهو على أنواع مختلفة نذكرها فيما يلي:

١- الجوز.

٢- المشمش.

٣- الصفصاف.

٤- الأجاص.

٥- خشب الورد وله أهمية قصوى في هذه الصناعة.

٦- الحور: من نوعيه: الفارسي- الرومي.

٧- الليمون.

٨- الشوح.

تقشر أقسام الأخشاب المذكورة حسب الطلب، وبسماكات مختلفة القياس، والأحجام. وتلون هذه القشور بألوان عديدة حسب النماذج. وهذه الألوان من أنواع لا تحل أو (تبوخ) كي تحافظ على شكلها الأساسي.

ب- الصدف:

يؤتى بالصدف من العظم وهو على أنواع مختلفة، يصنف حسب أحجام متباينة. ولونه أبيض مائل إلى الصفرة.

ج- الغراء البلدي:

وهو من فضلات الجلود غير المذبوحة. وله خاصية، وميزة التلزيق الجيد. إذ أنه يمسك على الخشب جيداً ويصبح كتلة واحدة معه، ويسهل برد الزائد منه ليصبح على سوية واحدة معه.

وصنعة الموزاييك قديمة في التاريخ تقدر بمئات السنين وهي من الصناعات الدمشقية الجميلة والنادرة. وهي حرفة دمشقية بحتة لا يوجد مثلها في سوريا أو أي بلدي عربي آخر سوى مصر. وفي القرن الماضي كانت الحرفة ناشطة جداً في دمشق. حتى أن أحد أربابها وهو جورجي البيطار حاز على لقب باش موزاييكي من السلطان عبد الحميد. ووجدت في نهاية القرن ثلاث ورشات كبيرة جداً. ويلزم للورشة الكبيرة حوالي /٢٠/ عاملاً عدا المعلم ينقسمون إلى:

١- قشّاط عدد ٥.

٢- بردخجي عدد ٥.

٣- غرّاء عدد ٥.

٤- عمال عاديون عدد ٥.

أما المعلم الرئيسي فهو الذي يخطط العمل ويرسم النقش، وتلزم عشر سنوات كي يتعلم الإنسان هذه الحرفة ويتقنها. وهذه الحرفة يدوية بحتة لم تدخلها الآلة إلى الآن إلا قليلاً إذ تغير المنشار وأصبح آلة تسمى بالشلة.

أما المنتوجات الموزاييكية فكثيرة ومنها :

١- طقم استقبال (كنابايات).

٢- طقم (صفرة).

٣- غرف نوم مختلفة.

٤- (بورشبو)- لتعليق الملابس.

٥- الديوان أو الصوفا.

٦- الزنبقة: وهي مرآة عالية.

٧- طاولات الزهر.

٨- شطرنجات.

٩- علب للأفراح.

١٠- مجامع للحلي والسكاكر.

١١- (براويظ) مختلفة.

١٢- (البيرو).

١٣- صناديق الثياب.

١٤- صناديق العرس.

١٥- طاولات المكاتب.

أما الوقت اللازم لكل قطعة كي تصنع فهو مختلف إذ يلزم (للكنابايات) أربعة أشهر و(للبيرويات) شهران، ولغرف النوم عشرة أشهر وللزنبقة شهران، ولطقم الصفرة ستة أشهر.. الخ.

٣- الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:

تستعمل في حرفة الموزاييك أدوات متعددة نذكرها فيما يلي:

١- المقشطة لقشط الخشب.

٢- المنشار لنشر الخشب ومنه الناعم والخشن.

٣- الفارة وهي بعدة قياسات.

٤- السنبادج.

٥- الشاكوش.

٦- الكماشة.

٧- مبارد عديدة بقياسات وأشكال مختلفة منها: ١- المتولت. ٢- السنبلة.

٣- دنب الفار.

٨- مسنّات منها الناعم والخشن.

٩- سقالة مع ملزمة.

١٠- مرابط للضغط.

١١- المسحاج.

١٢- أزاميل متنوعة في الحجم، عرض الإزميل منها بين ٠,٥ سم وحتى ٥ سم.

٤- آلية العمل:

بعد التفكير بتنفيذ عمل ما، وكيف يجب أن يكون شكله، وحجمه، وتزيينه. يطبق هذا الشكل على الورق، وتعين أبعاده بدقة تامة حتى بالميليمتر وأجزائه بالمسطرة والقلم. بعد ذلك يلجأ المعلم إلى رسم العمل مصغراً بالخشب حسب المقاسات المطلوبة ثم يعمل على تنفيذه عملياً.

ويبدأ العمل بالمنشار. والخشبة المخططة تنتج /١٦٠/ قشرة وتدعى (الأماية). فمثلاً عندما يتطلب شكل العمل مثلثاً سمكه (٣ مم)، يقشر ثم يعالج بالقالب المطلوب واسمه (قالب ديل) وله (٣ مم) قشر، وزاويته (٤٥ درجة).

وهناك قالب مسدس أو نجمي، وقالب يعطي (٠,٥) مسدس. أما القالب الذي يدعى (الناب) فيعطي نصف الديل. وهناك قالب (الشفطة) ويعطي نصف قالب (الناب) ويدعى مثمناً. أما شكل المعين فيدعى شعيرة. وإذا أردنا مثلاً مربعاً في الوسط، نعمل على قالب النجمة المربعة ونحضّر مربعاً قطره (٥ مم) على محيطه أربعة مثلثات قطر (٣ مم) يشكل الكل مربعاً كبيراً وعلى رأس كل مثلث شعيرتان يشكلان مثمناً كبيراً. فإذا أريد مثلثاً للنجم، نصنع ثلاث مربعات على الشكل الذي تكلمنا عنه. ثم تلف حولها طبقات من قشر الخشب تدعى (السنان). وهكذا كلما كبرت المربعات، وغيرها تحاط بقشر آخر من الخشب. ثم تصف المربعات جانب بعضها وبينها مثلثات كبيرة وبزاوية (٩٠ درجة) حتى نحصل على المقياس المطلوب. وأثناء العمل يحب أن تكون الأدوات حادة حتى يتم العمل على أحسن وجه.

٥- الدلالات الأسطورية والشعبية في هذه الحرفة:

تأثرت هذه الصنعة بالبيئة تأثراً كاملاً وبرز هذا التأثر واضحاً بالنقوش، والتزيينات، والألوان التي حملتها نتاجاتها. فالبيئة بما تضمه من أشجار، وحيوان، وينابيع، وحتى الإنسان نقشت صورته على الموزاييك. حيث نرى في بعض البقايا القديمة من الكراسي، والبيرويات، والخزائن، وغيرها رسوماً للطيور، والأشجار، ترسم على العظم ثم تنزل على الموزاييك، بواسطة قشر الجوز.

ولكل شكل من الأشكال الهندسية من مثلثات، ومربعات، ودوائر، وغيرها دلالاته الأسطورية ومراميه. إذ يمثل حلم الإنسان، وأمله، وخوفه، وفرحه، وصراعاته اليومية. وما يعتمل في داخله أثناء هذا الصراع، وتفكيره في القوى الذاتية والمحيطة. إلى آخر ما هنالك من قضايا تمس هذه المعاني.

وإذا انتقلنا إلى الدلالات الشعبية فإننا نلاحظ أن عدة أجزاء منها قد دخلت مجريات هذه الحرفة، وكانت معها.

ففي مجال المثل الشعبي استطعنا لحظ عدة أمثال تقال أثناء العمل:

١- لولا الغرى والنشارة لبطل كار النجارة:

وهو تأكيد لوجود مادة (الغراء) وكم هي هامة في مجال عمل هذه الصنعة.

٢- اللي ما ضاق المغراية ما بيعرف شو الحكاية:

مثل له أبعاده، ومراميه. إذ أنه ينصح بعدم إبداء أي رأي دون تجربة، وممارسة.

٣- إذا ابنك فنان علمو الموزاييك يا فهمان:

مثل يصر على تعلم هذه الحرفة، خاصة من قبل من تلمس عندهم علامات الذكاء.

٦- هذه الصناعة اليوم:

صناعة الموزاييك حرفة يدوية هامة. بل هي ثروة وطنية قومية لا تقدر بثمن. وأثر لا مثيل له في مجال الصناعات اليدوية الرائعة، وفي العالم. وقد تعرضت للجمود قليلاً. واستمر هذا الجمود فترة لا بأس بها ثم بدأت تتقدم رويداً رويداً ولكن ببطء لا يتناسب مع أهميتها، وقيمتها الفنية. وفي دمشق التاريخ. دمشق الرمز بعض من نفر قليل لا زال يحافظ، وبشدة على هذه الحرفة ويصر على ممارستها، وتعليمها للآخرين، والحرص عليها.

لكننا يجب ألا نركن إلى هذا التوسع البطيء ونصمت. بل يجب أن نصونها، ونتوسع في تعلمها وتعليمها. وذلك بالعمل على رعاية معلمي، وشغيلة هذه الحرفة، وتدريسنها في المعاهد والإشارة إليها في المدارس، ووضع رسوم بعض منتجاتها في كتب المرحلة الابتدائية المبكرة.

ونَنوه إلى أن أكبر معلمي هذه الحرفة سناً في أيامنا هو المعلم (أبو اسكندر) سركيس أصطفان الذي رغم سنه المديد يمارس العمل يومياً في محله الكائن في باب شرقي ليظل على تواصل يومي، وتاريخي مع هذه الحرفة اللؤلؤة، الحرفة التاج. ولنتقدم بها إلى الأمام لنعيد لها مجدها الكامل ، ونعيد لوطننا فرحته وكامل إشراقه باتصاله روحياً وإنسانياً بحضارته، وإبداعاته الخالدة.

الملاحظات:

الراوي- المرجع- سركيس أصطفان- العمر سبعون عاماً – حي- باب شرقي.

صناعة شواهد القبور

الشاهدة/ الزمن الصامت

زمن واتجاه إلى الأعلى، والشاهدة امتداد للنهاية مثلث رأسه إلى السماء أو قوس ناقص يتلاشى لإنسان إما رجل وامرأة أو ولد، دلالة وإشارة تطورت خلال قرون عديدة، من شكل إلى شكل، وتنوعت، وتباينت من حيث الحجم والرسم والأشكال الهندسية المختلفة حسب ما يتطلب الهدف المنشود.

شاهدة للشُهود أي للرؤيا تبعث الظل مساءً، تحكي عن ذكريات وتذكّر. وهي مبعث للتأمل في سكون، ورعشة، للتأمل والتبصر، والتأسي. ولطرح أسئلة، وأثقال كثيرة، وترداد القول! هنا كان هنا وهنا! شاهدة وراء شاهدة أمام شاهدة في انسجام متناسق على كل الاتجاهات.

الشاهدة رمز واتصال وانفصال وزمن يسلم إلى زمن في تسلسل متلاحق.

١- مواد هذه الحرفة:

حرفة شواهد القبور قديمة جداً. انتشرت في البلدان العربية والمجاورة، وخاصة في المدن، والمراكز السكنية الكبيرة، وقد اهتم بها الإنسان ضمن كل المستويات الاجتماعية ولكن ذوي اليسار تفننوا في تنويعاتها أكثر.

تتشكل الحرفة المذكورة من ثلاث مواد رئيسية هي:

١- الرخام:

يؤتى بالرخام من مقالعه، حسب الطلب، وخاصة الأبيض منه، ويعامل في مكان عمل الحرفي ويمكن أن يستعمل الرخام الحليبي أيضاً واستعمال الرخام يقل عن استعمال الحجر أو الطين، ويكاد يقتصر استعماله على المدن وبعض المراكز أما في الريف ومراكز القرى فاستعماله نادر.

٢- الحجر:

وهو المادة الأساسية في هذه الحرفة، يؤتى بالحجر الصلد من المقالع حسب الطلب، ويعامل في دكان الحرفي حسب المطلوب منه.

وهو أنواع، وأشكال، وضمن تنويعات اللون الأبيض، واستعمال الحجر أكثر من استعمال الرخام بما لا يقاس حسب الحالة الاجتماعية لمن يريد الشواهد، يكثر استعماله في المدن ويقل في الريف كثيراً.

٣- الطين والتراب:

يجلب التراب من أماكنه ويكون من النوع الكتيم الثقيل، ألوانه حسب التربة التي يؤتى منها، واللون البني هو الغالب. تستعمل الشواهد الترابية في القرى، والريف ولها بعض الحضور في المدن والمراكز السكنية الكبيرة خاصة في المقابر القديمة.

٢- الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:

تستعمل في هذه الحرفة عدة أدوات نذكرها فيما يلي:

١- المطرقة وهي تختلف قليلاً عن المطرقة العادية.

٢- متر عادي.

٣- مساطر قياسية عادية من خشب أو حديد.

٤- أزاميل. والأزاميل مختلفة القياسات حسب نوع العمل فمنها: الكبيرة، والمتوسطة، والصغيرة.

٥- قطع خشبية عديدة لتركيز الشاهدة.

٦- سقالات خشبية متنوعة حسب طول الشاهدة وعرضها.

٧- مثبتات حديدية أو خشبية حسب المطلوب، وتدعى بالمشدات.

٣- آلية العمل:

يؤتى بالرخام أو الحجر إلى مكان عمل الحرفي أو دكانه ثم توضع القطعة على سقالة الخشب، ويبدأ الحرفي بمعاملتها بالمطرقة والإزميل والأدوات الأخرى.

يعمل في هذه الحرفة من ثلاثة إلى خمسة أشخاص حسب الورشة، والتسويق، والمعرفة التجارية، والحالة المادية للحرفي، ودكان الحرفي في هذه الحرفة ليست كبيرة جداً.

ويحتاج معلم الحرفة من خمسة أيام إلى عشرين يوماً لإنتاج الشاهدة الواحدة وذلك حسب الدقة والتوصية.

الشاهدة عبارة عن قطعة يتراوح طولها بين (٧٠) إلى (٢٢٥) سم ويتراوح عرضها بين (٢٨) حتى (٥٥) سم.

ويتبع للشاهدة في قاعدتها جرن يدعى جرن الشاهدة، ويستعمل لزراعة بعض الزهور والورود.

شكل الشاهدة شبه مستطيل طولاني يبدأ من الأعلى بنصف دائرة أو بتقاطع مثلث قاعدته في الأسفل.

يحتاج إتقان هذه الصناعة إلى زمن لا يقل عن خمسة أعوام ملأى بالممارسة، والتجربة وهذه المدة للإنسان الذكي والنبيه أما الإنسان العادي فيلزمه

سبع سنوات لإتقان الصنعة. وهي حرفة عزيزة وصناعها قلائل يتمركزون في مدينة دمشق في أخر السنانية بينها وبين محلة الشيخ حسن ويوجد بجانب باب قلعة دمشق الشرقي عدد منهم وفي حي ستي زيتونة اثنان.

٤- الدلالات الأسطورية والشعبية في هذه الحرفة:

يجهد الإنسان الحرفي لتثبيت وتأريخ حياته من خلال عمله إن كان في أغنية أو مثل أو تقليد أو اصطلاح، أو نقش معين بوصفه على زاوية من زوايا العمل كذلك في هذه الحرفة حيث تبدأ هذه النقوش من شكل الشاهدة ذاته إلى النقوش المرتسمة على جوانبها. فشكل الشاهدة الطولاني الممتد إلى الأعلى يوحي بالانطلاق والامتداد إلى الأعلى كرمز للوصول واللقاء، وكذلك تزخرف الشاهدة بزخارف كثيرة، ومتنوعة حيث تدهشنا المنمنمات الهندسية المتباينة في اتجاهات متعاكسة، ونلحظ أيضاً زخارف الورود والزهور التي تدل على الخصب واستمرار الحياة بشكل ما، إشارة إلى حب الإنسان للحياة وكرهه للفناء. فالورد حياة، والزهر حياة، كذلك أوراق بعض أنواع الشجر كالعنب وغيره.

أما ما يقال من أمثال شعبية أثناء العمل في هذه الحرفة أو تمثل ما يهدف إليه فهناك عدة أمثال منها:

١- شاهدتي بتشهد لي لا معزايتي ولا بغلي:

يدل هذا المثل على أن عمل الإنسان وما يقدمه أثناء حياته خلال سلوكه مع الناس هو الذي سيبقى له فلا ماعزه ولا بغاله ولا غناه يمكن أن يشفعوا له في آخرته.

٢- الشاهدة رخام ووراه، وقدامه سخام:

يضرب هذا المثل في الإنسان الرديء والسيئ الذي ترك ذكراً أسوداً بعد موته فشاهدة قبره بيضاء ونظيفة أما الذي تركه فأسود، وسيلاقي مصيراً أسوداً.

صناعة أدوات الكيل

نداء البيدر، والطاحون

من بعيد يتناهى خرير ماء الطاحون، صدى لا كالصدى خاصة في الليالي الريفية المقمرة، حيث ينصت الإنسان إليه تشده عذرية الطفولة، وفرح الإنسان فرح لا ينتهي ضمن ثنائيات، ورباعيات من الموسيقى الكونية الرائعة إنها دهشة الماء، ودهشة الرحى، ودهشة الكيل، والمد، ونصف المد، والثمنية، وغيرها. وهناك الأيدي الحنونة الريّا التي لا تني تعطي، وتعطي.

وعلى البيدر وفوق كومة القمح تتناثر الأغاني مؤكدة اللقاء مع الإنسان في ترديدة ملأى بالحنين وعدٍّ من المكاييل يبدأ بالواحد مع رمزه (الله واحد) وينتقل إلى الثاني مع رمزه (ياالله الأمانة) وهكذا في امتداد. يغني البيدر، وتغني الحبات، ويغني الإنسان في رحلة نهاية الصيف غناء ينتقل إلى المكيال والربعية والمد في تلاقٍ زماني، ومكاني ثري.

٢- مواد هذه الحرفة:

في هذه الحرفة مواد أساسية، تبدأ العمل بها وهي على نوعين:

١- الخشب.

٢- التوتياء.

وتدخل في صناعتها قطع من الحديد تدعى ديما واحدتها ديماية.

والمكاييل المصنوعة من الخشب ناعمة الملمس أو خشنة. أما المصنوعة من التوتياء فتطلى بطلاء مانع للصدأ وهو أبيض اللون أو حديدي من مادة الزئبق. وهناك بعض أدوات الكيل مصنوعة من عناصر أخرى غير الخشب، والتوتياء. ولكنها قليلة واستثنائية. فهناك بعض المكاييل من الفخار وبعضها من تشكيل الآس والقصب، وبعضها من الخوص. وتستعمل هذه المكاييل في مواسم معروفة كموسم

البيادر، وعصر الزيتون، والعنب، وأوقات الطحن، وفي أماكن البيع، والشراء وفي الطواحين. ففي البيادر والطواحين تستعمل المكاييل الخشبية. أما في أماكن بيع الحليب فتستعمل التوتيائية. والمكاييل الخشبية مستعملة أكثر من التوتيائية.

٣- الأدوات المستعملة في صناعة هذه الحرفة:

تستعمل أثناء هذه الحرفة أدوات عديدة. وسنأتي على ذكر تلك المستعملة في أدوات الكيل المصنعة من الخشب وذلك أنها هامة أكثر كما نوهنا.

والأدوات هي:

١- المطواية: وهي آلة حادة من الحديد تشبه السكين وتدعى مطواية خشب.

٢- منشار حديدي: وهو على عدة أنواع ويدعى منشار خشب.

٣- فارة: وهي أداة قبضتها من الخشب وشفرتها من الحديد.

٤- شاكوش: وهو على أنواع منها الصغير ومنها الكبير.

٤- آلية العمل في هذه الحرفة:

تؤخذ قطعة من الخشب وتكون عادة من خشب الجوز أو الحور ثم تحمى على نار هادئة، وترفق بالمطواية حتى تصبح على شكل الدائرة أو على هيئة بيضوية. أما الخشب فيجب أن يكون أخضراً وبعدها يوضع إطار خشبي سميك على حافة الأداة المطلوبة، ويسور بقطعة (ديما) من الحديد تسمي ديماية. تغطى هذه الأداة من أسفلها بقطعة خشبية مدورة من نوع الخشب ذاته. ثم تترك القطعة عدة أيام حتى تصير متينة. وبعد ذلك تباع.

تنتج الورشة المؤلفة من ثلاثة أشخاص حوالي (٢٥-٣٥) قطعة من العلب. وذلك خلال ثمانية ساعات من العمل. وفي دمشق لا يزال هناك حرفي واحد يمتهن هذه المهنة هو السيد موفق العلبي وعمره (٥٥) سنة وهناك حرفيون آخرون في جوبر يمتهنون هذه المهنة.

ورث السيد موفق العلبي هذه الحرفة عن أبيه ثم عن جدّه، وعمل فيها أعمامه أيضاً أي أنها حرفة عائلية. لم يتعلمها أولاده. لأنها لم تعد تلبي الحاجة المادية للذي يعمل بها. ويعمل معه فيها السيدان نسيب العلبي وعمره (٥٤) سنة، وأحمد العلبي وعمره سبعون سنة ويمكن للصانع أن يتعلم هذه الحرفة خلال سنة من التمرين.

٥- أسماء أدوات الكيل:

أدوات الكيل كثيرة ولكل واحدة منها سعة خاصة وهذه هي:

١- **المد**: مكيال من الخشب شكله أسطواني، يسع عشرين كيلو غراماً وهو لكيل القمح. أما مد الحمص فيسع (١٦) كيلو غراماً. ويستعمل المد لكيل الشعير والذرة والبيقياء والعدس والفول.

٢- **الصاع**: وهو مكيال من الخشب يسع أربعة أمداد قديمة. استعمل في البيادر والطواحين.

٣- **الربعية**: مكيال خشبي تسع ربع وزن المد أي خمسة كيلو غرامات. تستعمل في متاجر الأعلاف وفي معاصر الزيتون.

٤- **الثمنية**: مكيال من الخشب تساوي ثمن المد. تستعمل لكيل المؤونة.

٥- **نصف الثمنية**: مكيال من الخشب. يستعمل في البيوت.

٦- **المسحة**: مكيال من الخشب يزن (١٦) كيلو غراماً. دعي هذا المكيال مسحة لأنه مسطح من الأعلى. وهي مكيال ريفي.

٧- **العلبة**: وعاء خشبي يزن (١٥) كيلو غراماً من القمح شكله أسطواني، وهو قريب من المسحة.

٨- **الشنبل**: مكيال خشبي أسطواني يستعمل لكيل الحبوب يسع (٥٦) كيلو غراماً. يستعمل في المدن والأرياف في البيادر، والمتاجر.

٩- **علبة الموالح أو علبه الملحة:** وهي من خشب الجوز تسع (٢٠) كيلو غراماً. تستعمل لكيل الموالح وخاصة في المدن.

١٠- **علب الحلو:** أوعية خشبية متنوعة الأحجام. إذ تتراوح بين ستة كيلو غرامات حتى نصف كيلو غرام. وهي لوزن الحلويات. وخاصة في المدن.

١١- **كيل الزيتون:** وعاء خشبي أسطواني كبير. يستعمل لكيل الزيتون فقط.

١٢- **الكَوْلَكْ:** وعاء من خشب الجوز سميك يسع كيلو غراماً. يستعمل في الريف أكثر من المدينة.

١٣- **المكوك:** وهو من الخشب يسع صاعاً ونصفاً أي بسعة (٣٠) كيلو غرام وهو من المكاييل القديمة.

١٤- **الكيلة:** وعاء قديم يسع عشرة كيلو غرامات وهو من خشب الجوز يماثل نصف المد. إلا أن شكله بيضوي. وجد في المدن والأرياف.

١٥- **الكيل:** وعاء من التوتياء. شكله دائري يسع ستة أمداد من الحنطة. أما كيل الزيتون فيسع ثلاثين رطلاً زيتوناً استخدم في المدينة والريف.

١٦- **الكيلة:** وعاء من التوتياء، تسع رطلاً، شكلها أسطواني استعملت لبيع الحليب. وللكيلة أجزاء وأرباع لسعات مختلفة.

١٧- **الدبية:** وعاء من التوتياء مطلي بالزئبق حتى لا يصيبه الصدأ يسع عشرة كيلو غرامات. يستعمل لكيل الحليب. شكله أسطواني دائري. له فتحة ضيقة، استخدم هذا الوعاء في الأرياف والقرى، وكذلك في المدن الكبيرة.

١٨- **نصف الدبية:** وعاء من التوتياء له ما للدبية من المواصفات يسع (٥) كيلو غرامات وهو لكيل الحليب يستخدم في الأرياف والمدن. كان يحمل على الدواب ويجاب به في الحارات في المدن الكبيرة له يد على جانبه ليحمل بها.

١٩- **القيراطة:** وعاء من التوتياء يستعمل في محافظات طرطوس واللاذقية وإدلب يسع (٨) كيلو غرامات، وهو ذو شكل أسطواني، يستعمل للزيتون، والحبوب في البيوت.

٢٠- **الشفشك:** وعاء من التوتياء يسع كيلو غرامين، يستعمل لكيل الحليب، والزيت في محافظات إدلب، وحماة، واللاذقية، وطرطوس في البيوت الشعبية ولدى مالكي الماعز، وفي المتاجر.

٢١- **السقرق:** وعاء من التوتياء يسع كيلو غرامين من الحليب أو الزيت، يستعمل في كل المحافظات السورية، ولدى الرعاة، وفي المتاجر أيضاً.

٢٢- **القلة:** وعاء فخاري يسع (١٢) رطلاً كانت تستعمل لكيل الزيت في أماكن تصنيعه وبيعه.

٢٣- **البرش:** وعاء كبير من الفخار يسع (٣٠) كيلو غراماً، يستعمل لكيل الزيت في محافظات حمص، وحماة، واللاذقية، وطرطوس، وجد في المتاجر، والمخازن، والبيوت.

٢٤- **القدرة:** وعاء من الخوص لنقل التمر يزن حوالي (٥٠) كيلو غراماً.

٢٥- **الحلة:** وعاء من الخوص يوضع فيه التمر ويسع حوالي (١٥٠) كيلو غراماً أي أنه يساوي ثلاثة قدور.

٢٦- **القفة:** وعاء مصنوع من أعواد الآس والقصب، يسع ثلاثين كيلو غراماً. يستعمل لكيل الزيتون في أماكن زراعته، في معاصر الزيتون ويدعى في اللاذقية، وطرطوس قفيّر.

٦- الدلالات الشعبية والأسطورية:

ذكرت أدوات الكيل في أكثر من نوع من أنواع التراث الشعبي ودخلت نسيج هذا التراث لما لها من حضور وأهمية في الحياة فكانت في الأغنية والزغرودة والكناية والمثل.

فهي في الأغنية دفء وعطاء، وفرح يذكر بقيمتها وزمنها لتتنقل بنا من الماضي إلى الحاضر، وقد وجدناها في أكثر من أغنية في تراثنا، نأخذ مثلاً هذه الأغنية التي تغنى في موسم الدراس وهي للكبار ومن أغاني العمل. تغنى في محافظة ريف دمشق:

ستي زينبْ ورقيةْ	سافروا عالبريةْ
سافروا وما ني معهنْ	ريتْ القوم تصابحهنْ
تصابحهنْ وتماسيهنْ	تلبسهنْ طواقيهنْ
لقومْ شرقْ معهنْ	بركي يصار لي طويقيةْ
من طواقي الحجيةْ	حجيةْ وما حجيةْ
حجيةْ بنتْ السلطانْ	حاجبها يفرطْ رمانْ

يفرطْ مدْ وربعيةْ

فذكر المد، والربعية ملأ الأغنية رقة، وذكرى ونجوى إذ أوحت لنا بدلالات تربط الإنسان بأشياء، وأشياء.

أما في الأمثال الشعبية، فهناك وفرة منها تمتلا بأسماء المكاييل. وأسماء مستعملة منها:

١- شنبلين طحين وكول يا حزين:

وهو حول المؤونة الشتوية والحث على التزود لدفع الحاجة عند الضرورة.

٢- لا تقول فول لنحط بالمكيول:

المكيول أحد أدوات الكيل، وهو يعني عدم التأكيد على شي ء حتى يتم التزود بالمعرفة الكاملة عنه. ويؤكد على وجوب رفض الكلام الخيالي.

٣- البيدر اللي مو إلك لا تحضر كيلو بتغبّر ذقنك وتتعب بشيلو:

يحض هذا المثل على عدم التدخل بالآخرين. فهذا التدخل يشبه حضور كيال بيدر ليس للإنسان فيه شيء سوى الغبار والتعب.

٤- كيل تراب حد كيل تراب ولا قعدة ورا الباب:

المثل تأكيد على العمل ودلالة على قيمته، وميزته عن البطالة. واستعمل الكيل وهو الوعاء الذي يكال به لخدمة معاني المثل العميقة، وتبيانها.

وقد دخلت المكاييل في الكنايات الشعبية، والاصطلاحات، والتشابيه وخدمت من خلال هذه القضايا الحياة. وقدمت لنا مفهومات غنية في نسيج طريف فمثلاً نجد في التشابيه هذا التشبيه:

- متل اللي بكيل البحر بصدفة:

تشبيه مناسب في زمنه، حيث أن البحر مد هائل من الماء، ولا يستطيع أحد كيله فكيف إذا قررنا كيله بصدفة. طبعاً هذا مستحيل، وكذلك الإنسان الذي يرغب في السهر الدائم أو القفز مسافة مستحيلة. ويأتي الكيل هنا ليساهم في تبيان استعمال هذا الشيء. والحديث بصيغة التهكم على أمثال هؤلاء الناس وهناك أيضاً تقاليد شعبية، وتعابير لفظية معينة تقال أثناء الكيل والبيع والشراء تساهم في إتمام الصفقة، وطرح البركة وتأكيد الأمانة. وهي أمل، وحلم بأن يكفي هذا الكوم للمؤونة.

٧- هذه الصناعة اليوم:

لقد تسارع التطور الاقتصادي والاجتماعي والصناعي في بلدنا ونشأت عادات وسبل أخرى في الزراعة غير التي نعرفها. ودخلت التقنية فيها. بدأ هذا منذ مطلع الخمسينيات وما زال مستمراً. وتبدلت عمليات الحرث والزرع، والسقاية. ودخلت الزراعة الحرّاثة والدرّاسة الآلية. كل هذا كان مدعاة لانتفاء الحاجة لأدوات الكيل القديمة إلا في بعض القرى الجبلية النائية. ومن هنا قل عدد الحرفيين في صناعة أدوات الكيل.

وننوه أن صانع المكاييل الخشبية يسمى: العلبي. وهو نجار لا يصنع إلا المكاييل. وقد أصبحت هذه الحرفة نادرة جداً. إذ أن في مدينة مثل دمشق لم يبق

إلا حرفي واحد يعمل فيها كما نوهنا آنفاً. حيث لم يعد هناك تسويق لهذه الأدوات لحلول أخرى محلها. بينما كان في دمشق سوق كبيرة في القرن الماضي يدعى سوق العلبية وكانت الحرفة تعطي مقداراً عالياً من الربح. إذ كانت رائجة إلى حد كبير.

وفي أيامنا يجب الحفاظ على ما بقي كي تبقى هذه الحرفة في ذاكرتنا تذكرنا بالماضي وما قدمته لنا، وعلاقتنا به.

الفخار

حياة منقوشة على التراب تعيش في أعماقنا

تتراءى الخابية القنطارية في زاوية الغرفة الواسعة وكأنها نقش من تاريخ قديم تحكي لنا قصة الحياة الغابرة في بلادنا، تملأ أعماقنا رؤيا ورؤى، وتهز زماننا وحاضرنا داعية إياه للتوقف قليلاً، والتبصر والاستلهام. أما وجداناتنا فتجن شوقاً إلى الاستماع والاستمتاع بنكهة الكلمات، وأنغامها. تعبر الخابية عند الصباحات ذاكرتنا الشعبية طاوية مئات القرون. تنادي بألحان متناسقة، ومنسجمة الأيادي الحانية للتناول والأخذ ثم للخزن والاسترخاء. تضج الحكايات حولها ناعمة راضية. تنادي، تنادي يسمع الصوت الشحرور فيزقزق، ويغني. هو ترتيل الصباح يتلاقى مع الحنطة، والتنور، والمجرود[1] في لغة إنسانية عالية. خابية وفخار وأياد قوية سمراء تغزل التراب كنسيج العشق. ويستمر عزف التاريخ على وتر الحياة مرقشاً بالفخار، مزخرفاً بمتتاليات لونية زاهية تعيش في وجداننا على مر الزمان.

---

(١) المجرود- هو قضيب حديدي بطول متر واحد تقريباً يستعمل في التنانير الشعبية لتحريك النار، وسحب الخبز حين يسقط في التنور.

- **مواد هذه الحرفة:**

تعتمد صناعة الفخار في الدرجة الأولى على مادة التراب، وفي سوريا أهم تراب يصنع منه الفخار هو التراب الأرمنازي، وهذا التراب إما أن يكون عادياً، أو دبقاً والدبق أفضل للعمل، وبعد أن يجلب هذا التراب (يصول) بالأرجل أي ينقى من الخلائط العادية كالأحجار، وجذور بعض الأعشاب والأشجار، والتصويل يكون عادة بواسطة المياه، وفي مكان واسع جداً، ويجب أن يكون هذا التصويل جيداً بمعنى أن يصفى من كل الشوائب. وبعد التصويل ينقل هذا التراب وينشر في الشمس. ولون هذا التراب هو الأحمر وقد دعي بالأرمنازي نسبة إلى بلدة أرمناز، وهي بلدة تابعة لمحافظة إدلب، وقد اشتهرت بترابها، وفخارها، وبهذه الصناعة منذ آلاف السنين.

- **الأدوات المستعملة في هذه الحرفة:**

حرفة الفخار ليست حرفة معقدة فأدواتها بسيطة سهلة هي:

١- المجحاف: وهي الأداة الرئيسية في هذه الحرفة، وفيها يستطيع الفخاري تكوين أشكاله والتعامل معها حسب رغبته. ومادة المجحاف إما من الحديد أو من الخشب. وأكثر الاستعمالات من الخشب وذلك لليونته، وسرعة استجابته للفخاري.

٢- خيط غزل: وله استعمالات عديدة.

٣- دولاب: وهو دولاب خشبي عادي دائري بإطار ١,٤٠ سم يستعمل لوضع التراب عليه.

٤- قاعدة خشبية: وتدفن هذه القاعدة في الأرض كي يتركز عليها الدولاب إذ تشكل نقطة ارتكاز.

٥- الفرن: يصنع فرن الفخار من آجر حجري أسود. ويتسع لـ (٢٠٠) قطعة من الفخار. شكله بيضوي. ولكل فرن ثلاث طاقات للرؤية، والتهوية. ومساحة هذا الفرن (١٦) متراً مربعاً وبارتفاع ثلاثة أمتار أو أربعة أحياناً.

٦- يد الفرن: وهي يد طويلة من شجرة الزيتون أو شجر السنديان حصراً وعمل هذه اليد تحريك الأشكال الفخارية داخل التنور.

٧- تنور وهذا التنور يبنى وسط الفرن وهو المكان الأساسي التي تشتعل فيه النار لتتم عملية الشواء.

٨- الوقود: الوقود الأساسي هو بزر الزيتون وذلك لناره الجيدة، ثم أشجار السنديان والملّول، لقساوتها، وشعلتها القوية.

- آلية العمل في هذا الحرفة:

بعد أن ينشف التراب جيداً. تبدأ عملية دوسه بالأرجل، وتسمى هذه العملية (بالدوسة) والغرض منها التحام التراب بعضه ببعض، وسد مساماته حتى لا تبقى فيه فراغات، وتستمر هذه العملية حوالي الساعتين إذ يكون قد تحول إلى عجينة، بعد ذلك يقطع التراب، ويعجن بالماء العادي، ثم تنقل العجينة إلى الدولاب وتركز على سطحه الأعلى، ثم تعمل يد المعلم الفخاري على تكوين الشكل المراد تكوينه أياً كان هذا الشكل، بعدئذٍ يدور الدولاب بقدمه وذلك لتنظيم هذا الشكل، وتمتينه وتكوين تشكيله الأخير. وبعد أن ينتهي الفخاري من تكوين الشكل ينقله الصانع أو العامل إلى مكان خال حيث يصف بجانب بعضه، وتبدأ حينها عملية التشيف إذ تنشف الأشكال في الشمس والهواء ويستمر ذلك سبعة أيام أو ثمانية صيفاً ومن (١٢-١٥) يوماً شتاءً. بعدها تنقل الأشكال المكونة إلى الفرن الفخاري الذي يتسع لحوالي (٢٠٠) قطعة فأكثر. وتصف هذه الأشكال داخل التنور الذي يكون في وسط الفرن، وتوقد النار في داخله. وبعد أن يمتلأ

بالأشكال تماماً يسد مدخل الفرن بالتراب ثم يطين وتدعى هذه العملية بعملية الشواء بعد ذلك يبدأ الوقود، ومعه تتم عملية رصد الأشكال الفخارية كي تتأكد للفخاري عملية إنضاجها، وذلك برؤيتها من خلال الطَوقِ المهيئة للتهوية والمشاهدة. وعندما تحمر الأشكال يغلق الطاقة المواجهة لها، وينتقل إلى الثانية لمعرفة أين وصل العمل، وعندما يتأكد من نضجها يغلق الطاقة الثانية ثم ينتقل إلى الثالثة، ويرصدها، وحين يتأكد من نضج الأشكال يقوم بإغلاقها. وبين كل إغلاق وإغلاق زمن مدته ساعتان أو أكثر. أما الزمن الكلي لشي الفخار فهو من سبع إلى تسع ساعات.

ثم يطفئ الفرن. وعندما يبرد تخرج منه الأشكال المشوية بواسطة اليد الخشبية. أما عملية تبريده فتكون بواسطة فتح الطوق وتتم هذه العملية خلال ثلاث ساعات. وعند إخراج الأشكال تصف إلى جانب بعضها في الخلاء.

تعمل مع الفخاري ورشة مكونة من أربعة عمال إلى خمسة. أما إتقان هذه الصنعة فلا يتم إلا بعد ثلاث سنوات على الأقل من الممارسة والتعلم، واكتساب الخبرة.

ينتج المعلم الفخاري أشكالاً متنوعة من الفخار هي:

١- الخوابي: وتكون على عدة أشكال، وسعات.

٢- الجرة: وهي منوعة الأشكال، والسعات.

٣- الأصص: وهي متنوعة الحجوم، والأشكال.

٤- البحرات: على أشكال عدة.

٥- الصحون الفخارية.

٦- الطناجر الفخارية.

٧- أشكال للزينة - متعددة الحجوم.

٨- شلالات فخارية للزينة.

٩- قناديل صغيرة.

١٠- أوعية فخارية أخرى: كالأباريق، والكؤوس، والزبادي. وغيرها.

١١- فناجين قهوة.

١٢- طاسات رعبة- مختلفة الأشكال والحجوم.

١٣- حصالات نقود للأطفال- مختلفة الأشكال والحجوم.

١٤- المسامن والنعارات- مختلفة الأشكال والحجوم.

١٥- القدور- مختلفة الأشكال والحجوم.

وقد كان أجر الصانع قديماً مجيدياً أو نصف مجيدي أو ثلاثة أرباع المجيدي. وهذه الحرفة دائمة، وليست موسمية أي أن العمل فيها صيفاً، وشتاءً. وكانت ملابس العمال والمعلمين متشابهة أي هي السروال والمنتان.

أما حول زخرفة، وتشكيل الفخار فتتم قبل إدخال الشكل المعني إلى الفرن، حيث يزخرف بمواد لامعة توضع في جرن كبير ويغطس الشكل المراد تشكيله. وهذه المواد هي الرصاص وغيره.

- الدلالات الأسطورية والفلوكلورية في هذه الحرفة:

يزخرف الفخار، ويلون حسب الطلب وتكتب على هذه الزخرفة الآيات القرآنية مثل (بسم الله) وأسماء (الله) وغيرها. وترسم على الزخرفة أشكال هندسية عديدة كالمثلث، والدائرة، والمربع، والخط مع زخرفات تحزيزية عدة. كل هذا لتأكيد العلاقة والصلة مع أسطرة الزمن، والعلاقة مع الإنسان، والمكان، أما ما هي الفائدة من ذلك فللحرص على حفظ الإنسان وصونه وتأكيد أنه لايخالف المراد منه ولتأكيد الوجود الإنساني، وتحقيقه من خلال إيجاد هذا الشكل أو ذاك من تكوين هذا الفن.

كما أننا رصدنا خلال البحث والتقصي أمثالاً عدة حول الفخار منها:

١- كيف ما راد الفخاري بركب إدن الجرة:

أي أن أي صانع ماهر يكون الشكل الذي يريد دون تعب أو خطأ، والعكس هو الصحيح. ومن يتعدى على صنعة غيره فلن ينجح. يضرب هذا المثل من خلال تحقيق الشيء المراد من قبل أي شخص ماهر في عمله.

٢- طب الجرة عاتما بتجي البنت لأما:

وهذا مثل مقارنة فمثلما يغلق فم الجرة حين وضعه إلى الأسفل ولا يتغير ولا تتغير الجرة ويتطابق مع أمه الجرة كذلك البنت الصبية فإنها تشابه أمها في كل شيء فهي منها مثلما فم الجرة من أمه الجرة. ويضرب المثل في عدة تشابهات.

٣- القدرة عيرت النعارة قالتلا جيت أنا وإياك عافرد حمارة:

وهو مثل مشابهة ومقارنة. فالقدرة من الفخار وكذلك النعارة وقد تكونان آتيتان من معمل واحد وحملهما حمار واحد. فكيف يحق للقدرة أن تغمز من طرف النعارة. إن هذا غير إنساني. يضربه الإنسان لإنسان آخر مثله في كل شيء. أو يضربه أحياناً لإنسان أغنى منه أو أعلى وظيفة ولكنه وإياه يشتركان في الشكل والإنسانية.

ومن تقاليد هذه الصنعة قديماً أنه كان يؤتى بقارئ قصص شعبية ليقرأ للعمال أثناء الاستراحة ليسليهم ولهذا خلفيته إذ أنه يمكن أن يحسّن أداء العمال، وينشط هممهم.

- هذه الحرفة:

كانت هذه الحرفة رائجة جداً في القديم، ولها استعمالاتها. فكل الأدوات من الفخار بما فيها أدوات الطعام، والشراب، وغيرها لهذا انتشر صانعوها في أكثر أنحاء سورية، وانتشرت مصانعها، وأفرانها، واشتهرت بعض الأماكن بفخارها مثل أرمناز في سوريا وعيتا في لبنان إذ يقال لها (عيتا الفخار).

أما الآن فقد خف ومنذ سبعين سنة أو يزيد استعمال الفخار فتناقصت المعامل، وهجر الصانعون معاملهم حيث أن الإنتاج كسد، وبالتالي قل المردود المادي. وذلك رغم ما للفخار من فوائد جمة، وما لأوعيته من جمالية خاصة. حيث أن الأوعية الفخارية لها شاعريتها، ورومانسيتها، وما تتركه من أثر في النفس من الهدوء إلى التأمل، والتذوق فللفخار عالم خاص لا يعوض عنه شيء أبداً. لهذا يجب العناية بهذه الحرفة وبمن تبقى من أهلها كي لا تموت وتنتهي. ولو أننا هذه الأيام نشهد عودة، ولو هامشية لهذه الصناعة وخاصة منذ مطالع الثمانينيات، وذلك لإقبال السياح الأجانب على شراء بعض القطع الفنية المزخرفة من الفخار. يلزم لهذه الصناعة قبل أن تنتهي تضافر الجهود الكثيرة. من مثقفين من شتى الأنواع إلى المفكرين، والأدباء عامة، وإلى المسؤولين عن هذه القطاعات.

أما أكبر فخاري في سوريا اليوم فهو (عيد دبّو) ولديه معمل فخار وعمره حوالي ثمانون عاماً وهو خزاف وزخرفي وفخاري شهير، وهناك أيضاً (حسيب عجمية) وهما اللذان صبا قالب الزجاجيات الشهير، وهناك أيضاً (سعيد دبّو) و(كريم المبيض) وهما شهيران في عملهما.

وهناك حوالي عشرة معامل فخار في أرمناز، ويوجد بعضها في حلب، واللاذقية، وفي دمشق ثلاثة معامل،وفي القامشلي معمل وفي دير الزور معمل واحد.

ويوجد في دمشق حارة تدعى حارة الفواخير، تدل على ما كان لهذه الصنعة من قيمة سابقة.

ملاحظات:

١- المراجع - الرواة:

١- حسيب عجمية.

٢- سعيد دبّو.

٣- كريم المبيض.

الباب الرابع

الرواة:

الرواة هم من سمعت منهم هذا التراث الشعبي الشفاهي الذي قدمته في كتابي، وجلهم ممن يعملون في الحرف التي درست في الكتاب، وأحياناً يتحدث عن الحرفة اثنان وفي أحيان أخرى ثلاثة رواة. وحديثهم صادق لأنهم يعملون في الحرف ذاتها، ولابد من التنويه أنني رأيت هؤلاء وسمعت منهم من بدايات التسعينيات في القرن السابق حتى أواخرها أي أن بعض الذين كانوا أحياء يومها خاصة من كبار السن قد يكون توفي لذا وجب التنويه. وقد يكون أحدهم ترك العمل في الحرفة وأنا لا أدري.

الرواة:

١- حسن الداري- دمشق- متوفى.

٢- فاطمة محمد رمضان- زيداني- متوفاة.

٣- صالح الدوماني- معضمية القلمون- متوفى.

٤- أحمد الإدلبي- دمشق- حي.

٥-سارة عواد- زيداني- حية.

٦- فلك ديوانة- دمشق- حية.

٧- جميلة الطباع- زيداني- حية.

٨- منيرة رمضان- زيداني- متوفاة.

٩- محمد خير جنيد- دمشق- حي.

١٠- ياسين جنيد- دمشق- متوفى.

١١- حسين المرعي الأحمد- القامشلي- متوفى.

١٢- السيدة خرما- دوما- متوفاة.

١٣- آل طباخة- آل سكر- آل دبانة- دمشق.

١٤- محمد حمدي طباخة- دمشق - متوفى.

١٥- حمدية طباخة- دمشق- متوفاة.

١٦- قاسم الحنفي- دوما- حي.

١٧- أحمد النويلاتي- دمشق- متوفى.

١٨- محمد بن أمين سرغايا- دمشق- حي مواليد ١٩٢٣.

١٩- أبو عيد- ياسين هيكل- دمشق- ميدان- حي مواليد ١٩٢٤.

٢٠- عبد العزيز الدرسوني- دمشق- متوفى.

٢١- آل القتابي- دمشق.

٢٢- فاطمة محمد رمضان- زيداني- متوفاة- مواليد ١٩١٠-١٩٩٨.

٢٣- محمد إبراهيم ثابت- زيداني- متوفى.

٢٤- محمد علي الكويفي- زيداني- متوفى.

٢٥- أبو سهيل حليس- عربين- متوفى.

٢٦- نذير حلاق- عربين- حي- العمر ٤٦ سنة.

٢٧- حورية الحلبوني- زيداني- متوفاة.

٢٨- حسين أحمد علوش- زيداني- متوفى.

٢٩- أكرم العيطة- دمشق- حي- العمر ٦٥ سنة.

٣٠- محمد حمودة- دمشق- العمر أربعون عاماً.

٣١- مرد كوش- إدلب- متوفى.

٣٢- أبو حسن الشامي- دمشق- قبر عاتكة- متوفى.

٣٣- أبو سمير- يبرود- متوفى.

٣٤- أم حسين المضاوية- دمشق- متوفاة.

٣٥- أبو حسين الحصري- دمشق- متوفى.

٣٦- ميخائيل إلياس- دمشق- توفي عام ٢٠٠٨- عمره ستون سنة- باب شرقي.

٣٧- سركيس أصطفان- دمشق- حي- عمره سبعون عاماً- باب شرقي.

٣٨- مصطفى أيتوني- دمشق- سنانية- حي- عمره ثمانون عاماً.

٣٩- موفق العلبي- دمشق- مدحت باشا- حي- عمره خمس وخمسون.

٤٠- حسيب عجمية.

٤١- سعيد دَبّو.

٤٢- كريم مبيض.

الباب الخامس

الخاتمة:

للتراث الشعبي الشفاهي المرافق للحرفة أهمية كبرى، كنت قد نوهت عنها في مكانها من الكتاب. هذا التراث الذي يتضمن الأغنية الشعبية، والمثل، والتشبيه، والمصطلح، والكناية، والتقاليد، والعادات، وكل ما يمكن رصده من قضاياه دخل الحرفة أي دخل في صلب العمل. وغار في أعماقه. وأدخل عليه سمات كثيرة على رأسها الاستمرار، والتواصل، والانسجام والتوافق، والتسلية، والتسرية عن النفس كل هذا كان يحدث وسط مناخات جميلة، ومحببة.

وننوه هنا أيضاً إلى أنه بقيت عشرات الحرف. موجودة في حياتنا أو كانت موجودة لم نكتب عما كان يرافقها من تراث شعبي شفاهي غني. ولكن ذلك تلزمه الإمكانيات الكثيرة المختلفة، وعلى جميع الصعد، ومنها الإمكانيات الذاتية من تفرغ، وتأمين للموارد المعيشية، ومنها الإمكانيات العامة المحيطة بالباحث، والدارس.

وتبقى في هذا المجال قضية أساسية، وهي أن هذا العمل لا يمكن أن ينجزه فرد. بل تلزمه جهود جماعية، وأعمال مشتركة بين عدة باحثين، وتلزمه جهود الدولة، والمشرفين الرسميين على مسائل التراث الشعبي حيث يحتاج الباحث إلى قضايا كثيرة لا يستطيع الحصول عليها إلا بإيعازات رسمية تساعده في عمله.

أحلامنا كبيرة وأمانينا كثيرة بأن يتحقق بعض المأمول في الجمع، والبحث، والدراسة في هذا الباب من أبواب التراث الشعبي الشفاهي، ومأثوراتنا الشعبية التي تدخل في صميم حياتنا.

المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- قاموس الصناعات الشامية- محمد سعيد القاسمي- جمال الدين القاسمي- خليل العظم- حققه وقدم له ظافر القاسمي- دمشق- دار طلاس ط١ ١٩٨٨.

٣- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء- تأليف نعمان قساطلي- الطبعة الثانية ١٩٨٢- دار الرائد العربي.

٤- نزهة الأنام في محاسن الشام- لأبي البقاء عبد الله البدري- عن علماء القرن التاسع الهجري- دار الرائد العربي- بيروت- ط١- ١٩٨٠- لبنان.

٥- الرحلة الشامية- لمحمد علي باشا- دار الرائد العربي- ١٩٨١- بيروت- لبنان.

٦- حوادث دمشق اليومية للشيخ أحمد البديري الحلاق- تحقيق د. أحمد عزت عبد الكريم- مطبعة لجنة البيان العربي- القاهرة- ١٩٥٩.

المراجع:

١- أضواء على قاموس الصناعات الشامية- بدر الدين السباعي- دار الجماهير العربية- مطبعة العلم.

٢- أسس الاشتراكية العلمية- المادية التاريخية- تأليف ف- كيللي- م كوفالزون- تعريب أحمد داود- تدقيق بدر الدين السباعي- إصدار دار الجماهير- عام ١٩٧٨.

٣- مجلة الحياة التشكيلية عدد (٧٤) ٢٠٠٥- وزارة الثقافة من مقال عن أوغاريت وفنون التعدين- د. عبد الله السيد.

٤- دمشق مدينة السحر والشعر- محمد كرد علي- دار المعارف- مصر- تاريخ الطبع غير معروف.

٥- مجتمع مدينة دمشق بين عامي ١٧٧٢- ١٨٤٠ في مجلدين- طبعة دار طلاس ١٩٨٦- المجلد الثاني.

٦- مجتمع مدينة دمشق- مرجع سابق- المجلد الثاني.

٧- مجتمع مدينة دمشق- مرجع سابق- المجلد الأول.

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

هذا الكتاب

كتاب الحرفة الشامية والتراث الشعبي الشفاهي هو بحث في ماهية الحرفة وكيفية نشوئها، ومتى نشأت، والتطور التاريخي الذي رافقها. وثم تعرف التراث الشعبي الشفاهي وعلاقتها به وما هي جزئيات هذا التراث من أغنية شعبية ومثل وتشبيه واصطلاح وكفاية. وتحليل دلالات النقوش والزخارف في بعض الحرف وصلتها بالأسطورة والتاريخ. كل هذا خلال ثلاثين حرفة من الحرف الشامية المعروفة. وهذا الكتاب هو الجزء الأول من ثلاثة أجزاء حول هذه القضية.

المؤلف

الهيئة العامة السورية للكتاب
The Syrian General Organization of Books

مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ١٤٠ ل.س
في الأقطار العربية مايعادل ٢٨٠ ل.س